القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يوليو - أغسطس 2005



نحن ومنظمة التجارة العالمية

ثقافة المراكز التجارية

ملف العدد

الزيتون..

العدد 4
المجلد 54

معارض ومؤتمرات

يوليو 2005

- المعرض الدولي الخامس للسيارات
  دمشق: 3 - 9
  alliedexpo@mail.sy
  http://www.alliedexpo.com
- معرض الاتصالات "جيتكوم 2005"
  صنعاء: 4 - 9
  exhibitions@yemen.net.ye
  http://www.exposanaa.com
- المؤتمر الدولي حول الطاقة الهيدروجينية
  اسطنبول: 13 - 15
  congress@dekon.com.tr
- منتدى المهارات الإدارية
  دبي: 16 - 18
  info@iirme.com
  http://www.iirme.com
- مؤتمر المُلكية العربية
  بيروت: 25 - 26
  info@iktissad.com
  http://www.iktissad.com
- مهرجانات بعلبك الدولية
  بعلبك، لبنان: 7 - 13 أغسطس
  http://www.tradingplaces.com.lb

أغسطس 2005

- المعرض الثالث للطاقة والمياه "إيواك 2005"
  صنعاء: 13 - 18
  exhibitions@yemen.net.ye
  http://www.exposanaa.com
- معرض المستلزمات المدرسية
  الكويت: 24 - 9 سبتمبر
  info@kif.net
  http://www.kif.net
- المعرض الدولي الخامس والثلاثين للنسيج
  القاهرة: 29 - 1 سبتمبر
  sales@pyramids-intl-group.com
  http://www.pyramids-intl-group.com

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
محمد الفوز
رولان قطّان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2005
جمادى الآخرة - رجب 1426

توزع مجاناً للمشتركين

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

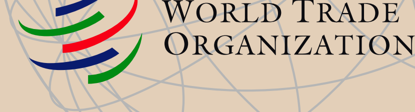
الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

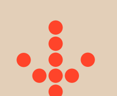
رسالة المحرر

1 طاقة واقتصاد

ما الذي يمكن أن يتغير حين تنضمّ المملكة رسمياً إلى **منظمة التجارة العالمية**..؟ وما هو انعكاس هذا الإجراء على حياتنا..؟ الصورة واضحة كثيراً أمام كبار رجال الأعمال، إلا أن هذا الوضوح متفاوت بالنسبة لعامة الناس. "القافلة" تستضيف أمين عام اللجنة السعودية لتطوير التجارة الدولية، وتسأله عن العديد من التحديات والحقائق القادمة.





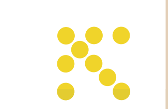


وتطرح القافلة موضوع **اندماج الشركات الكبرى** الذي صنع حقائق جوهرية في العديد من الأسواق الدولية والبيئات التنافسية، وباتت الحكومات معنية بما يجري بين الشركات الدولية التي تندمج أفقياً ورأسياً، وتدرس السياسات المتأثرة، خاصة في العقد الفائت.

2 قضايا

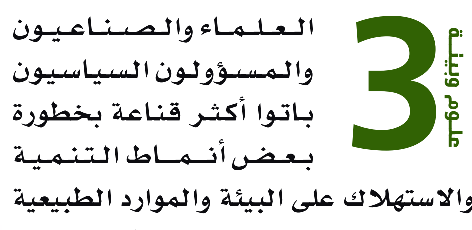
تستكمل القافلة رحلتها مع **الأغنية الشبابية**، وتتوقف، في مناخ قضايا عند الأغنية الخليجية، لتدرس التشابك الثقافي والاجتماعي وعلاقته بتطور الأغنية في منطقة الخليج العربي. كما تستكشف الجانب الفني في الأغنية الخليجية منذ بداياتها الشعبية حتى اليوم.





3 علوم وبيئة

العلماء والصناعيون والمسؤولون السياسيون باتوا أكثر قناعة بخطورة بعض أنماط التنمية والاستهلاك على البيئة والموارد الطبيعية والصحة العامة.. هذه الخطورة هي التي ساعدت على ظهور "**الكيمياء الخضراء**" كمفهوم جديد تسعى تطبيقاته إلى مراعاة ظروف الحياة على كوكب الأرض.





الفاصل المصور

لدى الفوتوغرافية السعودية منال الضويّان إحساس بصري يقودها إلى اقتناص بعض اللحظات في حيوية صامتة، وربما يكون هذا أرقى ما يمكن أن تستقيه عدسة مصور من الحياة حولنا.





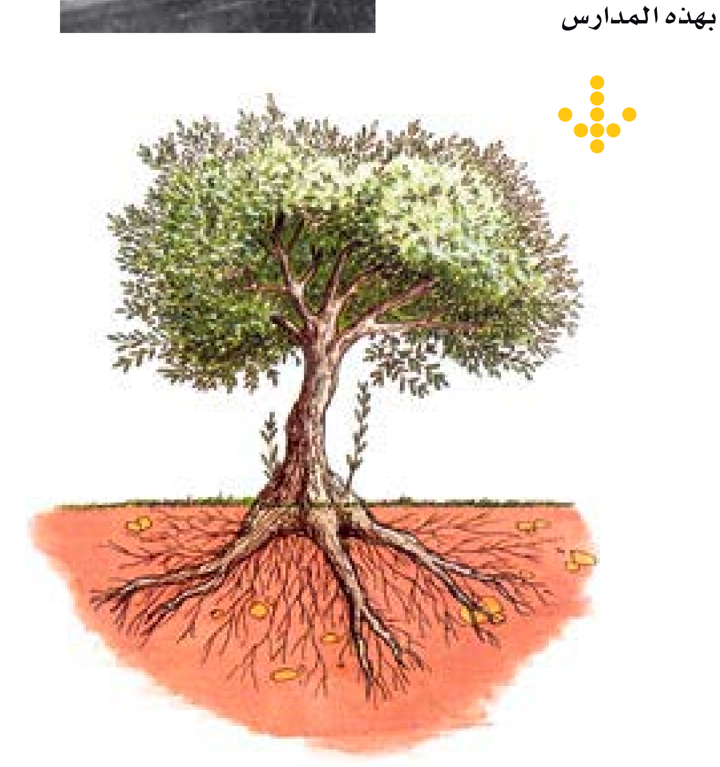
4 الحياة اليومية

مناخ الحياة اليومية يناقش قضية اجتماعية من زاوية معمارية. لقد تحولت **المراكز التجارية** إلى ثقافة صنعت بدورها واقعاً مرتبكاً في نمط الحياة العربية، بفعل ما فرضته هذه المجمعات من ثقافة تسوق مصطنعة ونافرة عن البنية المعمارية المحلية.



5 الثقافة والأدب

البدائية التي كانت عليها **مدارس الزمن الماضي** هي التي شكلت نقطة انطلاق الرواد وصناع الحياة والسياسة في العالم العربي. وتتوقف "القافلة" في المناخ الثقافي عند تفصيلات مهمة في حياة عدد من المثقفين العرب الذين مرّوا بهذه المدارس



6 ملف العدد

ملف العدد يتناول **شجرة الزيتون** بما يمثلها غصنها من رمز للسلام، وبما يجسد ثمرها من طعام، وزيتها من غذاء وضوء. الملف يحاول استنطاق بعضاً من أسرار هذه الثمرة التي أقسم بها الخالق في كتابه الكريم. ويبحث عن آثارها في التاريخ والفن والأدب.

المحرر

الرحلة معاً

سياحة المغانم!

تقول لغة الأرقام إن لدينا. نحن السعوديين. موقعاً متقدّماً بين الشعوب المصدّرة للسياحة الخارجية. ولا يخلو هذا التعبير، الذي تطرحه وسائل الإعلام، من الظُرف. فالتصدير عملية تجارية تبيع الدولةُ من خلالها سلعة لتحصل على قيمتها مالاً. وهو على العكس من الاستيراد الذي تشتري من خلاله السلعة وتدفع المال. ولهذا يعتمد الاقتصاديون على ثنائية الاستيراد والتصدير في تقييم الميزان التجاري للدولة، أية دولة..!

وفي السياحة يختلط حابل الاستيراد بنابل التصدير، إذ تصدر الدولة أموالها إلى الدول الأخرى من دون أن تحصل على سلعة؛ لأن ما يحدث هو أن بعضاً من سكان الدولة يتأبطون أموالهم ليتخلَوا عنها في الدول الأخرى، مقابل زيارتهم تلك الدول، وإقامتهم فيها، والاستمتاع بخدماتها، والتعرف إلى معالمها وثقافتها.. وهذه هي السلعة الطبيعية في اقتصاد السياحة.

وقد تفوّقنا على كثير من الشعوب، بحمل مبالغ طائلة سنوياً إلى ما دون وراء البحار، وإنفاقها من دون العودة بغنيمة ذات قيمة جوهرية. في العام الماضي وحده أنفق السعوديون قرابة سبعة مليارات ريال على السياحة الخارجية، وهو رقم يساوي 53 بالمئة من إجمالي ما أنفقه سيَاح دول مجلس التعاون الخليجي مجتمعين على السياحة الخارجية..!

ومصدر الغرابة مع مثل هذا الرقم الفلكي لا يكمن في حجمه المادي على الرغم من تخطيه الأسقف المعقولة قياساً بما تعانيه السياحة الداخلية من واقع، بل إن مصدر الغرابة يكمن في تلك الإجابة عن ذلك السؤال البسيط: بمَ يعود السعوديون سنوياً من أسفارهم..؟؟؟!!

سلبية الإجابة هي التي ترسم مشهداً يتكرر في كل مطاراتنا لأسرة عائدة من بلاد ترتكز إلى حضارة فارهة من دون أن تحمل ذاكرة أي من أفراد الأسرة شيئاً عن متحف تلك البلاد، ناهيك عن آثارها ومعالمها الثقافية.

والإجابة نفسها هي التي تفسر راحة مفتشي الجمارك الذين لا يجدون، بين الملابس والعطورات والساعات والسلع المتوافرة في أسواقنا أصلاً، كتاباً واحداً أو تحفة فلكلورية أو حتى رمزاً من ثقافة تلك البلاد..!

وعلى ذلك تقاس الإجابات الأخرى، وينكشف الواقع الذي يعكس خروج مليارات هائلة وعودة أصحابها مفلسين حتى من معرفة البلاد التي سافروا إليها..!

في بلادنا يثيرنا مشهد الأجانب في أسواقنا القديمة، وبالذات حين يتوقفون عند سلع شعبية. وبعضهم يدفع ضعف الثمن لـ "قُفَه"، أو "حصير"، أو بساط من "السدو"، وربما أقلّ من ذلك. على أن هؤلاء ليسو سيّاحاً بالمفهوم التجاري. إنهم وافدون للعمل في الغالب الأعمّ، لكنهم يُدركون أن لكل شعب ثقافته وموروثه وقيمه، ومن خلال السلع التي ربما لا تلقى اهتماماً لدينا نحن، يتعرفون إلى جوانب من ثقافتنا وبيئتنا، ويربطون بعضها ببعض ليعودوا إلى بلادهم وهم على مستوى معقول من فهم ثقافة الشعب الذي عاشوا بين أفراده.

أما حين نسافر نحن، فإننا نعود منهكين متعبين متذمرين، نجرّ حقائبنا جراً، ويتكل بعضنا على بعض حتى في حمل جوازات السفر. وقصارى ما نحمله من ذكريات الرحلة السياحية لا يتجاوز معرفتنا بأسماء الفنادق التي أقمنا فيها، والأسواق، ومواقع الترفيه البريء.. وغير البريء..!

في حين يعود الذين يدركون معنى السياحة مفعمين بالحيوية والنشاط، ممتلئين بالراحة لأنهم صنعوا من تكاليف سياحتهم فعلاً ثقافياً، وحوّلوا تنقلاتهم إلى نوع من التواصل الإنساني مع حضارات مختلفة، وثقافات جديدة، وحياة حافلة بالمعرفة والاكتشاف الذاتي اليومي. وهذه هي مغانم السفر ومكاسب السياحة.

وإذا كانت السياحة العائلية أقلّ سوءاً مما نسميه "سياحة العزاب"؛ فإن كلا النوعين يشتركان في أمر واحد تقريباً؛ هو التركيز على الجانب الترفيهي في الرحلة، وتغليبه على الجانب الثقافي. وكم هو مدهش أن يرافق الرجل منا أسرته، ومعها الخادمة، ثم لا يكون فرق حقيقي بين السفر وعدمه اللهمّ إلا في اختلاف البلاد والعباد..!

مثل هذه النوعية من السياحة تتنقل من مدينة ألعاب إلى أخرى، ومن سوق إلى سوق، ومن فندق إلى آخر، ويتسابق الجميع إلى التكاسل، وتوزيع مهام التثاقل والبلادة، بما في ذلك تناول "الكبسات" المحلية في عقر الديار الأوروبية، الأمر الذي لا يشجع أحدا حتى على التعرف إلى خصوصية طعام تلك البلدان الأجنبية!

ومن الطبيعي، والحال هذه، أن نكون في مقدمة مصدّري السياحة الخارجية التي تقودها ثقافة الاستهلاك المعتادة لدينا. ونتحوّل، بفعل ذلك، إلى مسافرين يبحثون عن فنادق ومواقع ترفيه وأسواق منعزلة عن مجتمعها الذي وُجدت فيه. وفي نهاية الرحلة نعود متأبطين الإفلاس والملل، ومتأففين من دفع فواتير البطاقات الائتمانية وأقساط القروض..!

أما المغانم والمعارف والثقافات، المجانيّ منها والمدفوع، فهي، للأسف، خارج جدول الرحلة المكلفة جداً..!

رئيس التحرير





إلى..
رئيس التحرير

ترحِّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

كتب القافلة؟

أنا أحد محبي هذا السفر الجميل "القافلة" وأحد الكتّاب الذين شاركوا فيها من خلال الباب الثابت "صفحة في اللغة". ولأنني من عشاق لغتنا العربية، رأيت أن أشارككم حبي لمجلتنا القافلة، فقمت بجمع مقالات "صفحة في اللغة" المنشورة منذ عام 1995م، وها هي المجموعة مرفقة مع خطابي. آملاً أن ينال المقترح إعجابكم، ونراه ذات شهر يوزع مع القافلة.
كما أفيدكم أنني قمت أيضاً بجمع المقالات التي قمتم بنشرها خلال الباب الثابت "قراءة في كتاب" آملاً أن أرسلها لكم قريباً، إذا كانت الفكرة مقبولة لديكم.
ومن الأفكار التي أحلم بها أن يصدر ديوان القافلة ليضم جميع القصائد التي نشرت خلال خمسين عاماً، أو تضمها أسطوانة مضغوطة وتوزع كهدية لقرّاء القافلة.

عاصم علي عبداللطيف
ينبع البحر

القافلة: شكراً لهذه الهدية الثمينة التي كلفتك الكثير من الجهد الذي نقدره. واقتراحك محل عنايتنا من الآن وسنوافيك بمستجداته مستقبلاً.

لماذا لا نقرأ؟

اطلعت على العدد 2 من المجلد 54 الذي عالج مشكلة حقيقية يعانيها الوطن العربي بحق، وهي مشكلة عدم القراءة في ظل غزو الفضائيات والألعاب الإلكترونية لعقول أبنائنا وبناتنا.. وأعجبني الموضوع بشدة وتمنيت كما يتمنى أي قارئ جاد أن يضيف هذه المجلة المميزة إلى مكتبته. لذا أرجو إطلاعي على الشروط التي يجب أن تتوافر في من يرغب في الاشتراك في مجلة القافلة.

محمد عبدالله الصيني
المدينة المنورة

القافلة: لا شروط للاشتراك غير الاهتمام، وطالما أنك من المهتمين نرحب بك مشتركاً وصديقاً.

اكتشاف في البريد

أنا أعمل في مؤسسة البريد السعودي، وأقوم بعملية الفرز أحياناً. وذات مرة وصلتنا مجموعة من المطبوعات ومن ضمنها كانت القافلة التي تميزت فعلاً بغلافها، وهو ما جذبني، بالإضافة إلى فرز الألوان. ولم تجذبني مواضيعها لأني لا أستطيع فتح "البعائث" التي تصل إلينا لتوزيعها على المشتركين، وذلك من باب الأمانة. وكشفت عن فضولي لأحد زملائي في العمل، ففاجأني بأنه أحد المشتركين في المجلة. وذات يوم وصل عدد جديد منها، وعند قراءتي لاسم المشترك، وهو زميلي، سلمته إياها، فقام بتقديمها لي. المهم أني قرأتها، وأعجبت بمواضيعها وجودتها، وخاصة الملف المصور، حيث إني أحب فن التصوير، وتمنيت آنذاك أن أكون أحد المشتركين بها. وأود سؤالكم أين يمكن لشخص أن يتعلم فن التصوير؟

عبدالله حسن راشد القرشي
الباحة

القافلة: أهلاً بك مشتركاً في القافلة. أما فن التصوير فيدرس في دورات خاصة تنظمها بعض المعاهد المهنية، عليك أن تسأل عن أقربها إلى مكان إقامتك.

ردود خاصة

إلى الأخوة:

- أحمد النافع، الرياض: نحن متفقون وإياك على الرأي الذي أبديته في رسالتك. ولكن يمكن للقصة الأدبية المتخيلة، على سبيل المثال، أن تتضمن جريمة قتل من دون أن يعني ذلك أنها تشجع القارئ على ارتكاب الجريمة.
- عبدالله آل سابر الدوسري، وادي الدواسر: شكراً للقصيدة الجميلة التي نظمتها في القافلة، وأهلاً بك صديقاً دائماً للمجلة.
- مجد الصمصام، دمشق: لقد تغيرت الظهران عمّا كانت عليه عام 1987م، وكذلك القافلة التي ستصلك إلى عنوانك الجديد بإذن الله.
- محمد عبدالعزيز حسنين، محافظة الخرج: سيصلك ما طلبت إن شاء الله.
- الدكتور يوسف سعيد، حلب: نأسف للصعوبة التي تواجهها في الحصول على القافلة التي ستصلك بالبريد؛ لأنها ستبقى كما كانت مجانية، ولا تباع في المكتبات.
- ليلى محمد محمد، الحسكة: سبق أن نشرت القافلة في العدد الثاني من المجلد 54 موضوعاً مطولاً بعنوان "الأطفال بين ما يحبونه وما يحبه الأهل" وهو يتضمن الكثير مما ورد في مقالتك.
- مهدي علي، الجزائر: الكتب والأسطوانات التي تريدها متوافرة في المكتبات.
- حسن بن حجي الشبيب، الأحساء: شكراً لقصيدتك "أسطورة الثقافة" لما تكنه من عواطف للقافلة. وكنّا نتمنى نشرها لولا ضيق المجال.
- ناهد محمد فارس: يمكنك اعتماد البريد الإلكتروني وإرسال عنوانك كاملاً مع مقالتك.

صنع في الصين

اطلعت على العدد السادس من المجلد 53 لدى أحد أقاربي، وشدني فيه موضوع "صنع في الصين.. ولكن كيف" وهو جهد طيّب يتعلق بموضوع طالما أثير في المجالس الخاصة والعامة لتحليل رخص أسعار المنتجات الصينية، ثم عرجت على بعض المواضيع في ذلك العدد. ولأن قريبي يرفض أن يعير أي كتاب أو مجلة من مكتبته الخاصة فلم أستطع استعارة ذلك العدد أو غيره. لذا آمل تكرمكم بتسجيل اسمي ضمن مشتركي المجلة.

ماجد بن حمد بن أحمد العامر
الرياض

القافلة: نرحب برغبتك وستصلك المجلة بانتظام إن شاء الله.

المدرس الخصوصي

وصلني أحد أعداد مجلتكم الموقرة من صديق لي، وجذبني موضوع الدروس الخصوصية والمدرس الخصوصي ما له وما عليه. ولكن المشكلة، من وجهة نظري المتواضعة، ليست في المدرس الخصوصي، بل في المدارس؛ حيث يفتقد بعض المدرسين الأسلوب الملائم للتعاطي مع الطالب متوسط الذكـ[...] دارات التعليمية لا تهتم بما يكفي بتأهيل المعلم ولا بمراقبته لمعرفة مدى الجهد الذي يبذله في تأدية مهمته التعليمية. فيلجأ الطالب في مثل هذه الظروف، خاصة إذا كانت قدرته على الاستيعاب محدودة، إلى مدرس خصوصي.
وهذه وجهة نظر طالب يحكي بصدق عن واقع الحال في بلده. وما عاناه في مراحله التعليمية.

عبدالحميد السعيد عبيد
مصر

الأصدقاء الجدد

الأخوة: أ.د. حامد بن محمد المتولي، عميد كلية المجتمع بالباحة - د. عمر بن عبدالله العمر، المدير العام للتربية والتعليم بمنطقة القصيم - فتحي أنور الجشي، الدمام - أخذاري محمد، الجزائر - علي عبدالمحسن الخالدي، بقيق - إسماعيل المادح، القطيف - فايز حسن الشيخ، الأحساء - محمد حبيب محمد بهاري، مكة المكرمة - خديجة إبراهيم سلمان، البحرين - إيمان سلمان سلمان، البحرين - عبدالحميد بن محمد المانع، عنيزة - محمد علي الشهري، الباحة - قاسم عبدالله التمار، الأحساء - غازي الدرويش، القطيف - رغيشة بنت جمعة العبدلي، عُمان - يوسف مختاش، الجزائر - حمد بن سعيد اليعقوبي، عُمان - عدنان سلطان المسلم، الأحساء - عادل حمد المهنا، القطيف - رابح قير، الجزائر - عبدالله بن محمد السويلم، الرياض - د. أحمد العدساني، الأحساء - محمد بن علي الكبريش، بريدة - عبدالعزيز بن محمد الحسن، بريدة - إبراهيم ابن سليمان الأحمد، بريدة - عبدالله عبدالعزيز الحربي، المدينة المنورة - ثامر بن جمعان البراق، المندق - حسن عبدالمحسن الشقاق، الأحساء - النقيب يوسف عبدالعزيز الراجحي، الرياض - حازم جعفر المعلم، القطيف - عصام الماضي، عمّان - تركي سعيد المالكي، جدة - محمد صالح البليهد، الجبيل - مهند الغراب، الظهران - خالد بن عبدالكريم الخراشي، المنطقة الشرقية - سلطان الثقفي، الظهران - سميرة بلبولي، تونس - يحيى عايض عسيري، أبها - الشيخ ياسين عبدالله السليمان والشيخ محمد الشيخ إبراهيم الخزعل ومكتبة الشيخ المفيد، الأحساء - صلاح أحمد العبدي، الظهران - د. مصطفى محمد ولي سيت، جدة - عادل جعفر آل ثويمر، الرياض - عبدالرحمن بن محمد الزهراني، الدمام - كوسة سليمة، الجزائر - علي المادح، القطيف - بعلوج نور الدين ابن العربي، الجزائر - محمد بن عبدالعزيز العقيل، الدمام - محمد عبدالله العريضي ويوسف محمد صالح العويس، الأحساء - محمد بن علي الحربي، الخبر - نادية رشك باني، البصرة العراق - صالح إبراهيم الفزيع - بدرا مباي، داكار السنغال - جمال سالم باجنيد، جدة - عبدالباسط محمد يماني، جدة - منصور بن مرعي آل طراد، الدمام - عبدالله علي الجنيدي، الرياض - عائشة إبراهيم الجفيري، قطر - منصور عيسى السبع، الظهران - الزبير ابن محمد أيوب، المدينة المنورة - أحمد عبدالله العمران، الأحساء - إبراهيم كاظم المبارك، القطيف - عبدالله عيسى الزويد، الأحساء - محمد زين الدين بن آدم، سري لانكا - مشعل عبدالمحسن الحربي، بريدة - خالد عبدالعزيز البعيجان، الرياض - خالد بن موسى كرسوم، ينبع - د. عبدالعزيز السحيباني، الرياض - محمد رضا هلالي، مصر - حسين بن مصيليح الصيفي، المدينة المنورة - عمر عبدالعزيز الربيش، بريدة - عبدالرحمن فهد بالغنيم، الهفوف - عبدالله محمد الشهري، جدة - مريم عبدالكريم محمد، البحرين - عبدالعزيز عبدالله الفياض، عنيزة - فهد بن محمد الفريح، رفحاء - سليمان حسين حسان، رفحاء - أحمد عبدالعزيز الشويعر، المجمعة - فهد ابن عبدالله المهنا، الزلفي - محمد خلف الحقباني، الأفلاج - صالح فهد سبيلاء، الهفوف - علاء عبدالباسط برنجي، الظهران - هاشم محمد جميل الشريف، المدينة المنورة - جاسم القرقوس، الأحساء - فهد حسن العربي، المدينة المنورة - عبدالعزيز سليمان بن إبراهيم النملة، المدينة المنورة - محمد عبدالمجيد الشريف، الطائف.

القافلة: شكراً لما تكنونه للقافلة من عواطف نبيلة. وقد أحلنا رسائلكم إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم أعداد القافلة بانتظام، إن شاء الله.

عتاب

يقول الشاعر:

لا تخف ما صنعت بك الأشواق
واشرح هواك فكلنا عشاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى
في حمله فالعاشقون رفاق
واصبر على هجر الحبيب فربما
عاد الوصال وللهوى أخلاق

وهذه حالي مع مجلتكم العامرة بعد أن انقطعت عن الوصول إليَّ بسبب تغير العنوان وهأنا أعلنها مدوية أما آن لكم وصالي..

شاكرين ما تقدمونه من إبداعات وتميز يرقى بكم إلى العالمية. وفي الختام أقول كما قال الشاعر:

وقيدت نفسي في ذراك محبة
ومن وجد الإحساس قيداً تقيدا

ماجد بن سعد الحارثي
الطائف

القافلة: شكراً للعاطفة التي يتضمنها هذا العتاب الرقيق، آسفين لانقطاع المجلة عن الوصول إليك لسبب نجهله، وسنسعى إلى إعادتها إليك بإذن الله.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش مواضيع طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



التروس وتطبيقاتها في الحضارة العربية

على الرغم من شمولية ملف "الترس" المنشور في العدد الثاني من المجلد 54، أود أن أضيف بعض جهود العرب والمسلمين في هذا المجال.

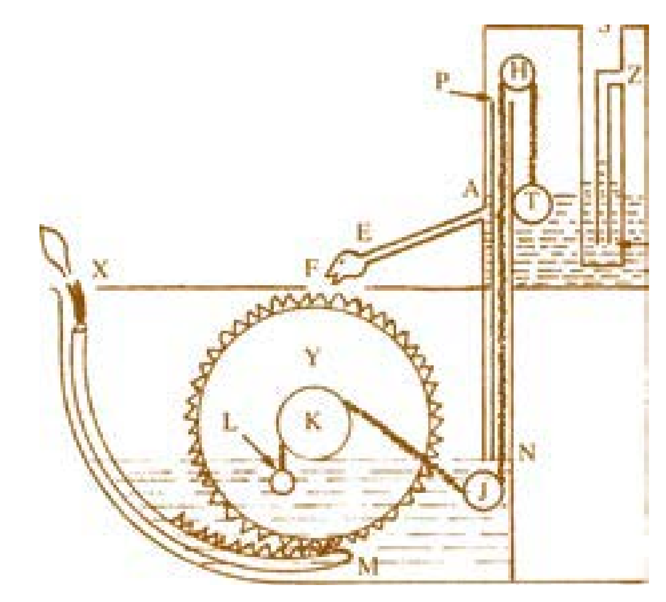
عرف العرب والمسلمون نوعان من المنجزات الهندسية والآلية. الأول، مجموعة الآلات التي صممت للاستعمال اليومي كالمطاحن وأدوات رفع الماء من الآبار والأنهار. والنوع الآخر ويشمل الحيل الهندسية التي صممت خصيصاً للترفيه، وكان بينهما قاسم مشترك ألا وهو قيامهما على أسس علمية تدخل في فكرة عملهما قوة دافعة تحرك تروساً مسننة - المسننات.

يقول الدكتور دونلدهيل، المهندس والمؤلف التاريخي البريطاني: "لقد تميز المجتمع الإسلامي منذ أول عهده ببناء المدن الكبيرة كبغداد والبصرة في العراق وقرطبة في الأندلس وكان لا بد لازدهار هذه المدن من نشاط يوازيه في الزراعة والصناعة في الأراضي التي تحيط بها يكفل الغذاء والكساء والمأوى لأهالي هذه المدن، ويزودهم بمورد للرزق على شكل تجارة رائجة. وقد وقع عبء تحقيق ذلك على كامل من نطلق عليهم في هذه الأيام لقب المهندسين، أي المكلفين ببناء الجسور والسدود للري وبناء آلات رفع المياه والمطاحن المائية".

ومن الآلات العربية التي قامت صناعتها على أساس فكرة التروس. آلات رفع الماء التي وصفها. بديع الزمان الجزري - في كتابه - الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل. فقد وصف خمس آلات لرفع المياه تعمل بقوة جريان الماء في مجراه الطبيعي. وقد جعلها الجزري ذات تصميمات مختلفة لتناسب الارتفاعات المتباينة التي يلزم نقل الماء إليها. وتركت هذه الآلات بصمة واضحة على تاريخ صناعة الآلات في العالم. وقد جمعت إحدى هذه الآلات بين جذع التدوير ومجموعة من المسننات وكانت تلك أول آلة من هذا النوع في التاريخ.

وهذا وصف إحدى هذه الآلات الخمس: آلة لرفع المياه تستمد حركتها من دوران إحدى الأبقار (كما في سواقي الريف المصري) وتتكفل بنقل الحركة مجموعة من التروس والمحاور الأفقية والرأسية بحيث تصل حركة الدوران في النهاية إلى مجموعة من "الكيزان" الدوارة تقوم باغتراف الماء من المجرى الطبيعي وصبه في المجرى الصناعي المطلوب نقل الماء إليه.

وكذلك المطاحن التي أنشأها العرب والمسلمون والتي كانت تعمل من فوق المراكب الراسية في الأنهر مثل نهر دجلة والفرات، حيث تحرك قوة الماء الجارية ترسين مسننين يديران حجر الطاحونة. وقد وصل إنتاج أحد هذه



المطاحن في ذلك العصر عشرة أطنان من الدقيق في اليوم، وهذه مقدرة لم تكن متوافرة لأي من المطاحن الموجودة في أوروبا في ذلك الزمن. والسبب في إنشاء المطاحن المائية فوق المراكب هو الاستفادة من قوة اندفاع الماء في مجرى النهر. وهذا يفسر أيضاً وجود العديد من المطاحن فوق الجسور.

وفي القرن العاشر، كانت مدينة البصرة والمنطقة المحيطة بها تعتمدان على قوة المد في إدارة الطواحين وهذا إجراء لم تهتد إليه أوروبا إلا بعد ذلك بقرن من الزمان، كما استخدم العرب حركة الدولاب المائي لأهداف غير طحن الحنطة فاستعملوه في صناعة الورق وسحق الفلزات المعدنية وقطع الأخشاب وصناعة السكر.

وقد وصف الجزري في كتابه آلة مائية تعتبر النموذج الأول الذي مهّد الطريق أمام ابتكار المحرك البخاري وآلات الضخ التي تعمل بالمكابس أو الأسطوانات المتداخلة. وكان المسلمون أول من استعمل البخار لتوليد الطاقة الميكانيكية. فبجانب ما ذكره الجزري في كتابه، نجد تقي الدين محمد ابن معروف الدمشقي يصف في كتابه "الطرق السنية في الآلات الروحانية" آلة لتدوير أسياخ لشي اللحم بقوة البخار تعتمد على عمل المسننات (التروس). وذلك بأن يوضع ماء في إبريق ويسخن بالجمر المستعمل للشواء، فينطلق بخار الماء من فوهة الإبريق بقوة، ويقابل هذا البخار فراشات دولاب مثبت على السيخ فيحرك البخار فراشات الدولاب وهذا يؤدي إلى تدوير السيخ.

وفي وسع الباحثين أن يحصوا لنا آثار العرب في بعض العلوم أو بعض الصناعات، ولكن آثار العرب في الحضارة عامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ ولا هي قابلة للحصر أو الادعاء حتى في بعض العلوم التي يدعي الغرب أن العرب لم يألفوها مثل الكيمياء والهندسة والرياضيات أو حتى التكنولوجيا بمعناها الحديث.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي
طنطا، مصر

حول ملف «الترس»، القافلة عدد مارس-إبريل 2005



أجل!!.. مكة التي لا نعرفها!!

أرسل التحية عبقة إلى جميع من صف التحفة البهية القافلة، قافلة محملة بزخم ثقافي قطعت مفازات طويلة لتحمل إلينا موارد نقية ننهل منها فوائد ومعارف متجددة، تتسرب إلى العقل وتتفاعل مع الوجدان ساعة الغوص في البحر المعلوماتي. وفي إطلالتها الأولى لهذ العام امتطت القافلة في راحلتها موضوعات كثيرة متعددة كعهدها الشامل للشبكة المعلوماتية، إلا أن ملف العدد حمل بين طياته موضوعاً سرى في القلوب قبل قراءته وشد الألباب عند مطالعته، تناول البيت العتيق والبلد الحرام الأمين، حمل شعار العدد اسم "مكة" مهوى القلوب ومسرى الوجدان، بملف أشبه بالبحث المتكامل حوى بين دفتيه مكة الماضي والحاضر، مكة المقيم والوافد عادات وتقاليد وغرائب ولهجات وأقاويل وأمثال.

زخم كبير عجّ به هذا الملف وألمّ بكثير من دقائقه، فأصدقنا كاتبه الأستاذ حسين محمد بافقيه القول عندما أضحى بعنوان غريب لملفه "مكة التي نعرفها، ومكة التي لا نعرفها". وعجباً عندما كنت أدعي في الماضي إلمامي بشؤون مكة بحكم غدوي إليها مرات كثيرة وزياراتي لجنباتها في كل مرة أقدم إليها، محاولاً كسر سيادة المثل "أهل مكة أدرى بشعابها". لكنني بدوت خاوي الوفاض وأنا أقلب صفحات الموضوع في القافلة مشعراً بقلة حيلتي إزاء ما وجدته من زخر المعلومات وأضواء الانكشاف التفكيري لمحيطها، والتقاط إجابات كنت قد نبشت في البحث عنها - منذ زمن - وألفيتها أخيراً ضمن صفحات القافلة؛ حتى بدت لي مكة وكأني لا أعرفها وعلى عهد جديد بحللها الدرية الكريمة، علماً بأن هذا العدد هو الأول الذي يقع بين يدي ويبصره ناظري، ومن جميل القدر أن يكون هذا العدد قد نلته هدية من الأستاذ محمد العصيمي، رئيس تحرير القافلة، إبان قدومه إلى الأحساء وتشريفه لنا في إثنينية النعيم الثقافية، حيث كانت البداية والانطلاقة للتواصل بالقراءة والمطالعة والتفاعل مع الموضوعات المطروحة.

وأنا على أمل أن تصلني القافلة بعد أن سجلت للاشتراك فيها، والشوق يعانق قلبي انتظاراً لما سيقبل إليها من موضوعات استمرأت منذ زمن قراءتها وحب الاطلاع عليها، ولكم الشكر الجزيل جميعاً لكل جهد تبذلونه في سبيل إطلالة القافلة علينا برصانة وحرفة وتميز، فلكم شكري وتقديري.

أحمد بن خالد أحمد العبدالقادر
الأحساء

حول موضوع «مكة التي نعرفها.. مكة التي لا نعرفها»، القافلة عدد يناير-فبراير 2005

حول

لكي لا تموت القراءة

طالعت عدد مارس - أبريل من القافلة، واستوقفني ما يعانيه عالم النشر في البلاد العربية وقلة إقبال الناس على القراءة.

إن هذه الظاهرة غير منحصرة في بلاد العرب. ففي العالم بأسره مشكلة تكمن في إشاحة الناس بوجوههم عن القراءة والمطالعة، حتى أن الاحتفالات بمناسبات تتعلق بالكتاب والقراءة صارت تتحدث علناً عن وجود أزمة في هذا المجال. فلماذا أعرض الناس عن الكتاب؟ وهل أن الوسائل الإعلامية المرئية تلعب فعلاً الدور السلبي الذي تتهم به؟

تدل الإحصاءات على ازدياد سنوي لاستهلاك العالم من الورق. حتى أن المطبوع منه صار يكفي لتغليف الكرة الأرضية أكثر من مرة. ولا شك في أن مثل هذا الاستهلاك الهائل يذهب في معظمة إلى طباعة الجرائد والمجلات. فما من بيت في العالم إلا وتدخله هذه الدوريات بين الحين والآخر. أما الكتاب فشأن آخر.

إن من يزور المكتبات العامة الحافلة بالكتب القيمة والمراجع المهمة، يرى المؤلفات مرصوصة في عالم من الوحدة والوحشة. اللهم إلا إذا استثنينا الوافدين إلى بعض الأقسام (المجالس) لمطالعة الدوريات والمجلات. وأود أن أشير هنا إلى أن من الأسباب التي تحبط القرّاء وتبعدهم عن المطالعة، هو أن عدد الكتب والكتّاب قد زاد في الآونة الأخيرة وصار أي كان كاتباً أو مؤلفاً، لا ينال القارئ من أعماله أية فائدة على صعيد العلم والمعرفة، لا بل إنه لا يجد إلا الملل من كتب كثيرة لا تروي غليل الباحث عن الاطلاع عما لا يعرفه.

وهذا الجانب بالتحديد هو ما يزيد من ميل الناس إلى الابتعاد عن القراءة. لأن المطالعة ليست ترفاً ولا تعبئة لوقت فراغ، بل عمل تثقيفي يراد منه إغناء معارف الشخص ومداركه. وإذا لم يؤد هذا الفعل الغاية منه في محاولة أو أكثر، فإنه يفقد جاذبته ويتخلى عنه القارئ لينضم إلى صنوف الذين لا يقرأون.

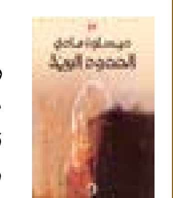
يوسف أبو بكر مدني
كيرلا، الهند

حول موضوع «لماذا لا نقرأ»، القافلة عدد مارس-إبريل 2005

وردنا

• رياضيات عمر الخيّام

من تأليف الدكتور رشدي راشد والدكتور بيجان وهاب زادة وترجمة الدكتور نقولا فارس، وصدر عن "مركز دراسات الوحدة العربية" في بيروت في إطار سلسلة تاريخ العلوم عند العرب. يقارن هذا الكتاب بين حصيلة أعمال الفرنسي ديكارت وتلك التي أنجزها الخيّام في القرن الحادي عشر الميلادي، ويبين أن هندسة ديكارت تشكل إكمالاً للتقليد الذي اختطه الخيّام والطوسي، وأن قراءة "هندسة" العالم الفرنسي تستدعي النظر باتجاه المصدر. "فهذا العمل لم ينبع من لا شيء، بل هو استيعاب للتقاليد التي ورثها، وتكييف جديد لها، مكنّا مؤلفه من رؤية عالم آخر لم تنظره من قبل عين".



• الحدود البرية

رواية جديدة للأديبة العراقية ميسلون هادي صدرت مؤخراً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
تقع هذه الرواية في 155 صفحة، وهي الرابعة بعد "العالم ناقصاً واحد" و"يواقيت الأرض" و"العيون السود". إضافة إلى عدد كبير من المجموعات القصصية التي نشرتها المؤلفة منذ منتصف الثمانينيات في بغداد والقاهرة ودمشق وبعض القصص الموجهة إلى الفتيان والترجمات. وقد سبق لأعمال ميسلون هادي أن حظيت بمديح النقاد العرب ومن بينهم الدكتور عبدالقادر القط، وعبدالرحمن مجيد الربيعي، ونازك الأعرجي التي وصفتها بأنها "متأملة جيدة للحياة والناس والأشياء".

• تراث الأجداد

وهو الجزء الرابع من دراسة لجوانب مختلفة من المأثورات الشعبية وتاريخها من تأليف محمد بن عبدالعزيز بن علي القويعي. يقع هذا الجزء في 400 صفحة، ويتضمن عدداً كبيراً من الصور الفوتوغرافية للصناعات اليدوية القديمة مثل الملابس والحلي، وأيضاً الأسلحة والأدوات التراثية المدرسية على اختلافها وغير ذلك الكثير.
ولا تقتصر مادة الكتاب على تناول الأشياء والأدوات فقط، بل تشمل أيضاً شروحات لمفردات وأمثال شعبية مرتبة حسب تسلسلها الأبجدي. ويلي هذا الجزء جزء خامس يصدر قريباً، ثم سادس وأخير يقول المؤلف أنه سيقتصر على الصور الفوتوغرافية.



كوربيس

باحليوة يتحدث عما سوف يتغير..

انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية

يثير انضمام المملكة العربية السعودية إلى منظمة التجارة العالمية عدداً من الأسئلة حول ما يمكن أن يغيره على صعيد الاقتصاد والأعمال وانعكاساته المباشرة على سوق العمل. وإذا كان كبار رجال الأعمال قد تجاوزوا مرحلة طرح الأسئلة إلى إعداد العدة لقطف ثمار هذا الانضمام، فإن الصورة لا تزال ضبابية بعض الشيء في أذهان الكثيرين، خاصة الشبّان الذين يتهيأون للانخراط في دورة سوق العمل والإنتاج.

ومع تسارع الخطوات في الآونة الأخيرة في اتجاه هذا الانضمام الذي بات متوقعاً خلال أشهر معدودة، حَمَل مدير التحرير استفسارات المواطن السعودي إلى الأمين العام للجنة السعودية لتطوير التجارة الدولية المهندس عمر أحمد باحليوة فكان هذا الحوار:

نريد ببساطة متناهية قدر الإمكان أن نعرف ماذا يعني انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية بالنسبة للمواطن السعودي؟

المواطن السعودي العادي سوف يفاجأ بسوق اقتصادية سعودية أكبر حجماً وأكثر حيوية، سوقاً أكثر انضباطاً تقوم على أسس اقتصادية تجارية وصناعية سليمة بيعاً وشراءً، سوق فرصه أكبر وتحديات أكبر كذلك، سوق عضو في النادي الاقتصادي العالمي، فهذه هي منظمة التجارة العالمية. هذا بالنسبة للصورة الكبيرة. أما بالنسبة للصورة الصغيرة، فسوف يجد المواطن السعودي خيارات أكثر من المنتجات، ومنتجات تتنافس في الجودة والسعر. وهذا بالتأكيد مفيد له. لكنه في المقابل، قد يخسر أشياءً، مثل شراء منتجات غير أصلية لا تحترم شروط "الملكية الفكرية". فربما لن يعود بمقدوره شراء برامج على أقراص مدمجة ثم نسخها بشكل غير قانوني بأسعار زهيدة. فهذه الأقراص تعتبر اعتداءً على ملكية أصحابها الأصليين الذين لايستفيدون من تعبهم. وهذا أمر مرفوض بالنسبة لقيمنا أصلاً.

على المواطن أن يرفع كفاءته لفهم عناصر الحياد الاقتصادية السليمة

أما إذا كنتَ شاباً سعودياً في مقتبل الحياة، فأنت أمام فرصة كبيرة وتحدٍ أكبر. عليك أولاً أن تعزز ثقتك بنفسك بأن تستعد لفرص غير محدودة في العمل تفسح لك المجال كي تتحول معها إلى منتج يتمتع بكفاءة منافسة. والشباب السعودي قادر على هذا ويجب أن يقبل التحدي. ويجب أن يتمتع بقدرات في مجالات مختلفة، كاللغات الأجنبية والكمبيوتر وغيرهما. وأن يشحذ إمكاناته في علوم الإدارة والاقتصاد والمعلوماتية بمختلف حقولها وأصنافها ومجالاتها غير المحدودة. وهذا يضعنا أمام ضرورة إعادة النظر بهيكلية التعليم ومواكبة مخرجات التعليم وملاءمتها لسوق العمل.

وماذا لو كنت رجل أعمال أو منخرطاً في الحياة الاقتصادية؟

الحقيقة إنه لا بد أيضاً للمواطن العادي المنخرط في الحياة الاقتصادية من أن يتصل بصورة أو بأخرى بدنيا الدورة الاقتصادية هذه، وأن يرفع كفاءته في فهم عناصر الحياة الاقتصادية السليمة، حتى يؤهل نفسه لاستخدام الكمبيوتر وطرق البحث عن المعلومات التي تهمه، بل والقدرة على مخاطبة الغير. إن المستقبل هو للشعوب التي تستطيع مخاطبة الشعوب الأخرى والتعامل معها. ولا شك أن المشروع الذي طرحه مؤخراً ولي العهد في إدخال الكمبيوتر إلى كل بيت سعودي يمثل خطوة عملية في هذا الاتجاه، إلا أن الأهم أن له دلالة كبيرة لما هو مطلوب منّا كي نستعد لنكون أعضاء كاملي العضوية في اقتصاد وعالم الغد.

أما إذا كنت رجل أعمال كبير فالموضوع يختلف تماماً. فرجل الأعمال يمثل الاقتصاد وهو عضو فاعل في كيان اقتصادي لا يتجزأ، خاصة في الدول النامية. والالتحاق بمنظمة التجارة العالمية موضوع يخصه ويجب أن يكون له حضور حقيقي في كل الجهود المؤدية إلى هذا الانضمام. كانت الحكومات في السابق تشق الطريق ورجال الأعمال يقطفون الثمار، اليوم اختلف الوضع، على رجل الأعمال أن يكون شريكاً كاملاً يسهم في تذليل العقبات والتعرف إلى مقومات هذا الانتقال والاستعداد له كذلك. فعليه دور وأمامه تحديات كذلك.

والحقيقة إن رجال الأعمال السعوديين كان لهم دور مهم في هذا المجال، سواء من خلال الغرف التجارية أو حتى من خلال أدوار مباشرة. وقد اهتمت الهيئات الخارجية المعنية بموضوع انضمام المملكة بهذه الناحية اهتماماً واضحاً، وأضحت حين تزور المملكة تحرص على زيارة الغرف التجارية السعودية والتعرف إلى رجال الأعمال السعوديين.

وقد حقق ذلك نقلة في تغيير الصورة النمطية عن المملكة اقتصادياً ومجتمعاً. فرجل الأعمال يمثل شريحة مهمة في المجتمع، ومعنية مباشرة بهذه القضية والتعرف إليها أمر مهم؛ لأن المنظمة في النهاية سوف تتعامل مع رجال الأعمال تحت مظلة الحكومة. وشهادة رجال الأعمال تستكمل الجهد الحكومي وتعطيه بعداً وصدقية إضافية مؤكدة. وهذا يصح في كل اتجاه. والمسؤول السياسي قد يتغير لكن رجل الأعمال مستمر بصفته يمثل مؤسسة اقتصادية قائمة وفاعلة.

وكانت التوجيهات الرسمية دائماً تقضي بترتيب أوسع اللقاءات للوفود التي تزور المملكة مع الغرف التجارية، والتعرف إلى رجال الأعمال مباشرة. مما أفضى بلا شك إلى نتائج واضحة وممتازة.

أليس لدى رجل الأعمال السعودي تخوفات من إزالة الحواجز الجمركية التي يشترطها الانضمام لمنظمة التجارة العالمية؟



رويترز
أمضى العالم الكثير من الوقت في مناقشات منظمة التجارة العالمية



د. أسامة فقيه





منظمة التجارة العالمية
منظمة التجارة العالمية


استضاف منبر المنظمة العديد من الشخصيات الدولية

إزالة الحواجز الجمركية لا تشكل مصدر تخوف في المملكة أو عند رجال الأعمال. فليس لدى المملكة أصلاً جمارك عالية، إذ إنها تتراوح ما بين 5 و 20 في المئة كحد أقصى، في حين إنها تصل على بعض المنتجات في دول أخرى إلى 300 في المئة. السوق السعودي في الأساس يقوم على الاقتصاد المفتوح وهو سوق قائم على التجارة المفتوحة، وبالتالي، فهو عضو طبيعي في نادي التجارة الدولية.

وأكثر من هذا، فإن الصناعة في المملكة غير قديمة ولم تبدأ من الصفر، حيث بدأت وأسست على أسس صناعية حديثة وبدأت من موقع منافس حيث ابتدأت من حيث انتهى الآخرون، واستطاعت خلال سنواتها المعدودة أن ترفع قدراتها الإنتاجية؛ لتصبح صناعة مصدِّرة إلى كثير من الدول المجاورة مثل دول الخليج والأردن ولبنان ومصر والسودان واليمن وغيرها. ففي صناعة المأكولات المختلفة مثلاً، صمدت الصناعات السعودية، بل تفوقت على نسبة كبيرة منها وصارت في وضع تنافسي سليم بكل ما للكلمة من معنى. لقد تم إغراق السوق السعودي في الماضي بالمنتجات المختلفة ولم يتأثر هذا السوق أو تتأثر صناعته. نحن منافسون بالجودة والسعر معاً.

والحقيقة هي أن الانضمام إلى منظمة التجارة يفتح أمام المصانع فرص التصدير بشكل أوسع، كما يفتح أمامها فرص التصنيع للغير أيضاً.

هل يلائم الانضمام لمنظمة التجارة الدولية أنشطة اقتصادية دون أخرى؟

نحن نستعد لدخول مجال الاقتصاد العالمي المفتوح. وفي مثل هذا الاقتصاد يتأثر الجميع بتبدلات الأسعار، وتتعرض المنتجات لما يشبه لعبة "موجة الدومينو" فحين يحدث ارتفاع أو هبوط في مكان تنطلق موجة في كل اتجاه.

بطبيعة الحال، يجب أن نكون مستعدين ويقظين باستمرار، ونراقب السوق العالمية والأسواق في مختلف أنحاء العالم، هذا العالم الذي أصبح - كما يُقال - قرية صغيرة. يجب أن نندمج بهذه المنظومة الاقتصادية العالمية، ونتعرف إليها، ونؤثر فيها، ونعمل على أن نواكب تحولاتها بما يعود علينا كبائعين أو مستثمرين بالفائدة.

وعلى كل حال فإن للمملكة تأثيرها في السوق العالمية؛ لأنها أساساً في موقع قيادي في عالم النفط والطاقة، وما تقوم به بالنسبة إلى التحكم بإنتاج النفط له أبلغ الأثر في أركان الدنيا الأربعة. ويضاف إليه الآن الغاز. وإلى جانب الاثنين، أخذت المملكة تتحول إلى منتج مهم للبتروكيماويات. ونظرتنا إلى السوق كانت وما زالت نظرة واقعية ولها ضوابط في إطار السوق العالمية.

ما هي أهم الترتيبات الواجب اتخاذها لمواكبة هذا الانضمام؟

من أهم الترتيبات المطلوبة استعداداً للانضمام لمنظمة التجارة العالمية هو وضع مزيد من الضوابط التي تحمي سوقنا الداخلي من أية ظواهر عشوائية أو تقلبات مفاجئة لا تقوم على أسس اقتصادية سليمة. ومن جهة أخرى يجب علينا أن نتخذ تدابير مختلفة لحماية المؤسسات المتوسطة والصغيرة. فهذه المؤسسات بسبب حجمها تحتاج إلى حماية. ولا شك في أن علينا أن ندعم هذه المؤسسات وأن نؤمّن لها الدعم المطلوب. وقد بادرت بعض الغرف التجارية بتشجيع هذه المؤسسات. ففي الغرفة التجارية الصناعية في الرياض وجدة والمنطقة الشرقية مثلاً، إدارة كاملة مكرّسة لهذه المؤسسات الصغيرة لتساعدها وتدعمها في عمليات الاقتراض مثلاً، وإيجاد بعض الحلول لمشكلاتها وتلبية احتياجاتها المختلفة وغير ذلك. ونأمل أن تقوم مؤسسات أخرى مثل صندوق التنمية الصناعية بتمويل هذا النوع من المؤسسات وليس فقط مساعدتها على الاقتراض، خاصة تلك التي تستطيع أن تثبت جدارتها وجدية فرص نجاحها بناءً على أسس علمية ودراسات جدوى مقنعة. ولهذا الصندوق الكفاءة المطلوبة للقيام بهذه المهمة وهو من دون شك من أبرز "قصص النجاح" في المملكة - إذا جاز التعبير - ومن أكفأ الهيئات التي تأسست وحققت إنجازات ملموسة على مستوى الصناعة الوطنية. على أية حال، فإن حماية هذه المؤسسات الصغيرة والمتوسطة مسألة حيوية إذ إنها تقوم بتوظيف ما يقرب من 80 في المئة من العمالة، وهي بالتالي عماد رئيس للاقتصاد والنمو الاقتصادي، وتمثل شريحة واسعة وقادرة على رفد الاقتصاد الوطني بالتنوع المطلوب. ويمكننا هنا الاستفادة من خبرات بعض الدول الأخرى مثل كوريا وبريطانيا واليابان، ففيها تجارب لتبني شركات كبرى منها شركات حكومية، شركات متوسطة وصغيرة. وهذا بقدر ما يحمي هذه الشركات، فإنه يحسّن أيضاً موقع الشركات الكبرى إما بشكل مباشر أو غير مباشر. مباشر، من خلال تأمينه لها صنوفاً من السلع والخدمات التي تحتاجها محلياً، وغير مباشر بإعطاء الاقتصاد الوطني دفعاً كبيراً، ويزيد من حركة السوق المحلية وحجمها. وطبعاً فإن أي تمويل يجب ألا يتم بشكل عشوائي، بل أن يوجه إلى المشروع الناجح.

الشباب السعودي أمام فرصة كبيرة وعليه مواجهة التحدي بتنمية قدراته في اللغة والكومبيوتر والإدارة

إن خطوات كهذه، أسوة بخطوات أخرى تحققت أو تتحقق، هي ضرورية ومفيدة لصحة الاقتصاد السعودي، بغض النظر عن دخول منظمة التجارة العالمية أو عدم دخولها. فالناس لاحظت من دون شك خلال السنوات القليلة الماضية مناخاً جديداً من النشاط الاقتصادي لم تعرفه من قبل. وقد نشأ عن هذا خطوات كثيرة تمتد بهدف المواءمة مع متطلبات منظمة التجارة العالمية.

لقد أنجزت بعض الإصلاحات الاقتصادية المطلوبة، منها: قيام هيئات مثل الهيئة العامة للاستثمار، والهيئة العليا للسياحة، والمجلس الأعلى للاقتصاد، والآخر للغاز والنفط والماء والكهرباء وغيرها، كخطوات مفيدة باتجاه الإصلاح الاقتصادي، وتشيع مناخاً جديداً يعزز النمو الاقتصادي بأعلى أشكاله. وقد حققت هذه الإجراءات خطوات كبيرة في تنظيم السوق على أسس أكثر شفافية تقوم على مبادئ الاقتصاد السليم.

إن منظمة التجارة الدولية تسعى إلى تحقيق الإصلاحات الاقتصادية وتنظيم السوق لأهداف منها حماية التاجر والمستثمر العالمي في تعاملهما مع هذا السوق. وكما هو معروف فإن شرطاً رئيساً من شروط تنظيم السوق هو إفساح المجال أمام أشكال المنافسة المتكافئة كافة.


المهندس با حليوة في إحدى مناسبات التحضير

أي دور للنفط؟

حول دور النفط في رسم معالم انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية، يقول المهندس عمر باحليوة:
النفط بند رئيس في وجهي معادلة الانضمام لمنظمة التجارة العالمية. فإلى جانب كون المملكة سوقاً كبيرة وواعدة، فهي أيضاً مصدّر كبير للنفط. ولهذا وجهه الآخر الذي يقوم على الاستثمارات في هذا المجال. لقد خطت المملكة خطوات كبيرة في هذا الاتجاه بوساطة العديد من الجهات والشركات ذات العلاقة.

والاستثمارات التي تدخل المملكة في مناخ منظمة التجارة العالمية يتجه قسم منها نحو هذا المجال الحيوي الذي أضيف إليه اليوم الغاز الطبيعي.

ومنذ فترة أنشئ تحالف (كونسورتيوم) بين عدد من شركات النفط العالمية وإلى أرامكو السعودية، تحت مظلة وزارة البترول والثروة المعدنية والتي سوف تقوم باستثمارات للتنقيب عن الغاز في مناطق مثل الربع الخالي.

المهم هو أن من أهداف الاقتصاد السعودي الرئيس إثراء التنوع الصناعي وبذلك تخطو المملكة خطوات جديدة نحو إيجاد مصادر دخل رئيسة إلى جانب النفط الخام.

ولكن هذه الإجراءات وقبل أي شيء تفيد السوق نفسها. فنحن نستفيد قبل غيرنا من إصلاح البيت من الداخل، نحن أصحاب المصلحة الأولى في وضع الإصلاحات الاقتصادية الداخلية. ونحن قبل غيرنا نريد لاقتصادنا أن يكون متنوعاً وقادراً على الوجود والاستمرار. ولا شك في أن نتائج هذا الأمر بدأت تظهر. فنحن أمام مشهد جديد وواعد في الحياة الاقتصادية السعودية.

خلال رحلة الاستعداد والتفاوض لدخول منظمة التجارة العالمية كان هناك ممانعة داخلية أحياناً، وخارجية أحياناً أخرى. فأين وصلت هذه المرحلة؟ وهل المملكة قاب قوسين من الانضمام للمنظمة؟

استطاع سمو ولي العهد خلال زيارته للولايات المتحدة إزالة العقبة الأخيرة.

> الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية يضعنا أمام إعادة النظر بهيكلية التعليم ومواكبة مخرجاته

قبل ذلك كانت المملكة قد استكملت جميع الخطوات المطلوبة في مجال وضع النظم الجديدة للسوق المحلية. وهناك طبعاً موضوع المبادئ التي نتمسك بها وتقوم على مبادئ الشريعة السمحة ومواقفنا المبدئية. ومع الوقت، اتضح أن هذه لا يمكنها أن تكون عقبة ولا يجوز أن تكون عقبة. فالإسلام شريعة سماوية. لا يمكن لمبادئها أن تكون حائلاً دون قيام علاقات تجارية سليمة ومنظمة، لا بل على العكس تماماً. إنها ضمان للعلاقات التجارية السليمة وتعزز المصداقية التي تتمتع بها المملكة، ومبادئ الإسلام نفسها تمثل حماية للطرفين، البائع والمشتري.

لقد استطعنا إقناع جميع الأطراف بهذا وأصبح هذا الموضوع منتهياً. نحن ننضم إلى منظمة التجارة العالمية من دون التخلي عن أي من مقتضيات شريعتنا. لا بل نحن نعرف أن الإسلام يجمع ولا يفرق. وأقرت المنظمة بشكل نهائي أن تطبيق الشريعة لن يكون عائقاً أمام انضمام المملكة.

ونحن من جانبنا كنا أحياناً كالشاب الذي يريد أن يقدم على الزواج لكنه يهاب نتائجه. فهو إذا كان مستعداً وأحسن الاختيار فلا شك أنه سيكون زواجاً ناجحاً وموفقاً. نحن قمنا بتربية مجتمع اقتصادي وضعه جيد ويمتلك كل عناصر القوة والمنافسة.

ألا تشعرون بوجود أية مخاوف قد تستتبع هذا الانضمام؟

طبعاً هناك مخاوف مختلفة يمكن أن تظهر من جرّاء هذا الانضمام، منها مثلاً دخول بعض الشركات مع شركات خارجية باتفاقيات غير متكافئة. وهنا بالطبع يجب أن نكون حذرين وهو حذر وارد في كل شيء. علينا الاستعداد بالتنظيم وأساليب الإدارة المعاصرة والدراسات الجدية والقوانين العالمية قبل الإقدام على أية خطوة. وإذا ما تسلحنا بهذا فسوف نتفادى أية مخاوف أو مطبات.

السوق السعودية سوق واعدة وضخمة. وهناك شركات كبرى بدأت تستعد للدخول باستثمارات ضخمة منها: شركة شيفرون (Chevron) التي تستعد لاستثمار ما يقارب 13 مليار ريال "3.5 بليون دولار"، وشركات يابانية "سوميتومو" تستعد لاستثمار 7 مليارات دولار. وإقدام مثل هذه الشركات على الاستثمار يشجع أي مستثمر آخر. من جهتنا، فقد قمنا بالاستعدادات المطلوبة كافة، ومنها خصخصة الكثير من المجالات الاقتصادية المهمة.

هل الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية يؤدي إلى نوع من الانضمام إلى سوق مشتركة؟

منظمة التجارة العالمية الدولية ليست سوقاً مشتركة، بل هي أقرب ما تكون إلى تعاون بين تكتلات اقتصادية تقوم على أسس تجارية موحّدة، مبدأها اقتصاد السوق. المنظمة تشجع التكتلات بشكل يصبح معه من الممكن التفاوض بين تكتلات ذات أحجام كبيرة. وفي حال نجحت، يكون هذا النجاح باباً لسوق كبيرة متعددة الأطراف. فحين نفاوض البرازيل مثلاً كأننا نفاوض كل كتلة أمريكا اللاتينية. وهذا بالطبع يختصر المسافات والزمن.

لماذا يسمع الناس عن مفاوضات ثنائية إلى جانب المفاوضات الرئيسة مع المنظمة نفسها؟

خط السير الأساس في الانضمام لمنظمة التجارة يكمن في المفاوضات الثنائية مع أعضاء المنظمة من مختلف التكتلات والتجمعات الاقتصادية. وحين تتكلل هذه المفاوضات بالنجاح فيتم ترشيحك من الطرف الذي تم التوافق معه للمنظمة. وحين ترشح من جميع الدول الأعضاء تكون مهيئاً للانضمام. ونحن الآن على مشارف هذه المرحلة النهائية، بعد أن تمت إزالة العقبة الأخيرة.



الكبير يصبح أكبر

اندماج الشركات بين اندفاعة التوسع ومشكلاته

بدّل اندماج الشركات المشهد الاقتصادي في العالم، خاصة خلال العقد الماضي. ولم تعد عمليات الاندماج تقتصر على الشركات الكبرى في مناطقها الأساس على طرفي الأطلسي في أمريكا وأوروبا، بل أصبحت واضحة للعيان أينما كان في العالم، ولا تزال حتى اليوم تستمد زخماً مهماً من مسيرة العولمة الجارية، وتذهب في أكثر من اتجاه في إعادة رسم السوق العالمية وتنظيمها.

حول دمج الشركات ببعضها، واقعه، ما له وما عليه، استناداً إلى تجارب القرن العشرين، أعدت هدى بتروبولس التقرير التالي..

Stock Photo

الاندماج حالة مواكبة للتركز الصناعي، رغم تغير حوافزه وشروطه. وتتخذ الاندماجات شكل موجات تعلو وتهبط، عرف القرن العشرون خمسة منها.

اندماجات التسعينيات غيّرت مجمل البيئة التنافسية في العالم، ولم تعد حروب التنافس حكراً على الشركات، فالحكومات والتكتلات الصناعية صارت معنية أيضاً

فقد شهدت بداية القرن ونهايته أكبر موجتي اندماج (في أمريكا ما بين 1898 و 1902م وعلى مستوى العالم ما بين 1994 و 2000م)، فصلت بينهما ثلاث موجات أقل أهمية. وفي كل الحالات عرف السوق توسعاً مهماً. تمثل ذلك في بداية القرن بنشوء سوق قومية في الولايات المتحدة، أدت الاندماجات خلالها إلى انبثاق عدد من الشركات المهيمنة المستمرة، وفي نهايته بنزوع نحو العولمة الاقتصادية وإعادة هيكلة السوق.

وقد كان للتغييرات في السياسات الحكومية خلال العقود الأخيرة أثر بالغ على الموجات الاندماجية. فقد بدأت هذه التغييرات في الولايات المتحدة، ونحت صوب التراخي في تطبيق قوانين الاحتكار وإلغاء بعض الأنظمة الموجِّهة للإنتاج في بعض القطاعات. فموجة اندماجات الثمانينيات التي حصلت في الولايات المتحدة حصراً، وشملت قطاعات مثل الغذاء والكيماويات والنفط، لم تكن ممكنة قبل ذلك.

وتميزت هذه الموجة بصفقات بيع وشراء عدائية في معظم الأحيان (أي من دون موافقة إدارة الشركة)، أسهمت في تفكيك شركات ضخمة كانت قد نشأت من اندماجات الستينيات، وباتت جدواها الاقتصادية موضع تساؤل. أما موجة التسعينيات فقد تأثرت بالنزوع العالمي نحو تحرير التجارة والاستثمارات، وتخفيف الضوابط القانونية للمؤسسات المالية والاتصالات وخصخصة المؤسسات التي كانت مملوكة من الدول. وكانت المحصلة نشاط اندماجي فاق بأبعاده وحجمه كل ما سبقه، ووصل إلى ذروته عام 2000م، إذ بلغت قيمة إجمالي الصفقات الاندماجية نحو 3,576 تريليون دولار. كانت حصة الولايات المتحدة منها نحو 1,786 تريليون دولار، وأوروبا 526 بليون دولار، أما الباقي - حوالي الثلث - فقد كان اندماجات عابرة للحدود بين شركات ذات قواعد وطنية مختلفة.

وخلافاً لاندماجات الستينيات من القرن الماضي التي عرفت نشوء الشركات المختلطة الضخمة، والثمانينيات التي شهدت شراء الشركات لتفكيكها وبيعها، فإن اندماجات التسعينيات كانت بهدف توسعة الحجم. وبدا هذه المرة أن مديري الشركات وبنوك التوظيف قد وجدوا الطريق إلى أداء أفضل، بعد السمعة السيئة التي لحقت بالاندماجات السابقة.

ولكن، مرة أخرى، تسببت هذه الاندماجات بمسحة تشاؤم. فقد تمت على حساب خسائر كبيرة لحقت بأصحاب الأسهم. كما أن العديد منها لم يحقق النتائج المرجوة. وبعد ركود لبضع سنوات، ظهر انتعاش جديد لعمليات اندماج منذ أواخر العام 2004م، نتيجة توافر سيولة عملاقة (1.5 تريليون دولار من النقد لدى الشركات وبيوتات المال) وفرص في صناعات لا تزال تعتبر مجزأة (وعادة ما يشار في هذا المجال إلى البنوك والاتصالات والصناعة الاستهلاكية).

فكيف يمكن تفسير تعاقب هذه الموجات وما يصاحبها من تشاؤم وتفاؤل وربما إلى تشاؤم جديد، وكأن شيئاً لم يكن؟

اندفاع الشركات.. الرأسمال يذهب عالمياً

الاندماجات هي عادة، وليس دائماً، جزء من استراتيجية توسّع بالنسبة إلى الشركات. وهي ثلاثة أنواع: الاندماج الأفقي الذي يحصل بين شركات في القطاع نفسه، والاندماج العامودي الذي يجمع شركات في مراحل مختلفة من العملية الإنتاجية الواحدة كالاندماج بين الإنتاج والتوزيع، والاندماج المختلط بين شركات تعمل في قطاعات لا علاقة فيما بينها، وهذه الأخيرة باتت غير مستحبة في العقود الأخيرة، ويظل الاندماج الأفقي هو الأهم من حيث تأثيره على التحكم بالأسواق والأسعار، أي على نشوء احتكارات.

تميّزت اندماجات التسعينيات بتركزاتها القطاعية وذلك من أجل خلق شركات مهيمنة، شملت قطاعات مثل البنوك والاتصالات والطاقة والتكنولوجيا والإعلام وعدد من الصناعات التحويلية. وهذا النزوع نحو التركز القطاعي يعني أن أغلبية الصفقات كانت اندماجات أفقية ولو أن التمايز بين الأشكال الثلاثة للاندماج أصبح أقل وضوحاً. وقد انعكس ذلك أيضاً في الصفقات العابرة للحدود، حيث وصلت نسبة الاندماجات الأفقية إلى 70 في المئة من المجموع، مقارنة بـ 53 في المئة عام 1987م.

لم تعد الشركات تنظر فقط من خلال عمليات الاندماج إلى دوافع قصيرة الأمد، والتي تنشأ عادة عن نمو فائض في الإنتاج يشكل ضغطاً على الأسعار وبالتالي على الأرباح، فتعمل الاندماجات على تقليصه عبر تخفيض التكلفة بإلغاء أجزاء غير مربحة وإزالة العمالة الزائدة. وذلك ليس لأن هذه الدوافع لم تعد مهمة، فهي ما زالت بالغة الأهمية ولكن حسابات أخرى نشأت، ومن ضمن دوافع اقتصادية واستراتيجية على المدى الطويل، وذلك في إطار تنافس داخلي وعالمي يحفز البحث عن زيادة الحجم والموارد واقتطاعات أكبر من حصة الأسواق أو الهيمنة من أجل التحكم في الأسعار. وتُساق عادة في إطار الدوافع الاستراتيجية، أو ما يسمّى الصفقات الاستراتيجية، تفسيرات للفوائد التي يمكن أن يجنيها جمع شركتين، مع استخدام عبارة "سينرجي" التي من المفترض أن تزيد الثروة من خلال الجمع، على مستويين، مستوى التكلفة الاقتصادية التي يجري تخفيضها في عملية الدمج، ومستوى العائدات التي يتوقع زياداتها مع استفادة الشركة من أسواق الشركة الأخرى. أو من تبادل قدرات في الأبحاث أو مهارات تسويق أو غيره. ولكن مهما كانت التفسيرات، آنية أو استراتيجية، فإنها تجري ضمن اعتبارات السباق إلى الهيمنة، واندماج يقود إلى آخر، وهكذا تكرّ المسبحة في موجات اندماج يصبح معها الحجم جزءاً من معادلة السيطرة.

وكذلك، لم تعد عمليات الاندماج والاكتساب حكراً على الشركات، بل نشأت في العقدين الأخيرين بيوتات مالية من أجل توظيف أموال يأتي معظمها من صناديق خاصة للضمان أو التقاعد أو شركات التأمين (وهي غالباً ما تكون أمريكية أو بريطانية). وتتحكم اليوم بيوتات المال بقدر مهم من التحولات الاندماجية التي تحصل. وقد انتقل نشاطها إلى المستوى العالمي في أواخر التسعينيات، وباتت سوقها الأوروبية في المرتبة الثانية بعد أمريكا. فهي، حسب بعض التقديرات، مسؤولة عن نسبة الثلث إلى النصف من الاندماجات في بريطانيا والربع في أوروبا القارية، ونشاطها أكبر من ذلك في الولايات المتحدة. وتظهر وظيفتها في الاكتسابات التي تحتاج إلى مبالغ ضخمة (وكانت متورطة في أكبر عملية اكتساب حصلت في أوروبا عندما اشترت شركة الاتصالات البريطانية فودافون عام 2000م مثيلتها الألمانية مانيسمان بقيمة 183 بليون دولار) أو في عملية تفكيك الشركات الكبيرة المختلطة كما حصل في الولايات المتحدة في الثمانينيات، وينتظر بعض المحللين أن يقوى نشاطها المقبل في هذا المجال في أوروبا.



حوّلت موجة الاندماج في التسعينيات وبشكل سريع، مجمل البيئة التنافسية عبر العالم. ولم تعد حروب التنافس بين الشركات فقط، فالكتل الصناعية والمناطق والدول باتت أيضاً معنية. وظهرت من أمريكا إلى أوروبا وآسيا حركة اندفاع نحو "الكبير" في عصر العولمة والانفتاح، ولسان حالها يقول: "إن الشركات يجب أن تكون كبيرة من أجل المنافسة مع مثيلاتها في الخارج والداخل، بما أن التنافس الأجنبي في الأسواق المحلية مسألة يجب أخذها بالاعتبار". وهي تشجع في البلدان الصناعية الاستمرار في تغير الأنظمة وإضعاف فعالية قوانين الاحتكار. وفي البلدان الأقل تطوراً، حيث لم يفقد منطق الحماية المبرّرة في عدد منها، فإن مواجهة التحديات القائمة والمستقبلية في عالم يسير نحو انفتاح أكبر يطرح موضوعات الحجم والاندماج أيضاً منذ الآن.

الكبير يتحول إلى "سوبر كبير" في قطاعات النفط والإعلام والصناعات العسكرية. أما قطاع الاتصالات فهو مفتوح على فرص اندماج تقلص عدد شركاته إلى النصف

سارت أوروبا في موجة الاندماجات الأخيرة في اتجاهين: اتجاه نحو اندماج الشركات على المستوى الإقليمي لإقامة شركات عملاقة تستطيع المنافسة في أوروبا وخارجها، وآخر نحو صفقات عابرة للحدود بما فيها حركة الاندماجات عبر الأطلسي بين أوروبا والولايات المتحدة وفي الاتجاهين. لكن الشعور العام بأن اندماجات كافية لم تتحقق بعد على المستوى الأوروبي يُقوّي حالياً نزعة سياسية تهدف إلى إزالة العوائق التي يمكن أن تعترضها من عقبات الخصوصيات القومية وتمسك الحكومات بشركاتها الوطنية (فبعد مواجهات مع فرنسا حيال "تحرير" قطاع الكهرباء واكتسابات في قطاعي الأدوية والهندسة، جاء دور إيطاليا مؤخراً في قطاعي البنوك والطاقة)، والتوصل إلى قوانين مشتركة بخصوص الاندماج تتخطى التمايزات القائمة على مستوى كل بلد (جرى تبني توجيهات في هذا الخصوص أواخر العام الماضي بعد سنوات من النقاش، وهي لا تزال تنتظر موافقة البرلمان الأوروبي).

ورغم أن نسبة صغيرة من الاندماجات، مقارنة بالحجم الأمريكي والأوروبي، حصلت في آسيا، وتوّزعت بين اندماجات داخلية وبين التزاوج مع شركات غربية أمريكية وأوروبية، إلا أن ضغط البيئة التنافسية الإقليمية والعالمية يدفع بالسياسات ومنذ فترة إلى تشجيع اندماجات محلية، خاصة في القطاع المصرفي، من ماليزيا وسنغافورة إلى إندونيسيا مؤخراً وربما الهند. ولأن مثل هذا التشجيع يحصل لأسباب استراتيجية أكثر مما هو لدوافع آنية متعلقة بالأرباح، فهو يثير تساؤلاً حول أهمية الحجم وهل هو أفضل. والتساؤل يكبر أمام محاولات العمالقة بناء عملاق أكبر، مثل اندماج ثاني ورابع أكبر مصرفين في اليابان وولادة عملاق مالي بموجودات هي الأكبر في العالم (1.8 ترليون دولار).

من الكبير إلى "سوبر كبير" تبدلات المنظر الصناعي

بين الحوافز المباشرة والحوافز الاستراتيجية، سار العديد من الصناعات نحو تحويل الكبير إلى "سوبر كبير". وطرحت عمليات اندماج في إطار التركيز على الحجم وزيادة الرأسمال وتشديد التنافس على حصة من السوق العالمي، والاستفادة من أشكال الاندماج المختلفة، من أفقية إلى عامودية إلى مختلطة بعض الشيء، بحيث بات صعباً التفريق بين هذه الأشكال.

في قطاع النفط، ومع إتمام سلسلة من عمليات الاندماج بين الكبار في عامي 1998 - 1999م، اختفت سبعة من أكبر الأسماء في الصناعة في كيانات أكبر معيدة تشكيل التركيبة التراتبية للقطاع بحيث بات يتصدره فئة "سوبر كبار" ثلاثة، ونشأت مرتبة وسطى جديدة ومن ثم مرتبة ثالثة ضمّت من كان في المرتبة الثانية سابقاً.

سيقت مسائل الحجم، والتنويع، وقدرة الوصول إلى رساميل كبيرة كاعتبارات في مواجهة تحديات توظيف تحمل درجة من المخاطرة في مناطق جديدة كانت مغلقة سابقاً، وفي تحمل الربحية المنخفضة لصناعات التكرير، والحاجة إلى انتعاش في حقلي التوزيع والتسويق، وغيره. وطالت الاندماجات من الحجم الكبير أيضاً شركات القطاع العام في أكثر من بلد أوروبي وآسيوي، وأخذت طابع الاندماج العامودي بين التنقيب والإنتاج والتكرير والتسويق أسوة بالشركات الكبرى. وقد عرف القطاع النفطي أيضاً اندماجات كبيرة الحجم في خدمات التوزيع، التي باتت تحتاج إلى إعادة تجديد، وأخرى عامودية شبه مختلطة زاوجت بين مصالح أنابيب الغاز والمنافع الكهربائية وتوليد الطاقة، ليس لدوافع الكلفة والفعالية، بل كاستجابة للإلغاء المتسارع للأنظمة في تلك القطاعات وتحرير سوقها على المستوى العالمي.

وعرفت الصناعة العسكرية أيضاً مع اندماجات التسعينيات شركات "سوبر كبيرة" تحت ضغط المنافسة بين شطري الأطلسي الأمريكي والأوروبي. تقلص عدد الممولين الرئيسين في الولايات المتحدة من خمسة عشر إلى أربعة فقط، بينما جمعت أوروبا جهودها في اندماجات عابرة للحدود لإقامة ثلاث شركات رئيسة. ولأن الحجم الأوروبي لا يزال دون المستويات الأمريكية (فالشركة الأوروبية الأكبر في الصناعة الفضائية "إيدز" تصل إلى حجم الشركات الأمريكية الكبيرة، إذا ما أضافت مشروعها المدني الضخم "إيرباص")، فالنزوع الأوروبي للاندماج لا يزال قائماً، كما ظهر مؤخراً في اندماج أكبر شركتي إلكترونيات في واحدة هي الأكبر أوروبياً.

65 في المئة من الاندماجات التي حصلت بين عامي 1975 و1990م كانت فاشلة، فما الذي يدعو إلى التفاؤل اليوم؟

وسار القطاع الإعلامي في اتجاه مماثل مع احتمال تحوّل ملوك المال "موغلز" إلى "سوبر موغلز". وتعرضت بنية القطاع نفسه إلى تبدلات في موجة اندماجات التسعينيات وصفها بعض المحللين كحجر زاوية في تاريخ الاندماجات في قطاع التلفزة في الولايات المتحدة. فقد دخل عمالقة من الخارج على القطاع (ويستنغ هاوس في التسعينيات بعد جنرال إلكتريك في الثمانينيات بشراء شبكتي تلفزة من أصل ثلاث شبكات رئيسة)، وبعض الاندماجات العامودية باتت تجمع وظائف مختلفة في شركة واحدة، وتوحد عمليات الإنتاج والتوزيع والعرض. وقد أثار الأمر انتقادات بالنسبة لقطاع حساس كالإعلام لما قد يتعرض له من هيمنة مصالح خاصة، ولتقليص أشكال التعبير والتنوع في إطارات الاندماجات العامودية، ولتدهور نوعية البرامج.

قد تكون هناك تحولات مهمة في الاتجاه نفسه في انتظار قطاع وسائل الاتصال، الذي عرف أيضاً اندماجات أساسية تضمنت ربما أكبر الصفقات الاندماجية حجماً (شراء فودافون البريطانية لمانيسمان الألمانية). فحسب بعض التحليلات لا يزال القطاع مفتوحاً على فرص اندماج قد تقلص إلى النصف عدد شركاته الأساسية التي تتحكم بـ 86 في المئة من السوق. والأموال المتوافرة لدى الشركات العشرين الأولى (حوالي 200 بليون دولار) كثيرة، تتجه اليوم أوروبياً في عمليات قضم صغيرة قد تهيئ على المدى الأبعد لاندماجات بين الكبار. والقطاع مرشح في الولايات المتحدة لدخول مرحلة جديدة في إقامة شركات مختلطة تدمج ما كان سابقاً نشاطات مستقلة في القطاع. (بين المكالمات التلفونية المحلية والوطنية، والاتصالات السلكية واللاسلكية، بين الخدمات المناطقية والوطنية، بين المكالمات الصوتية والإنترنت وغيره)، كما بدأ يظهر من صفقات بداية العام، وهي تعيد الذاكرة إلى التركز السابق في شركة "آي. تي. تي." الأم (التي جرت تجزئتها في عام 1984م منعاً للاحتكار)، لكن الشركة الأم هذه المرّة تهاوت لصالح أحد أقسامها السابقة.

وعندما يكون الحجم وقياسه "السوبر" أمام اختبار صناعات تحتاج فعلاً إلى إعادة إنعاش بعد سنوات من تباطؤ الربحية وزيادات القدرة الإنتاجية، كما كان وضع صناعات السيارات، فإن مشكلاته تبدأ بالظهور.

لقد قلّصت اندماجات التسعينيات عدد الشركات إلى سبع رئيسة وثلاث شركات صغيرة، والقطاع بدأ يستعيد عافيته. إلا أن سجل الأداء لم يكن دائماً أفضل لدى الشركات التي اندمجت من تلك التي لم تندمج. فأكثر الاندماجات طموحاً والعابرة للأطلسي بين ديملر بينز (مرسيدس) و"كرايزلر" (قيمته 130 بليون دولار) أدت إلى خسائر أولية كبيرة لأصحاب الأسهم وخلقت مشكلات دمج فعلية. وما اعتبر اندماجاً ناجحاً بين "رينو" و"نيسان" أدى إلى دخول رينو أسواق اليابان وأمريكا وتبادل الخبرات التكنولوجية وتقليص التكلفة، لكنه تجنب مطبات الحجم، وأتى الدمج ضمن صيغة تحالف حافظت على الكيانين المستقلين للشركتين، وفي المحصلة فإن التحسينات الأساسية على المنتج وجاذبيته للمستهلك هي عقدة الحل والربط.

إن الاندماجات التي تحصل في قطاعات متنوعة تأتي غالبيتها ضمن دوافع استراتيجية كاستجابة لتغيرات في المحيط التنافسي، فتظهر فيه الشركات مدفوعة إلى جمع القوى لمواجهة تحديات تشعر بأنها لن تستطيع معالجتها منفردة، إلى اختراق أسواق جديدة في عالم يزداد اندماجاً. وتحمل الاندماجات منذ أواخر العام الماضي

كل تلك المعالم وأكثر. ففي قطاع الصلب، حيث دوافع الحجم ليست بالضرورة عملية، امتدت مصالح "عصبة انترناشونال" (لصاحبها الهندي الأصل) من آسيا إلى مشتريات في أوروبا الشرقية إلى الحيازة مؤخراً على شركة صلب أمريكية أدت إلى قيام أكبر شركة صلب في العالم، جرى وصفها كصفحة جديدة في تركيز الصناعة وعولمتها تنذر بمشتريات مماثلة عابرة للحدود وتثير مخاوف من ارتفاع الأسعار. وكذلك في قطاع برامج الكمبيوتر، فإن الاندماجين الأخيرين بدوافع تقديم حقيبة أكثر اكتمالاً لرجال الأعمال (شراء أوراكل لبيبول سوفت وسيمانتك لفاريتاس في أواخر 2004م بقيمة 10.3 و13.5 بليون دولار) أثارا موجة من الذعر حول حرب مقبلة ومن سيكون الصيّاد ومن الفريسة فيها. وفي قطاع المواد الاستهلاكية، حيث الميل العام يتجه إلى التركيز على أصناف من المنتوجات الرائجة وتقليص عددها، حصل اندماج مفاجئ في بداية العام بين شركتين كبيرتين بروكتر وكامبل وجيليت (صفقة بمبلغ 50 بليون دولار). ورغم أن الاندماج سيزيد من عدد المنتوجات وتنوعها، إلا أن الدوافع يقال هي للاستفادة من الحجم ومن جمع الموارد من أجل التركيز على خلق "سوبر" أصناف لعدد محدود من المنتجات. هذا الاندماج وما قد يثيره من ردّات فعل محتملة شبيهة لدى الشركات الأوروبية، يطرح تساؤلاً يكبر ويكبر: هل الحجم مهم؟

> **تترافق الاندماجات عادة مع فترات النمو الاقتصادي، وتتغذى اليوم من فائض هائل في السيولة في بيوتات المال يبلغ 1.5 تريليون دولار**

الاندماج السهل والدمج الصعب

هل التمادي في الكبر أفضل؟ سؤال بات يُطرح ويتكرر حيال اندماجات سابقة وأخرى تتم. فسجل الاندماجات، حسب دراسات أعدت في هذا الخصوص، كان متشائماً، وأظهر بالنسبة إلى الفترة ما بين 1979 و 1990م أن 65 في المئة من 150 صفقة كانت فاشلة. وبالنسبة إلى موجة التسعينيات بأنها تسببت بخسائر هائلة لأصحاب الأسهم، تركز معظمها في 87 صفقة كبيرة بين 1998 و 2001م.

ومن الحجج التي تُساق حول فشل عدد مهم من الاندماجات، أن دمج شركتين مسألة شديدة الصعوبة، يقدر عليها عدد قليل من الشركات، وأن نسبة أعلى من 70 في المئة من الشركات التي لم تقم بعمليات اكتساب أو اندماج مهمة عملت فوق الأداء المتوسط لتلك التي اندمجت، وأن الاندماجات التي حصلت كرد فعل على التغيرات في المحيط العالمي وتخوفاً من تفوّق الآخرين عرف العديد منها تخبطات، وأن التفاؤل بالتفسيرات المتنوعة في دعم الاندماجات، ومنها أشكالها العامودية كربط الإنتاج بالتوزيع، تلاشى مع الوقت، وأن العدد المحدود مما سمي بالصفقات الاستراتيجية عرف نجاحاً عندما كانت الصناعة مجزّأة وعندما ارتبط الاندماج بدوافع توسعة السوق أو الهيمنة عليه.

وهناك تساؤلات أيضاً حول اقتصاديات الحجم. إذ يقول البعض إن النموذج الصناعي الذي يؤسس على اقتصادات الحجم الكبير لمنتجات شديدة التجانس، قد سقط في العديد من الصناعات الحديثة مع التقدم التكنولوجي وتنوع المزاج الاستهلاكي. فتنويع المنتجات والعامل التكنولوجي أدخلا تعقيدات متزايدة على عملية الإنتاج بات التكيّف معها يحتاج إلى درجة من المرونة والسرعة لا توفرها دائماً الأحجام العملاقة.

ومن المسائل الأخرى التي تُثار حول مشكلات الاندماج هناك ما يتعلق بالعنصر البشري، أي إدارة القوى العاملة على مستويات كبيرة، وفرادة ثقافة وبيئة العمل في كل شركة، وصعوبة الدمج، خاصة حين يتعلق الأمر باندماجات عابرة للقارات، كما تتعلق باعتبارات الصنف الذي يجري التضحية به لاعتبارات الحجم، وضياع أسماء الشركات المعروفة في معمعان اندماجات متتالية.

بعض الأمثلة الناجحة حملت درجة من المراعاة لهذه الأمور. وعادة ما يُساق اجتماع "رينو" مع "نيسان"، الذي استفاد من الاندماج كأسلوب لتوسعة السوق وتخفيض التكلفة، لكنه أخذ شكل التحالف، متجنباً مشكلات الدمج من خلال احتفاظ الشركتين بكيانيهما المنفصلين من أجل مراعاة الولاء للصنف، واستمرار الحوافز لدى الموظفين. وهما، كما يقول مدير نيسان، اللبناني الأصل كارلوس غصن، "الوقود الذي تسير عليه الشركة". كما أظهر الاندماج مؤخراً بين "سويس إير" و"لوفثانزا" أن اندماجات شركات الطيران الأوروبية قد راعت مسألة بقاء الأسماء، لرغبة في استمرارها حمل اسم البلد أيضاً، وأن الفصل بين العاملين كان ضرورة في بعض المجالات على ضوء الخبرة الأمريكية في دمج الطيارين، الذي أدّى إلى مشكلات أثّرت على سلامة الطيران.

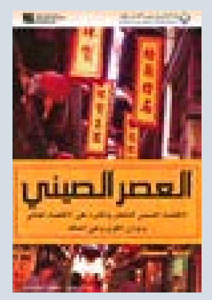
إن التشكيك المتزايد بجدوى الاندماجات المتسارعة بات يدفع إلى التفكير في ما سيحمله المستقبل. فهل سيكون فعلاً "السوبر كبير" الذي يجري خلفه في العديد من الصناعات هو نموذج الصناعة المستقبلية؟ أم أننا سنشهد خروجاً لولبياً لقطاعات متخصصة يميناً وشمالاً مرة أخرى من الاندماجات العملاقة كما حصل لاندماجات الستينيات والسبعينيات؟

وما يعود إلى من؟

كقاعدة، تترافق الاندماجات مع فترات نمو اقتصادي، مستفيدة من الانتعاش الذي يخلقه. ومن العوامل المشجعة لها في هذا المجال أن الاقتصاد العالمي ينمو، ومن المتوقع أن تكون نسبة النمو هذا العام 5 في المئة وهي الأعلى منذ جيل وأكثر. في هذا النمو تبدو الاندماجات وكأنها صراع على الحصة الأكبر. فمن يأخذ ماذا؟

تفيد الإحصاءات أن حصة الأرباح بالنسبة إلى الدخل القومي في الولايات المتحدة قد ارتفعت خلال العام الماضي إلى نسبتها الأعلى منذ 75 عاماً، وفي أوروبا إلى نسبتها الأعلى منذ 25 عاماً. ويثير الموضوع تساؤلاً ما إذا كان ثمن هذه التحولات الاندماجية يدفعه المستهلكون والعاملون بطريقة أو أخرى. يُساق في هذا المجال تأثيرات الاندماجات على درجة التنافس. وحسب بعض التحليلات، فدرجة التنافس التي ازدادت في الولايات المتحدة بين عامي 1939 و 1980م شهدت تراجعاً ملحوظاً في العقدين الأخيرين إثر الموجتين الاندماجيتين المتعاقبتين. وإضعاف المنافسة لا يؤثر على الأسعار فقط، بل أيضاً على نوعية المنتج الذي يقدم إلى المستهلك. ويؤخذ على الاندماجات أيضاً ما ينتج عنها من صرف للعاملين. والاستياء الأهم في هذا المجال اقترن بالاندماجات ذات الطابع المالي، في شراء شركات وتفكيكها وبيعها. وآخره، أن العولمة الاندماجية الجارية لا تراعي الخصوصية المجتمعية للبلدان. ولذلك، فمن الممكن استنباط أشكال من الحماية في هذا المجال على مستوى الاتفاقات الدولية لكي تضمن اعتباراً لتلك المصالح والخصوصيات. وربما تقدم التوجيهات الأوروبية حول موضوع الاندماجات بين الشركات الأوروبية، بما تضمنته من بند يراعي حماية خصوصية العقد الاجتماعي الألماني مثلاً صغيراً لما يمكن أن يكون عليه اجتماع مصالح لا تسير كلها بالضرورة في نفس الاتجاه.

اقرأ للاقتصاد



النهضة الاقتصادية في الصين الحاضر والمستقبل و.. الأمثولة

"العصر الصيني" هو آخر الإصدارات التي تكاثرت في الأونة الأخيرة، ولا شيء يوحي بأنها ستتشبع قريباً القرّاء المتعطشين إلى معرفة المزيد عن النهضة الاقتصادية في الصين، أسرارها، واقعها، وأثرها على الاقتصاد العالمي وتوازن القوى خلال السنوات المقبلة.

مؤلف هذا الكتاب هو أوديد شينكار، الإداري والاقتصادي المعروف عالمياً، حامل شهادة دكتوراة في الفلسفة من جامعة كولومبيا، وعضو في عدد كبير من أكاديميات الأعمال، ومستشار لدى عدد أكبر من المؤسسات متعددة الجنسيات. وقد أمضى المؤلف نحو 30 سنة وهو يتابع الحركة الاقتصادية في الصين، وسبق له أن وضع أبحاثاً عديدة حولها. في هذا الكتاب يستعرض كيف تستعيد الصين وهج إمبراطوريتها الغابرة عبر تكريس التقنيات الحديثة واقتصاديات السوق في نظام تحكمه البيروقراطية والحزب الشيوعي. فعلى مدى 312 صفحة يتناول المؤلف أوجه الاختلاف ما بين تطور الاقتصاد الصيني المتسارع عن غيره مثل اليابان والهند والمكسيك، وما سيؤدي إليه ذلك في النظام التجاري العالمي، وأثر تطور الصين على كل مستهلك وشركة في العالم.

عمالة رخيصة، ملايين الحرفيين المهرة، صناعة سيارات وأدوات كهربائية أسرع وأوفر، تكتل هونغ كونغ وتايوان وسنغافورة والشتات الصيني، قرصنة، تزوير، ملكيات فكرية مستباحة.. عناوين كثيرة ومثيرة لقضايا تشغل المراقبين الذين يتطلعون صوب الصين والأهم من كل ذلك هو التوازن المرتقب مع الولايات المتحدة الأمريكية.

في مقدمة الطبعة العربية التي صدرت قبل أسابيع عن الدار العربية للعلوم، كتب المترجم سعيد الحسنيه يقول إن "العولمة التي بدأت قبل قرون عديدة، وليس في وقت قريب هي التي سمحت للغرب عموماً، وللولايات المتحدة خصوصاً، باحتلال مركز الريادة الاقتصادية والسياسية. وهي نفسها التي ستسمح للصين، في مستقبل يراه الناس قريباً، بأن تسير جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة، وحتى أن تتجاوزها حسب بعض التوقعات". ويضيف أن السؤال الأهم هو: "كيفية استفادة منطقتنا من جوهر الأمثولة الصينية القائل بأخذ التقنية الغربية من دون الأخذ بالقيم الغربية، فهل هذا شيء مستحيل؟".

قول في مقال

عصا المعرفة السحرية!!

في مقالته "رسالة دكتوراة تروِّج للطائفية الثقافية" التي نشرتها صحيفة الشرق الأوسط مؤخراً، أثار الناقد السعودي حسين محمد بافقيه أسئلة عديدة حول مفهوم الحيادية وعلمية المناهج المعتمدة لمنح شهادات الدكتوراة أو غيرها من الشهادات الجامعية. وقد فتحت المقالة الباب واسعاً أمام ردود الفعل التي تناولت الموضوع من جوانب مختلفة وصولاً إلى دور المؤسسات التعليمية المانحة للدكتوراة. الناقد السعودي عثمان جمعة الغامدي يناقش هذا الموضوع من زاوية مكانة المنهج العلمي في التحصيل الجامعي.

يفترض بالجامعات أن تكون مهد المناهج العلمية، كما يفترض بالبحوث الأكاديمية أن تكون حيادية بعيدة عن الهوى والنوازع الشخصية. وقد أوصت هيئة اليونسكو الدولية بإدخال مقررات البحث العلمي والتوثيق في الجامعات على جميع المستويات التعليمية، ذلك أن الطالب يبقى في حاجة دائمة وماسة للمعلومة، وحيث إن التلقين يُبقي العقل كما هو فإن وصول الطالب بنفسه إلى المعلومة هو أحد أبواب التعلم الذاتي، وهو ترجمة للنظرة العلمية الحديثة التي ترى أن الطالب هو محور العملية التعليمية، وبمقدار التحدي الذي يواجهه الطالب تتفجر طاقاته الإبداعية في حل المشكلات، وبالتالي في الإبداع عموماً.

إن تعليم الطالب المنهجية العلمية من أبرز اهتمامات التربية الحديثة، فالمعرفة تبقى تسبح في أذهاننا كما تسبح موجات الأثير في الفضاء حتى تجد الجهاز الذي يتعرف إلى شفرتها فيطلقها في شكل موجات سمعية، فإذا لم تجد المعرفة العقل العلمي الذي يوظفها بالشكل الجيد ويستثمرها في أقصى حدودها أضحت بلا جدوى، وفي أفضل الاحتمالات تكون جدواها ضعيفة قياساً لما يناط بها.

لكن كيف يتعلم الطالب المنهجية العلمية؟ لعل الإجابة عن هذا السؤال من الأمور الصعبة، وهو بحاجة إلى تراتبية فكرية تعود به إلى جذور عميقة في مجال التفكير، فالجامعات وهي الأقدر على تعليم مناهج البحث العلمي بوصفها المؤسسة التربوية والعلمية الأكبر في أي قُطر، ينبغي أن تتوافر فيها البيئة المناسبة لتعليم تلك المناهج، وأن تتوافر فيها الكوادر القادرة على تحويل فلسفة العلم العائمة إلى مشكلات بحثية، وبالتالي تصبح الحلول محددة بقدر انتهاج الباحث منهج علمي دقيق وصارم.

المنهج العلمي يكاد يقترب من العصا السحرية في الثقافات الماورائية، يستخدمها الباحث في كل علم فتستحيل به فوضى المعرفة وتشظيها إلى نظام من العلامات. فالمنهج العلمي مطلوب في دراسة الأديان، وفي دراسة التاريخ، وفي دراسة الآداب، كما هو مطلوب في دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية وفي كل البحوث دون تفريق. وهذا يرجع إلى طبيعة المنهج ذاته وماهيته، حيث يعد أبسط تعريف للمنهج العلمي أنه الطريقة التي يصل بها الإنسان إلى الحقيقة، وفي أحد أقوال ديكارت ما يشير إلى الأهمية العظيمة للمنهج العلمي حيث يرى أن من الأفضل للإنسان أن يعدل عن البحث عن الحقيقة من أن يحاول البحث عنها من غير منهج.

قد يقع البعض ضحية البحوث العلمية حينما يصبح ميدانها العلوم الإنسانية، وما ذلك إلا لأن البحث في العلوم الإنسانية ملاصق للبشر، فالذات الباحثة هي ذاتها موضوع البحث، وهذا ما يجعل التشابك، كما يرى عماد مرهلاني في كتابه "العلم والإيديولوجيا"، بين الذات والموضوع يصل إلى أقصاه، بسبب انخراط أنا الملاحظ في الظواهر المراد دراستها، إضافة إلى حدس الباحث الذي يزيد ويقل بمقدار إحساسه بضرورة التقنيات الموضوعية، وهذا ما يجعل الباحثين غير المنهجيين يتخطون حدود وعيهم الممكن، أو بوصف آخر حدود حسبانهم فيصلون إلى نتائج غير موفقة ولا مرجوة من بحث يُنسب إلى العلمية.

من أجل ذلك، كان من أهم المواد الدراسية التي أضيفت إلى المحتوى الأكاديمي لأية دراسة جامعية مادة البحث العلمي، وخاصة إذا كان الطالب في مرحلة الدراسات العليا، إذ من المحتم عليه أن يكون له منهج يساعده في اكتناه المخبوء من المعارف، وفي تنظيمها والنوء بها بعيداً عن الأهواء والنزعات الشخصية، وإذا كانت الجامعات تسعى إلى ترسيخ وعي جمعي بأهمية العلم والأصالة العلمية فإنها تضع بذلك اللبنات الأولى للعقل العلمي، فالعقل العلمي هو ما تصبو إليه الجامعة ذات الرسالة الواضحة البيّن صدقها، ويمكن أن تقاس علمية الجامعات باستعراض يسير للدراسات المقدمة من أبنائها الذين تخرجوا فيها، فبقدر ما يتحمس الطلاب في دراساتهم إلى موضوعات تميل إلى التنوع يكون افتقارهم إلى علمية العقل، ومرد هذا الافتقار إلى أن التنوع يختلف عن التغاير، فالتنوع يأخذ العقل من موضوع إلى آخر دون منهج علمي، وحينها يصبح هدف العقل التوسع في المفاهيم وحسب، على عكس التغاير الذي يحصر البحث في نطاق ضيق يستطيع من خلاله الباحث الوصول إلى نتائج مرضية، وهو ما كان يُعبَّر عنه في الثقافة العربية قديما بالتبسط والتخصص.

لا يتوقف دور الجامعات على البحوث وإعطاء الشهادات وحسب، بل لعل ذلك لا يعدو أن يكون مرحلة من مراحل عملها الطويل في المجتمع الذي قامت بين ظهرانيه، وجزءاً من رسالتها الكبيرة. فالجامعات تتحمل عبء الارتقاء والنهوض بالمجتمع من جميع النواحي، ومن بين تلك النواحي: تنمية التفكير العلمي لأبناء المجتمع، وتغيير بعض المفاهيم السائدة، خاصة ما يظن منها أنها ذات صبغة علمية، فترسَّخ بشكل قوي حينما تصدر عن فئات لصيقة بالفكر والعلم.

ولكن كيف يمكن للجامعة أن تعمق التفكير العلمي في أبنائها إلا من خلال إيجاد الأساتذة والباحثين الذين ينشرون المعرفة في شكلها الصحيح، ويرسمون للدارسين الطريق السليمة للعلم، وينمون بيئة البحث العلمي وفق المناهج العلمية الرصينة. وربما يصعب على كثير من الجامعات أن تقوم بمثل هذا العمل، رغم ما نراه للوهلة الأولى فيه من سهولة ويسر، فالأمر لا يتعدى جيلاً واحداً من الأساتذة حتى يأخذ الوعي العلمي في الانتشار بين أفراد المجتمع، لكن أية جامعة تستطيع فعل ذلك إذا كانت لا تمتلك الفريق البحثي المناسب، وليس كل جامعة يمكنها أن تبث الروح العلمية في مناهج الدارسين لديها إذا كان أساتذتها بعيدين عن أصول البحث العلمي. ولذلك يصبح من العسير أن تتصدى جامعة لذلك دون أن تمتلك هي الكادر العلمي من أساتذة وباحثين يقومون بتعميق أصول البحث العلمي في الدراسات التي تجاز عن طريقهم.

إن المتَوَخَى دائماً من الجامعات أن يكون لها تأثير أشبه ما يكون بالموجات المغناطيسية التي تمتد آثارها في البيئة المحيطة بها، حيث تسهم في إحداث التغييرات الاجتماعية، وتحقق التفاعل بين الفرد والبيئة الاجتماعية. فكل جامعة حينما تعد مكمن المنهجية ومركز البحوث العلمية لاشك أن لها، أو هكذا يفترض، تأثيراً إيجابياً، خاصة في طلاب مرحلة الدكتوراة. فدراسة الدكتوراة تتجاوز الفائدة المعرفية والدقة التخصصية المتوخاة من الباحث في موضوع ما. ذلك أن أفضل ما تصبوا إليه الجامعة من إيصال أبنائها إلى مرحلة الدكتوراة أن يمتلكوا الطريقة الصحيحة في التفكير، وهي كيفية ترتيب الأفكار وتنظيم البيانات والاستفادة منها، ويرجع ذلك إلى كون الفترة التي يقضي فيها الطالب فترة بحثه في الدكتوراة وفق منهجية علمية معينة، تعطيه الخبرة الجيدة في العمل المنهجي. وهذا ما يجعل خبراء البحوث العلمية يوصون الدارسين بتحديد الموضوع في أضيق الحدود، وذلك بهدف الخروج بفائدة من البحث.

ولعل ما ميز المجتمع الصناعي وما بعد الصناعي، وهو ما نطمح أن تنقلنا جامعاتنا إليه، اعتماده على فلسفة ما سمي في قرابة منتصف القرن العشرين بعلم المستقبل. وهذا المصطلح أضحى، كما جاء في كتاب "المعلوماتية والمجتمع"، يعبر عن فلسفة العلم الذي يعاكس الإيديولوجيا، ولكن الحياد المعرفي لا يتأتى في غير المجتمعات التي تبدأ فيها التجديدات بالصدور عن الدراسات العلمية البحتة وفق مناهج علمية دقيقة، حينها تتحول المعرفة النظرية إلى ثورة استراتيجية، وتحتل فيه أيضا الكوادر العلمية العليا مثل الجامعات ومراكز البحوث إدارة التطوير الاجتماعي والاقتصادي.





الأغنية الشبابية في الخليج..

جديد يحترم القديم وللتأثر بالمحيط العربي دوره

استكمالاً لقضية الأغنية الشبابية وواقع حالها في الوطن العربي، التي كنا قد نشرنا في العدد الماضي الحلقة الأولى منها، ننشر هنا الحلقة الثانية والأخيرة التي نستعرض فيها واقع الأغنية الخليجية واتصالها بالجمهور، وتشابكها مع منظومة القيم الاجتماعية والثقافية..

فخلوّ ساحة الغناء الخليجيِ من ظاهرة مغنيات الاستعراض قد يكون مطمئنا، إلا أن ذلك لا ينفي وجود خلل لافت في واقع الأغنية الخليجية التي باتت مهدَّدة - ومهدِّدة - بمأزق اجتماعي ذي صلة وثيقة بالثقافة والموروث، وبموقع الفنّ من الصناعة الإعلامية الشائكة، وبجوهر الفنّ وأثره وتأثره بالواقع الإنساني في هذه المنطقة من العالم العربي.

الجمهور الخليجي يميل إلى الأغاني المرتبطة بموروثه الثقافي

1 الأغنية الخليجية: ثقافة المجتمع تفقد سيطرتها!!

حبيب محمود
عبدالله المغلوث

لا يمكن فصل الأغنية الخليجية عن الأغنية العربية على نحو عام، تبعاً لما تشترك فيه المجتمعات العربية من مشارب اجتماعية وثقافية متقاربة، إلى حدّ التشابه، على الرغم من وجود اختلافات واضحة بين منطقة وأخرى من البلاد العربية. وتبعاً، أيضاً، لتأثر الأغنية، في منطقة الخليج العربي، بالأغنية العربية منذ بواكير تطورها في الخمسينيات من القرن الماضي. وكون الأغنية الخليجية جزءاً من الأغنية العربية فإن من المنطقي، خاصة من الناحية الاجتماعية والفنية، أن تغلب ملامح الكل على الجزء، فتتأثر الأغنية الخليجية بما تأثرت به الأغنية العربية، وتؤثر في مجتمعها على نحو لا يختلف كثيراً عما أثرت به الأغاني العربية في محيطها العام.

المفهوم مشوشٌ أيضاً..!

وفيما يخص مفهوم الأغنية الشبابية، في منطقة الخليج العربي، فإنه كان ولا يزال مشوشاً على النحو الذي بلغ في الأغنية العربية أيضاً، إذ إنه لا يعكس معنى التجديد تحديداً في كل الأحوال، كما لا يعكس معنى أن يكون المغني شاباً، كما لا يعني أن الجمهور محصور في جيل الشباب، فربما اختلط كل ذلك أو تفرق في فهم فئة أو أخرى من أبناء الخليج..!

وبالنتيجة فإن فنّ عبدالله فضالة (الكويت) ومحمد زويّد ومحمد فارس وراشد الرفاعي (البحرين) وحارب حسن ومحمد سهيل (الإمارات)، وعيسى الأحسائي (السعودية) وغيرهم، لم يكن فناً محصوراً في كبار السن في الأربعينيات والخمسينيات. وحين تلاه فن طارق عبدالحكيم وعبدالله محمد وفوزي محسون (في السعودية) وعوض الدوخي وشادي الخليج (الكويت) وأحمد الجميري ومحمد حسن (البحرين) وجابر جاسم (الإمارات) في الستينيات والسبعينيات؛ باستخدام آلات موسيقية متعددة في توزيع الأغنية وابتكار الألحان، فإن المسألة لم تبدُ شبابية أو كهولية في جوهرها، بقدر ما عكست تطلّع الأغنية في منطقة الخليج إلى اللحاق بالأغنية العربية الناهضة والبارزة في مصر والشام.

أفرز الأمر فناً أرقى، في الكلمة واللحن والأداء، من أغاني العود و"الطبلة" الشعبية التي كانت رائجة قبل النفط.

ولكن ذلك لم يحل دون استمرار الأغنية الشعبية، وإلى حد واضح حافظ عليها عدد من المطربين أمثال: محمد الجنوبي وحجاب عبدالله وبدر الغريب وسلامة العبدالله، وميحد حمد، ومزعل فرحان، وخالد عبدالرحمن.. على تفاوت واضح بين مجايلي الأغنية الشعبية..!

التطلّع الجديد قاده مطربون وملحّنون متّحدين بجمهور أسهمت الإذاعة والتلفزيون والمسارح في صناعته؛ ليتعاطى مع الأشكال الفنية المتعددة، من دون أن نتجاهل تأثير الفن الغنائي العربي في الجمهور، ناهيك عن تأثر الفنانين أنفسهم.



الكويتي عبدالله الرويشد لمع منذ الثمانينيات كمطرب شباب ناجح

من الفلكلور

وإذا كان من الطبيعي أن تفرض ثقافة المجتمع وقانونه نفسيهما على الفن في أي مكان من العالم؛ فإن أولى مفردات الثقافة الاجتماعية، في هذا الصدد، هو الفلكلور الذي مثل – وما زال يمثل – عمقاً واضحاً في الأغنية الخليجية من ناحية الكلمة والإيقاع، وإلى حد كبير، من ناحية اللحن.

هذا ما نلحظه ـ مثلاً ـ في الموال وأغاني البحر الكويتية والبحرينية، كما نلحظه في أغاني البيئة البدوية في الأغاني السعودية. لقد داعبت رائحة البحر وجد البحريني والكويتي والقطري. وحرّك "السامري" طرب ابن الصحراء، بالقدر الذي نفذ أثر الإيقاع اليمني إلى مشاعر ابن تهامة أو عسير. ويُقاس ذلك على أبناء ساحل البحر الأحمر حين تعزف السمسمية لحنها الحزين. والخلاصة هي أن موروث البيئة، الفني والأدبي، انعكس على الأغنية في منطقة الخليج، فاجتذب إليه الجمهور الذي راحت تحفّظاته على الموسيقى والغناء تقلّ حدة بانتشار المذياع والتلفزيون.

الإذاعة.. صانعة الجمهور

حين جاءت الإذاعة إلى منطقة الخليج، في أربعينيات القرن الماضي، وجد المطربون طريقهم الفعلي الأول إلى جمهورهم. وقبل ذاك كان الطريق وعراً وشائكاً ومحكوماً بصرامة اجتماعية مُحرجة.

في هذه المرحلة تأسس الجمهور الحقيقي للأغنية في منطقة الخليج العربي. وراحت تفرض هذه الوسيلة السحرية خليطاً – أو مزيجاً – من الفنون الغنائية العربية الشرق أوسطية إذا جاز القول، وهذا المزيج كوّن، بدوره، خليطاً من الأذواق والتفضيلات. ومع بروز المواهب المحلية الناشئة إلى جانب المطربين المعروفين عربياً في ساعات البث الإذاعي؛ أخذت الأغنية الخليجية تتشكل، وتظهر أسماؤها.



عيسى إبراهيم

أحمد الجميري (في الوسط) أسهم في إيصال الأغنية البحرينية إلى البلاد العربية الأخرى

وهنا يجب أن نلتفت إلى جدية وصول الفن الغنائي إلى الناس، وصولاً قابلاً للتفاعل بالثقافة الاجتماعية، فبعد أن كان الفنّ مرفوضاً بالعموم تقريباً، صار يتسلل إلى المجتمع شيئاً فشيئاً حتى صُنعت النجوم أمام الجماهير.

حالة منافسة

لعل في قطبية طلال المداح ومحمد عبده والمنافسة الواضحة بينهما أحد الأدلة على ما يمتلك المطربان من نجومية بين الناس. فقد انقسم الجمهور السعودي بين الرجلين سنوات طويلة، إلى الحدّ الذي يمكن التقاطه في رأي مهم لفنّان بحريني هو خالد الشيخ، وذلك حين



عيسى إبراهيم

مطربو الشباب يتزايدون..

وصف نفسه بأنه يسمع محمد عبده "بعقله"، وطلال المداح "بقلبه"..!

لم تنحصر المنافسة في من يسمع لهذا أو ذاك، أو يشتري "ألبومه" الجديد أو القديم من الجمهور، بل فيمن يكتب له ويلحّن أيضاً. إذ أغرى النشاط والتنافس على التفوق حتى كبار الشعراء والملحنين المعروفين في منطقة الخليج، ليكتبوا ويلحنوا للمطربَين اللذين كان أحدهما أستاذاً للآخر.

> منطق "الجزء والكل" يربطها بأزمة الأغنية العربية، والواقع الاجتماعي يضع خطوطاً حمراء

وهذا بدوره استتبع تنوعاً في لغة الأغنية، ليس في أغاني السعوديين فحسب بل في الأغنية الخليجية عموماً. فظهرت أسماء شعراء مهمّين في أغاني المطربين، ومنهم شخصيات بارزة، أمثال: الشيخ زايد آل نهيان، والأمير عبدالله الفيصل، والشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، والأمير خالد الفيصل، والأمير بدر ابن عبدالمحسن، والأمير عبدالرحمن ابن مساعد، علاوة على شعراء مارسوا كتابة الأغاني مثل أحمد قنديل، وطاهر زمخشري، وأحمد العدواني وإبراهيم خفاجي وغنام الديكان وفائق عبدالجليل.

جديد يحترم القديم

حالة المنافسة، كما هو واضح، تشير إلى شعبية الأغنية، وبروزها ضمن الحالة الثقافية، وتشير أيضاً إلى تطور على المستوى الجمالي في كلمات الأغنية. فمثلما طرب الجمهور إلى النصوص الكلاسيكية في أغنية مثل "دستور" لمحمد عبده أو "لا لا يالخيزرانة" لطلال مداح؛ فإنه فوجئ أيضاً بالتعابير الجديدة في أغنية "لا تردين الرسايل" لعبده و"زمان الصمت" لمداح، بل واستثارته "أبعتذر" لعبده نفسه وهي من الأغاني الطويلة، إلى جانب أغانٍ شعبية أداها المطربان.

هذه مجرد أمثلة على حالة التنوّع التي تميزت بها الأغنية السعودية، حتى على مستوى المطرب الواحد. وفي دول الخليج الأخرى يمكننا ملاحظة التنوع ذاته. ولعلّ خالد الشيخ أكثر المطربين والملحنين جمعاً للتراث والحداثة في أعماله الفنية، إلى حدّ المفارقة الحادة، فقد وظف نصوصاً غنائية من الفلكلور الشعبي إلى جانب نصوص كتب بعضها أدونيس..! ولم يكتف الشيخ بما أفرزته بيئته البحرينية، بل طال اهتمامه الفلكلور اليمني في نصوصه الغنائية. ويمكن الجزم بأن عقد الثمانينيات كان مرحلة مفصلية في انفتاح الغناء الخليجي على غيره من الفنون العربية، أكثر مما كان عليه في العقد الذي سبقه. ففي الثمانينيات برزت أسماء جديدة وتطوّرت أسماء كانت موجودة تطوراً لافتاً، أمثال: عبادي الجوهر وعبدالمجيد عبدالله ومحمد عمر وعلي عبدالكريم في السعودية، وعبدالله الرويشد ونبيل شعيل في الكويت، وعلي عبدالستار في قطر.. وهذا على سبيل المثال ليس أكثر..!

إلى الأغنية المصورة

من الواضح، في هذا العرض، أن للجمهور الخليجي موقعاً وموقفاً من الفن، ويجدر التثبت من أن الجمهور كان "يسمع" الأغاني ويتفاعل معها على أنها كلمة ولحن وأداء، وفي هذا المثلث الفني تباينت المستويات، تبعاً لتعدد وتفاوت المدارس في الفن نفسه.

وبطبيعة فن الغناء، ليس هناك أغنية تُرى أو تشاهد. ولكن حين وصلت الأغنية إلى مرحلة المشاهدة، في التلفزيون تحديداً، فإن ذلك كان شكلاً منسوخاً عن الشكل المسرحي، ومضافاً على الشكل الإذاعي. فصار بإمكان الناس أن يشاهدوا المغني في التلفزيون بدلاً من أن يذهبوا إلى المسرح، أو ينتظروا حتى يقيم أحد الأثرياء حفلاً غنائياً في عرسه..!

المطربون الكويتيون سبقوا مطربي الخليج الآخرين إلى الظهور التلفزيوني، وإلى تقديم الأغنية المصوّرة أيضاً. وبالتالي صنعوا مفهوماً جديداً للأغنية نقلاً عما وصلت إليه الأغنية العربية في مصر وسوريا ولبنان. وأسهم التقنيون القادمون من هذه البلاد للعمل في الكويت في الصناعة التلفزيونية الرسمية، من برامج وأعمال درامية وأغانٍ. إلا أن البداية، في الأغنية المصورة، كانت على شكل مقبول اجتماعياً؛ إذ ظهر المطربون من داخل الاستوديوهات بعد تدخل مصممي الديكور. ثم ظهرت أغانٍ بمرافقة كورال من الرجال، ثم ما لبث التسجيل أن أضاف بعض النساء إلى الكورال، ليمهد لدور أكثر جرأة في مرحلة تالية بظهور النساء الراقصات..!

ومن المهم الالتفات إلى التحفظ الشديد الذي ظهرت فيه الراقصات في الأغاني الكويتية التلفزيونية الأولى. فبعضها كان ساذجاً حدّ الطرافة، كتلك التي غنى فيها عبدالكريم عبدالقادر إحدى أغنياته وظهرت فيها امرأة ترتدي فستان زفاف كاملاً، في حين لا تشير كلمات الأغنية إلى ما يمت للزفاف بصلة..!

ومن جهة أخرى؛ كانت الملابس الكلاسيكية الخليجية "النفانيف" تراعي العرف الاجتماعي إلى حدّ كبير، كما أن أسلوب الرقص اتسم بكثير من الحشمة قياساً بما نشاهده اليوم في أغاني الفضائيات..!

الأغاني المصوّرة، بالأسود والأبيض في الستينيات وأوائل السبعينيات؛ وعلى ما فيها وعليها من تحفظات اجتماعية وثقت جزءاً عريضاً من الذاكرة الخليجية، وجداناً وفلكلوراً ولغة، علاوة على اتصالها بتطورات الواقع والتغيرات المختلفة، وتحلّيها بقدر كبير من احترام مفردات البيئة المتوارثة في أخلاقيات المجتمع الخليجي المحافظ. وحين دخلت الألوان إلى الشاشة الخليجية، في السبعينيات، حافظت الأغنية على المسافة التي تفصلها عن المجتمع، لتُسهم الأغنية المصوّرة في انتشار الأغنية وصناعة صلة أكثر وضوحاً بين المغني والمستمع، من خلال التلفزيون..!

قبل الإذاعة لم يكن الغناء مرحباً به، و"نفانيف" الأغاني الكويتية أدخلت الفيديو كليب..!

منحى تجاري..!

ولم يكد عقد الثمانينيات يودّع عامه الأخير، حتى أخذ مصطلح "فيديو كليب" يؤسس نفسه للتعريف بـ "الأغنية المصوّرة"، زاحفاً صوب أغاني الشاشة، إلا أن كون التلفزيونات الخليجية رسمية تابعة للحكومات حال دون تمرير هذه الصرعة إلى المشاهدين، ولذلك تأخر انتشار الفيديو كليب إلى عقد التسعينيات بظهور الفضائيات الخاصة. وهو العقد نفسه الذي ظهرت فيه محطات الإذاعة الخاصة أيضاً على موجات (الإف إم)، لتأخذ صناعة الأغنية منحى تجارياً غير مسبوق في تاريخ الفن في منطقة الخليج العربي.

وكان من نتائج ذلك أن حققت الأغنية الخليجية اختراقاً جغرافياً إضافياً على ما حققه طلال المداح ومحمد عبده وشادي الخليج وغيرهم في المراحل السابقة. فقد ذاعت أغان بعينها متحررة من لهجاتها المحلية الصرفة. ويشعر الإماراتي سالم الخالدي بالزهو عندما يُشار إلى أغنية "رهيب" التي كتبها الخالدي ليغنيها السعودي عبدالمجيد عبدالله. وقد كان لهذه الأغنية دور في تناسل الأغاني التي تعتمد على مفردات سهلة يستطيع فهمها والتفاعل معها الخليجي والمغربي مروراً بالمصري والسوداني واللبناني والسوري والأردني وغيرهم. نجاح "رهيب" أدى إلى استغلال النعوت في القاموس العربي وتوظيفها بشكل مستساغ وغير مستساغ أحياناً في الأغنية بحثاً عن الشهرة السريعة.


أحمد العجيمي

الجمهور الخليجي يسمع (ويرى) الأغنية ويستمتع بالحاستين

تكريس الصورة

وعلى الرغم من أن نجاح أغنية "رهيب" وأمثالها كان معتمداً على كونها "مسموعة" في الأصل، فإن عقد التسعينيات كرّس حقائق صعبة في واقع الفن عموماً. ولعلّ أصعبها هو ذلك الجدل الذي بقي مستمراً في الاعتراف بـ "الفيديو كليب" أو إنكاره من الناحية الفنية والأخلاقية. وهو الجدل نفسه الذي ساد المجتمعات العربية.

الفلكلور أمدّ المطربين بثروة من النصوص، وحين تطوّرت الأغنية تحقق التنوع في جميع المستويات

مع الإقرار بإسهام الفيديو كليب الفاعل في انتشار الأغنية الخليجية على مستوى الوطن العربي إلا أن بعض رموز الأغنية الخليجية، راحلين ومعاصرين، يعتبرونه سبباً في هبوط الأغنية. وما يراه الشاعر الشهير إبراهيم خفاجي في هذا الصدد يحمل الكثير من الدقة.. فهو يرى أن: "الفيديو كليب أدى إلى انحدار ملموس في مستوى الأغنية الشبابية، ولم يعد التركيز كما كان سابقاً على الكلمة واللحن بقدر الاهتمام بالأجسام التي تهتز أمام العدسات". وخفاجي هو كاتب كلمات النشيد الوطني السعودي، ويحمل خبرة تربو على نصف قرن في كتابة الأغاني التي أداها ولحنها عدد كبير من رواد الفن الخليجي.

لكنّ هذا الرأي لا ينسجم ورأياً آخر لملحن شاب هو صلاح الهملان الذي قدم أعمالاً لمطربين سعوديين منتشرين، وحقّقت ألحانه نجاحاً بين الجمهور، مثل: "ياناسينا، تضحك الدنيا، حبيت أسلّم عليك" بصوت راشد الماجد، و"هكذا الدنيا تدور" التي غناها عبدالمجيد عبدالله، و"وجه الخير" بصوت جواد العلي وغيرها. فالهملان لا يرى غضاضة في انتشار الفيديو كليب بتركيزه على مضمون الأغنية.. ويقول: "العمل المدهون بالكلمة المعبرة البسيطة واللحن المبتكر سيصل إلى المتلقي ويحقق النجاح المنتظر".

دعاية وإعلان..!

ومن ناحية ما، يبدو الاختلاف مسألة بين جيلين نشأ أقدمهما على تذوق "المغنى" في حين تفتّح الآخر على ربط الصورة بالكلمة. بيد أن واقع المسألة يتخطى ذلك بكثير ليطولَ المسألة الاجتماعية فيما تحترمه من ثقافة وموروث.

لقد أصبح المشاهد الخليجي هدفاً لأكثر من عشرين قناة فضائية خاصة بضاعتها الوحيدة، تقريباً، هي أغاني الفيديو كليب التي تنتجها شركات الإنتاج وترعى بثها شركات تجارية رعاية إعلانية في الغالب الأعم. ومن أجل أن تنجح القناة في جذب المشاهد والمعلن؛ فإن رهانها يتركز على جعل الأغنية جزءاً من عملية استعراضية بصرية أكثر مما هي كلمة معبرة ولحن جميل وأداء متمكن. وعلى الرغم من أن التقنية قد أوصلت الأصوات الباهتة إلى المستمع من خلال تدخلات مهندسي الصوت ومشغلي الآلات الحديثة؛ فإن المطربين المتمكنين، أنفسهم، قد طالهم إغراء الفيديو كليب وهرولوا إلى الصرعة عن طيب خاطر..!

واقع تلفزيون الواقع..!

وقد يصحّ القول بأن الألفية الجديدة التي بلغنا منتصف عقدها الأول احتضنت تناقضات حادة وغير معقولة في شأن الأغنية في منطقة الخليج. وذلك هو حال الأغنية العربية في المرحلة الزمنية ذاتها. وقد يُطمئن خلوّ ساحة الغناء الخليجي من ظاهرة روبي ونانسي عجرم وهيفاء وهبي وغيرهنّ من مغنيات الاستعراض؛ إلا أن ذلك لا يبرّئ ساحة المطربين الخليجيين الذينَ لم يتحرجوا من جرّ الاستعراض إلى أغانيهم المصوّرة جراً غير مبرر..!

وعند الحديث عن الأغنية الشبابية لايمكن إغفال الحالة الاستثنائية التي صنعها برنامج "ستار أكاديمي" في نسخته الثانية. فقد فاز بلقب البرنامج شاب سعودي، لتثير مشاركته في البرنامج جدلاً عريضاً في الصحافة والقنوات الفضائية المختلفة. فهناك من وجد أن "هشام الهويش" رسم صورة للشاب السعودي، مقابل من رفض هذا القول معتبراً الشاب الفائز "لا يمثل سوى نفسه ويجب ألا يحظى بالاهتمام الذي حظي به". بل إن بعضهم رأى أنه "لا يملك خامة صوتية"..!

والقلق الذي أفرزه "ستار اكاديمي" ينسحب على برامج أخرى مشابهة في إطار تلفزيون الواقع، وبعضها يذاع حالياً عبر مسميات مختلفة، لكنها تعتمد في مضمونها على تأهيل أصوات يافعة في محاولة لتصديرها إلى الساحة الفنية. وهناك من يرى أنها برامج تستهدف جيوب أهل الخليج وتدق مسماراً جديداً في نعش الأغنية، بينما يرى آخرون أن المواهب التي تقفز من أمعاء تلك الفعاليات لا تقل سوءاً عن تلك التي تهطل فجأة إلى الشاشة دون سابق استئذان..!

2 الأغنية السعودية: مراحل الترقي وصولاً إلى "الشبابية"

خالد ربيع السيد

انطلقت الأغنية السعودية الحديثة من تراكم موسيقي وشعري وإيقاعي هائل، حيث استقت قوالبها الموسيقية من المقامات العربية والفارسية والتركية، ونهلت شعرياً من النبع التراثي الحافل بالقصائد العربية الفصحى والعامية المتداولة والمتوارثة، واقتبست من الإيقاعات الإفريقية المتنوعة.. فموسيقياً كانت البدايات ضمن أبرز شكلين موسيقيين معروفين في القرن التاسع عشر، والمنتشرين آنذاك في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، لا سيما في الخليج العربي وهما (الصوت) و(الحداء). وأول من بدأ بالغناء بشكله المنظم في السعودية كان المطرب المكي الشيخ حسن جاوة، المولود في العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. وقد اجتهد في صياغة أعماله الغنائية بفعل ارتجالي مرة، وأخرى بالتصرف والابتكار، معتمداً على عذوبة صوته واتساع مساحته التي مكنته من التجريب والمحاكاة والابتداع، ولهذا نجد أن "الشيخ" قد استحدث بتلقائيته الفنية إيقاعات خاصة وجديدة، لم تكن متداولة آنذاك، مستمدة من إيقاعات إفريقية تعلمها على أيدي الوافدين والمقيمن في مكة من الأفارقة المسلمين، فعمل على تنويت بعضها بمساعدة موسيقيين مصريين ومغاربة، ومن ثم توقيعها في ألحان مرتكزة على المقامات الحجازية واليمنية المندرجة تحت وحدة السلم السباعي.

تطورها في الغربية والوسطى والشرقية

وعلى هذا المنوال جايل الشيخ جاوة وسار على خطاه كل من المطربين عبدالرحمن مؤذن والشيخ حسن لبني وسعيد أبوخشبة. بعطاءات فنية استمرت خلال عقود الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، حيث كانت أعمالهم الغنائية مفعمة بروح الأصالة المحلية والابتداع والخصوصية البيئية. ومن زاوية أخرى فقد أثرت الثقافة المحافظة السائدة في تلك الفترة على انتقاءاتهم واختياراتهم الشعرية، فكانت لا تخرج إلا من توليفة رصينة من عيون الشعر العربي الفصيح الممتزج بتلوينات لطيفة من الشعر العامي البليغ المتداول حينذاك في عموم الحجاز. والجدير بالذكر، كما هو معروف أن شهرة هؤلاء المطربين جاءت من خلال التغني بقصائد المدائح النبوية، وذلك وفق طريقة حجازية متميزة، تختلف عن مثيلاتها في الشام أو مصر أو المغرب العربي.

كما ظهر في تلك الحقبة الفنية الشيخ إبراهيم السمان، المتوفي في العام 1964م والذي كان مقيماً بالمدينة المنورة، وتمكن عن طريق الاحتكاك الفني والسفر من الموشحات الأندلسية والقدود الحلبية والأدوار المصرية، وتبنى في كل ذلك الشعر الجيد من التراث العربي، مكوناً مدرسةً فنيةً غنائية راقية أثرت المنطقة وأتحفتها بالرائع من فن الغناء الأصيل.



طلال مداح ومحمد عبده.. علاقة تنافس طوّرت الأغنية السعودية

وهكذا.. وعلى نحو عام نستطيع القول أن الأغنية السعودية أخذت في التطور شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى المطربين المجددين في مكة المكرمة والطائف أمثال: محمد علي سندي، طارق عبدالحكيم، عبدالله مريعاني وعبدالله محمد، وربما فوزي محسون، واضطلاعهم على ألوان الدانة والصهبة والمجس، حتى بلغوا مرحلة أغنية الجلسة (التخت السعودي إن صح القول)، ثم أغنية الفرقة الموسيقية الكاملة (الأوركسترالية الحديثة) المستفيدة من الغناء اليمني بقوالبه ومقاماته المتعددة وعقوده المتلونة..

> أسس الشيخ جاوة الغناء المنظّم؛ ليضع الأغنية السعودية على عتبات التجديد

وبإشارة سريعة إلى الغناء في المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية، نجد أن فن الغناء قد تأسس فيها بداية من الغناء الجماعي المتمثل في أهازيج العرضة المصاحبة بإيقاعات راقصة، ومن لون (الحداء) المعتمد على الارتجال في تلحين قصائد الشعر النبطي. إلى أن تطور هذا الشكل الغنائي إلى قوالب السامري والدوسري وغير ذلك..

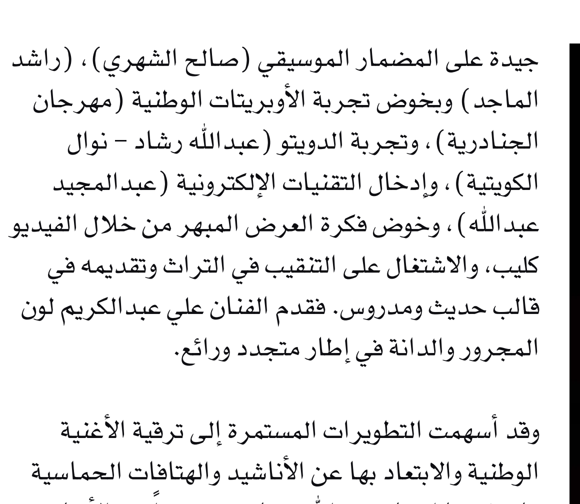
وإن تتبعنا على عجل مسيرة الغناء في الساحل الشرقي من البلاد فسنجد فن الغناء قد سار على ذات النهج الحجازي، مع اختلاف بعض التأثيرات البيئية والثقافية والجغرافية، متأثراً بالمقامات العراقية، والدانات الخليجية المتنوعة، ومستمداً من الألحان الهندية والإيرانية، ومعتمداً على الإيقاعات الإفريقية، حيث أخذ المطربون، في تلك الفترة من الأربعينيات والخمسينيات، قالب (الصوت) الخليجي ومزجوه بحركات هندية وتنويعات إيقاعية "هندوإفريقية"، متأثرين بالفنانين الكويتين الذائعي الشهرة حينذاك أمثال: أحمد باقر، عثمان السيد، شادي الخليج، وعوض الدوخي وغيرهم من الفنانين الخليجيين في الإمارات والبحرين. ثم شرعوا في تطوير أغاني الغوص التي كانوا يأدونها عند قيامهم برحلات الغوص لصيد اللؤلؤ. حتى استقرت حالياً في المنطقة الشرقية بشكلها الحديث المعروف.

مرحلتها الذهبية

من خلال هذه النظرة التاريخية الخاطفة، نلتمس مدى الاتساع المنهلي الذي نشأت في خضمه الأغنية السعودية، فهي وليدة التأثر بمدارس موسيقية مختلفة، دائماً وفي كل مراحلها، وهي، كما نلحظ، مسايرة لأنماط التطور المستمرة من قبل مجاوريها العرب والعجم على حد سواء.. وظلت هذه الصفة تلازم تفاعل الأغنية السعودية وتناميها، مع إضفاء الطابع الموسيقي المميز الذي رسخه جيل المرحلة الثانية من الفنانين، وهي المرحلة الذهبية للأغنية السعودية التقليدية. التي نهضت على أكتاف المطربين الأكثر تأثيراً في مسيرتها، أمثال طلال مداح، فوزي محسون، محمد عبده، غازي علي، عبادي الجوهر، علي عبدالكريم، المطربة توحة، ابتسام لطفي، سعد إبراهيم، عودة العودة، محروس الهاجري وسلامة العبدالله وغيرهم. حيث تغنى هؤلاء بألحان من أخذوا على عاتقهم تمييز اللحن السعودي وفق طابع لحني معين، أمثال: عبدالله محمد، سامي إحسان، سراج عمر، عمر كدرس، عبدالرب إدريس، أبوبكر بلفقيه، محمود حلوني، عبدالقادر حلواني... وغيرهم، وترافق تواجدهم مع ثلة من الشعراء الذين تشكلت ثقافتهم الإبداعية من منطلقات بناء الذات السعودية المعاصرة المواكبة للتطور الحداثي العام الذي شهدته البلاد خلال السبعينيات والثمانينيات. وكانت تلك الكوكبة من الفنانين السعوديين متمسكة بجذور أرضها، غير غافلة الهوية الحضارية التي تميز أبناءها عن سواهم.. وهم كثر نذكرمنهم على سبيل المثال: الأمير عبدالله الفيصل، خالد مدني، غازي علي، الأمير بندر ابن فهد وفتى الشاطئ، والأمير بدر بن عبدالمحسن والشاعرة الحميمة ثريا قابل، صالح جلال، خالد زارع ويوسف رجب، والعديد سواهم.. (بغض النظر عن الترتيب).

انتصارها عربياً

تميزت الأغنية السعودية في تلك الفترة عن غيرها في أي مكان آخر وبدأت الجماهير العربية، في كل مكان، تتفاعل وتطرب للأغنية السعودية. ولا غرابة في ذلك، فقد وصلت فيها مراحل الإبداع إلى أقاصيها، وحفلت الساحة الفنية بالغناء الجميل المنسجم مع جمهوره وبيئته وحاضره وماضيه، وصار من الصعوبة الخروج على تلك النمطية بسبب النجاحات التي حققتها داخلياً وعربياً. وبسبب النشوة الفنية التي غمرت العالم العربي من أدناه إلى أقصاه بروائع الغناء السعودي الجميل، والذي ظل تأثيره وطابعه المتميز، مستمراً ومهيمناً حتى بلغ المرحلة الثالثة للأغنية مع المطربين الأكثر تجديداً وانفتاحاً ونشراً للأغنية أمثال: عبدالمجيد عبدالله، خالد عبدالرحمن، وعبدالله رشاد، طلال سلامة، راشد الماجد ورابح صقر.. وإن حافظ مطربوا هذه المرحلة على وقار الأغنية الشكلي والمضموني إلا أنها حفلت كمرحلة باجتهادات



إمارة منطقة عسير

المهرجانات السياحية استقطبت جمهور الغناء أكثر من غيرها



جريدة عكاظ

قطعت الأغنية السعودية مراحل مهمة بفضل ما أدخله عليها الموسيقار طارق عبدالحكيم من تجديدات

جيدة على المضمار الموسيقي (صالح الشهري)، (راشد الماجد) وبخوض تجربة الأوبريتات الوطنية (مهرجان الجنادرية)، وتجربة الدويتو (عبدالله رشاد - نوال الكويتية)، وإدخال التقنيات الإلكترونية (عبدالمجيد عبدالله)، وخوض فكرة العرض المبهر من خلال الفيديو كليب، والاشتغال على التنقيب في التراث وتقديمه في قالب حديث ومدروس. فقدم الفنان علي عبدالكريم لون المجرور والدانة في إطار متجدد ورائع.

وقد أسهمت التطويرات المستمرة إلى ترقية الأغنية الوطنية والابتعاد بها عن الأناشيد والهتافات الحماسية فانتقل بها الفنان عبدالله رشاد، مستفيداً من الأساتذه محمد عبده، وأبوبكر بلفقيه، وجعلها أغنية حميمية بحيث تصهر مشاعر المستمع الوطنية مع ذاته وتجعله يحفظها ويرددها كغيرها من الأغاني العاطفية. وخاض الفنان (عبدالمجيد عبدالله) تجارب ناجحة من خلال التعاون الخليجي مع فناني الكويت والبحرين.. وغير ذلك من الفضائل والإبداعات التي حققتها الأغنية السعودية في هذه المرحلة، ورسخت نمطها التقليدي الرائع..

الخط البياني ينحدر

ولكن بقليل من التتبع، نجد أنه منذ بداية التسعينيات، غشى الكلمة المغناة بعض النأي والبعد عن الواقع البيئي والثقافي للبلاد. وغدا التركيز على الشأن الإنساني والشعوري بشكله العام، في الوقت الذي تلاشت فيه المفردات الثقافية المتنوعة (الحياة، الأشياء، المشاعر، الخيال والرؤى) والتي كانت تبثها الأغنية السعودية في تلقائة وجمالية بالغة إبان عصرها الأروع..

وهكذا استمر الحال مع هذه المعطيات الجديدة، حتى وصلت الأغنية السعودية إلى وقتنا الحالي، الذي توسعت فيه دائرة الاغتراب البيئي عبر كلماتها، وذابت فيه الخصوصية المناطقية، والأهم من ذلك الهوية المحددة. واعترت الكلمة المغناة هالة ضبابية، بحيث صارت لا تذهب إلى تعميق الإحساس بالإنسان السعودي ككائن تحكمه ظروف الهوية الثقافية والنفسية والاجتماعية. بل إنها صارت تذهب لتنتصر إلى مشاعره الوجدانية المجردة. إلى جانب هذا وذاك نجد أن خطاب الأغنية السعودية تخصص في توجهه إلى فئة محددة من المتلقين وهي فئة المراهقين (الشباب)، متجاهلاً بذلك فئات الجمهور العريض الأخرى، فتبنت الأغنية هموم "الشباب" المرحلية، وصبت كامل فحواها على مشاعرهم الغضة التي لا تزال في طور التكوين، مرتكزة على استهلاك فن الرقص المصاحب دائماً (في حالة الفيديو كليب). ولهذا ونتيجة لهذه السمات الجديدة والطارئة على الأغنية السعودية،



المحترف السعودي

ظلّ الفلكلور حاضراً حتى بعد تطور الأغنية السعودية

سميت الأغنية بـ (الشبابية)، فجاءت وفق التوجه الذي تتشابه فيه مع الأغنية القطرية والكويتية والبحرينية والمصرية واللبنانية في توحد يلغي الفوارق ويوائم بين مختلفاتها، مما دعا بعض النقاد والمتلقين إلى القول بأن هذا التشابه يؤدي إلى تدمير الحالة الطربية لدى المتلقي.. والتي كرسها - حسبما يدعون - ضيق المساحات الصوتية التي ظهرت مع بعض المطربين العرب في الآونة الأخيرة، والتي تحاول أجهزة التسجيل الصوتي تغطية نقاط الضعف فيها من خلال التمويه المصطنع.. كما لا يمكن إغفال الدور التسويقي الذي تلجأ إليه الشركات المنتجة للأغنية، فهي تنتهج الأساليب المعتمدة على الإبهار والتشويق والعمل على "تسليع" الأغنية وجعل استهلاكها يدخل في منظومة السلع السريعة الاستهلاك.

وإن التفتنا إلى مستوى الموسيقى والألحان ونوعية الآت الموسيقية المستعملة، فإننا سنجد نشوء تغيرات كبيرة تميل إلى تغريب الإيقاعات وتسريعها، وتوقيع إيقاعات "الروك آند رول" أو "الراب" أو "الكنتري"، وكذلك استعمال إيقاعات عربية خاصة بدول بعينها، مثل إيقاع الوحدة ونصف، أو غيرها من الإيقاعات البعيدة عن الثقافة السعودية. ومن ناحية أخرى ذهبت الأغنية الحالية إلى الاقتباس من بعض الجمل في الألحان الغربية بشكل واضح. مما أدى ذلك، إضافة إلى المستجدات الأخرى مجتمعة، إلى بروز جيل الأغنية الحالية، والذي اصطلح على تسمية أغانيه بـ (الأغاني الشبابية) التي اشتهر بأدائها مجموعة من "الشباب" أمثال: جواد العلي، حسن عبدالله، راشد الفارس، فارس مهدي، سارة، أحمد الهرمي، المطربة وعد، بالإضافة إلى المحتفى به كثيراً إبراهيم عباس الذي يمتلك صوتاً جيداً سوى أنه كرر أغنية المرحلة الذهبية (عباءة محمد عبده التقليدية) تحت إطار ومقومات مصطلح (الشبابية)..

وكختام ينبغي القول إن انحياز الأغنية الشبابية، بشكلها ومواصفاتها الحالية، إلى فئة الشباب وحدهم قد يؤدي إلى مزيد من القطيعة بين الجماهير العريضة وبين ما يقدمه هؤلاء الشباب. والقطيعة لا تؤدي بدورها إلا إلى تعطيل تلك الأصوات وطاقاتها.

الكيمياء الخضراء

لإصلاح ما أفسدته الكيمياء السوداء

الكيمياء الخضراء مفهوم جديد بدأ يرخي بظله على علم الكيمياء ومنتجاته ككل بهدف حماية البيئة والإنسان من الأضرار المحتملة لهذه المنتجات، خاصة أن الاكتشافات الحديثة تزيد من لائحة هذه المخاطر والأضرار التي لم يكن يحسب لها حساب قبل سنوات قليلة.

الزميل ماجد نعمة يحدثنا عن الأسباب التي أدت إلى ظهور "الكيمياء الخضراء" والآفاق المفتوحة أمامها، بعدما أصبحت علماً قائماً بحد ذاته.

لوحة أياد وزهور للفنان بيكاسو

يعتبر العالم الفرنسي الشهير لافوازيه، الذي أعدمه الثوار الفرنسيون بالمقصلة عام 1794م، مؤسس الكيمياء الحديثة. وقد اشتهر بشكل خاص من خلال معادلته التي أصبحت مضرب المثل: "لا شيء يضيع، كل شيء يتحول".

ولكن لو قدر لهذا العالم أن يعيش في زمننا الصناعي الراهن، لكان على الأرجح راجع نظريته ولكان أقل ثقة بما كان يؤكده منذ أكثر من قرنين. وهذا يصح بالدرجة الأولى بالنسبة إلى البيئة التي بدأت "تضيّع" الكثير من عناصر توازنها من جراء التحولات الكثيفة الناجمة عن الثورة الكيميائية الصناعية، التي لم تعد تترك مجالاً من مجالات الحياة اليومية إلا ودخلته، بدءاً من الماء وانتهاءً بالهواء ومروراً بالطاقة والطعام والدواء والنقل والزراعة واللباس!

وقد بدأ العلماء والصناعيون وأصحاب المسؤولية السياسية يشعرون فعلاً بخطورة بعض أنماط التنمية والاستهلاك على البيئة والموارد الطبيعية وعلى الصحة العامة، وبضرورة إيقاف الهبوط نحو الهاوية. وهذا تطور أساس في العقليات، خاصة بين النخب السياسية والصناعية والاقتصادية التي بات الهم البيئوي يقلقها تماماً كما هو الشغل الشاغل لحركات الدفاع عن البيئة وأنصار الطبيعة.

صورة التقدم ليست وردية فقط

في الماضي غير البعيد، كان الاقتناع السائد هو أن للتقدم الصناعي والتكنولوجي والعلمي ثمناً لا بد للمستهلك من أن يدفعه إذا كان يريد أن يستمتع بلا حدود بثمرات مجتمع الرفاهية والتخمة. وكان الرأي العام في المجتمعات الصناعية حتى عقدين من الزمن يقبل بدفع هذا الثمن طالما أن القسط الأكبر من هذه الفواتير ستدفعه الأجيال المقبلة. فما هي العوامل التي أسست مثل هذا الوعي البيئوي وجعلت المواطن أكثر تقبلاً لكل ما من شأنه أن يخفف من الآثار المدمرة للثورة الصناعية على البيئة؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من التعريف بهذه الآثار الناتجة عن هذه الثورة.

هناك على سبيل المثال التلوث بالرصاص نتيجة إضافة هذه المادة إلى العديد من التطبيقات الصناعية والمحروقات. ومثل هذا التلوث قديم قدم اكتشاف واستعمال هذه المادة. ولكن نسبته تضاعفت مئة مرة في القرن العشرين مقارنة بالحالة التي كانت سائدة في العصور اليونانية والرومانية... الفارق هو أن ضرر الرصاص على الصحة والطبيعة لم يعرف بشكل علمي إلا منذ عقود قليلة وكان لا بد من انتظار السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي لكي تتخذ الحكومات والشركات الصناعية في الغرب الإجراءات المناسبة للحد من استعماله سواء في الوقود أو في التطبيقات اليومية والمنزلية. وحتى هذه السنوات الأخيرة كانت بعض دول العالم الثالث تغض النظر -لأسباب اقتصادية قصيرة النظر- عن إضافة هذه المادة إلى وقود السيارات.

وخطر الرصاص على الصحة العامة كبير جداً إذ إن استنشاقه قد يؤدي إلى إضعاف الخصوبة، لا بل القضاء عليها، وإلى التسبب بإجهاضات مبكرة أو مفاجئة، وإلى التأثير في النظام العصبي وفي الوظائف الرئيسة للدماغ... ويمكن للجسم أن يتعرض لتأثيرات الرصاص عن طريق الماء الموزع عبر أقنية معدنية غير مصانة بشكل منتظم ودائم. ومن الآثار السلبية للصناعة الكيميائية في البيئة وبالتالي في الصحة العامة ما نراه بالنسبة إلى تكوّن طبقة الأوزون نتيجة الاستعمال المكثف لمواد الكلور والفليور والكربون المعروفة علميا بـ (Les chlorofluorocarbones CFC).

فعندما اكتشفت هذه المواد عام 1928م وصفت وقتئذ بأنها "اختراع كيميائي عجيب" لكونها، كما وصفت، "ثابتة، لا لون لها، غير سامة، قابلة للالتهاب وقليلة التكلفة". وقد استعملت على نطاق واسع كغازات مبردة وكمواد عازلة وفي الدهانات والأصباغ المركبة. وأجمع الصناعيون، ومن بعدهم الصحافة المتخصصة والشعبية، على اعتبارها مواد غير مضرة بالبيئة وبالصحة البشرية. ولكن مع مرور الزمن وبعد دراسات علمية معمقة بعيداً عن مصالح أصحاب المصانع الموزعة لهذه المواد تبين من دون لبس أن من شأن الاستعمال الصناعي المكثف لها أن يؤدي إلى تعديل تركز طبقة الأوزون وتوزعها في الطبقات الجوية العليا عامة وبشكل خاص إلى زيادة نسبة اختراق الأشعة فوق البنفسجية للطبقات الجوية المتوسطة والدنيا. ذلك أن مادة الكلور التي تتكون منها هذه المركبات CFC تعمل كمفاعل يحوّل الأوزون إلى أكسجين، ومعروف أن الأوزون يصبح ساماً عندما يتواجد فوق سطح الأرض في حين أن وجوده حيوي في الطبقات الجوية العليا لأنه يقي من الإشعاعات الشمسية.

ومن المضاعفات الوخيمة على الصحة والبيئة من جرّاء استعمال بعض المواد الكيميائية زيادة نسبة التلوث وارتفاع حرارة المناخ وما يؤدي ذلك إلى كوارث وفيضانات وانقراض بعض الأنواع الطبيعية والحيوانية والنباتية الضرورية لتوازن البيئة.

اسم جديد لمواجهة جديدة

إزاء هذه الأخطار الداهمة، كان لا بد للأسرة العلمية من أن تتحرك للبحث عن المضادات الواقية من هذه الأخطار. من هنا ولد مفهوم "الكيمياء الخضراء" وهي تعني "مجموعة المبادئ والتقنيات الهادفة إلى القضاء على (أو التقليل من) استعمال أو تكوّن المواد الخطرة والسامة في ابتكار المنتجات والسلع الكيميائية وإنتاجها واستعمالها".

ومن أجل وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، لم تكتف الدول الصناعية باتخاذ ترسانة متنوعة وزجرية من الإجراءات والقوانين للحيلولة دون استفحال التلوث الصناعي وحماية البيئة، بل عمدت أيضاً إلى توجيه الجامعات ومراكز البحث نحو إنشاء مختبرات جديدة متخصصة في هذا المجال وتكوين خبراء وعلماء في حقل الكيمياء الخضراء.

وينكب الباحثون في هذه المراكز على دراسة أفضل الطرق العلمية لاستنباط منتجات استهلاكية وتجهيزية رؤوفة بالبيئة. وتخضع جميع المنتجات المتداولة حالياً في المجتمعات الاستهلاكية لإعادة نظر ودراسة إلى حد التوقف نهائياً عن استعمال بعضها. وتبدأ هذه المنتجات بمواد التنظيف المنزلي وتنتهي بمستحضرات التجميل، مروراً بأنواع المحروقات والأغذية والأسمدة والدهانات والملونات... والقاعدة الأساس في إعادة المسح الشاملة هذه هي التفتيش عن كل المركبات الملوّثة والضارة تمهيداً للقضاء عليها، وإذا ما تعذر ذلك، تخفيف نتائجها.

وفي هذا الإطار، أجرى مرصد نوعية الهواء في فرنسا، وهو من المؤسسات التي أنشئت لمتابعة هذه الاستراتيجية الخضراء، دراسة معمقة للهواء المستنشق في عينة مؤلفة من ثمانين منزلاً وتسع مدارس فعثر على ثلاث مواد سامة: البنزين، وهي مادة سامة مسببة للسرطان، والتتراكلوروإتيلين والتريكلوروإيتيلين وهما أيضاً مادتان ضارتان بالصحة. وتبين للمرصد أن نسبة وجود هذه المواد المسممة داخل هذه المنازل والمدارس كانت أعلى بكثير من نسبة تواجدها في الهواء الطلق في الخارج. أما المسؤول عن ذلك فهو بعض مواد التنظيف المنزلية والديكور. فكيف التخلص من ذلك؟

لحسن الحظ، تمكنت مختبرات الكيمياء الخضراء من إيجاد الحلول العلمية والتكنولوجية الملائمة. ولكن العائق الرئيس أمام تصنيع المواد البديلة على صعيد واسع هو كلفتها العالية، على الأقل في المرحلة الحالية. ورغم ممانعة الصناعيين وترددهم في الانخراط في هذا الطريق الصعب والمكلف، فمن المؤكد أن لا خيار لهم غير ذلك خاصة وأن المستهلكين، بعد أن أدركوا حقهم المكتسب في بيئة نظيفة -على الأقل كما يضمنه لهم الدستور الأوروبي الجديد- باتوا لا يترددون في ملاحقة الصناعيين أمام المحاكم وإجبارهم على دفع تعويضات خيالية ثمن الأضرار التي ألحقوها ببيئتهم وبصحتهم. كذلك فإن الحكومات باتت هي الأخرى ميالة إلى التشدد في حماية البيئة والصحة العامة مهما ارتفع الثمن. وهذه عوامل أساسية ستدفع الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات إلى التخلي تدريجاً عن سياستها السابقة القائمة أولاً وأخيراً على الربح السريع.

تعدد الخيارات يدعم الوعد

الخيارات المتاحة أمام الكيمياء الخضراء كبيرة ومتنوعة. وبعكس الأفكار المسبقة التي روجت لها بعض الشركات الكيميائية الصناعية الكبرى، فإن أحد الحلول "النظيفة" هو في استعمال مركبات مشتقة من النفط أثبتت البحوث العلمية أنها أقل ضرراً بالطبيعة. وهناك أيضاً بشكل خاص الحلول النباتية.

وحول هذا الموضوع بالذات يقول جويل بارو، مدير مختبر الكيمياء العضوية في المركز القومي للبحوث العلمية في فرنسا: "سواء أتم اختيار النفط أو النباتات، فإن العناصر المستخلصة ستكون هي ذاتها والفارق الوحيد بينهما هو أن المنتجات المستخرجة من الزيوت النباتية هي أسرع ذوباناً وتلاشياً في الطبيعة". وهكذا فإن المختبرات بدأت تستعمل الزيوت النباتية المستخرجة من دوار الشمس والكولزا لإنتاج الكثير من المواد الكيماوية الأساسية مثل الأحماض والغليسيرول والأملاح والكحول الدسمة أو أملاح الأمونيوم... ومن المنتجات الاستهلاكية اليومية التي باتت تعتمد على هذه المشتقات الكيميائية النباتية معجون الأسنان ومساحيق التجميل والشامبو المخصص للأطفال. ومن التطبيقات المهمة للكيمياء الخضراء ما بات يعرف بالطاقة المستخرجة من النباتات. ولا تزال أوروبا والولايات المتحدة متخلفة نسبياً في إنتاج هذا النوع من الوقود الأخضر المستخرج من الكولزا ودوار الشمس. فعلى سبيل المثال فإن دولة زراعية كبرى مثل فرنسا لا تنتج سنوياً أكثر من 300,000 طن من هذا الوقود، أي ما يمثل 1 في المئة فقط من الغازويل المستهلك. ولكن الاتحاد الأوروبي أصدرمؤخراً توجيهاً برفع هذه النسبة تدريجاً لتشكل 5.75 في المئة مع حلول العام 2010م.

طبعاً لا يتسع المجال هنا لسبر اتجاهات هذا الفرع الواعد من الكيمياء ولا كل تطبيقاته العملية. إلا أنه من المؤكد أن العالم قد دخل منذ سنوات في ثورة علمية هادئة تهدف إلى إعادة تصحيح العلاقة بين الإنسان والطبيعة. ولعل أهم ما تركز عليه الكيمياء الخضراء هو دراسة التفاعلات الكيميائية التي من شأنها تنظيف البيئة من كل نفاياتها وملوثاتها من خلال ثلاثة محاور رئيسة: تطهير المياه الملوثة، منع التلوث الناتج عن احتراق الوقود في السيارات والمصانع، وأخيراً القضاء على كل أنواع الغازات السامة التي ترمي سمومها في الهواء والأجواء من دون وازع.

فالحفاظ على البيئة لم يعد مجرد حلم يخالج أنفس بعض المثاليين الذين فضلوا الفطرة على التقدم والتكنولوجيا. لقد أصبح قضية حياة أو موت بالنسبة للإنسانية جمعاء. بدليل أن هذه المسألة خرجت من مخيلة الشعراء لتدخل المختبرات والمصانع ومراكز صنع القرار الاقتصادي والسياسي. وإذا كان حلم الكيميائيين القدامى هو كيفية تحويل التراب إلى ذهب فإن هاجس الكيميائيين الخضر هو كيفية تحويل الذهب إلى تراب. أليست المليارات التي تضخ سنوياً ومن دون حساب في هذه المختبرات الخضراء المستقبلية الرامية لإعادة الطبيعة إلى طبيعتها هي الدليل على أن غريزة البقاء والاستمرار تظل، في النهاية، أقوى من كل غرائز التدمير الذاتي؟

المحترف السعودي م.ف.

1 التلوّث داخل السيارة

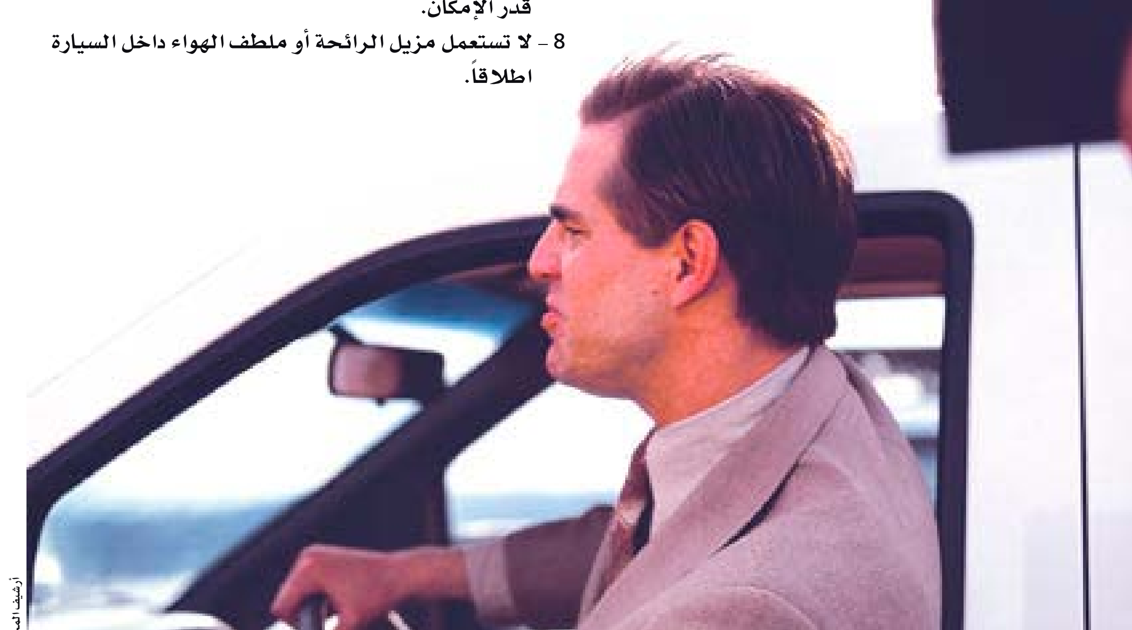
أيهما أفضل: فتح نوافذ السيارة أم إغلاقها؟ وما هو مستوى التلوّث في الحالتين؟

مقارنة بالماضي فإن السيارة الحديثة بحد ذاتها أقل تلوثاً من السيارة القديمة لأسباب عديدة تتعلق بتحسين صناعة السيارات. أما الآن فالازدحام أكثر والشاحنات الكبيرة أكثر والناس يركبون السيارات بكثافة أكثر في تنقلاتهم على مدار الساعة.

على الرغم من كل ذلك فإن الكثيرين لا يعلمون أن التلوّث داخل السيارة هو أعلى منه خارجها. التلوّث الخارجي يدخل إلى السيارة ويُحدث إعادة انتشار لتمتص السيارة نصف كمية التلوّث الصادرة من السيارات التي أمامها. وبعد دراسة أجراها مجلس مختص في كاليفورنيا بالولايات المتحدة تبيّن أن مستوى التلوّث داخل السيارة هو عشرة أضعاف التلوث في أية محطة ثابتة على الطريق. وأظهرت دراسة أجرتها مؤسسة أخرى أن التلوّث داخل السيارات ارتفع إلى مستويات غير صحية. والمواد المضرّة والصادرة من منفثات (Exhausts) المازوت تحتوي على مادة Formaldehyde وهي تؤدي إلى أمراض سرطانية ومادة أول أوكسيد الكربون التي تعيق انتقال الأوكسجين بواسطة الدم، ومادة أوكسيد النيترات المسببة للموت بكميات معينة. ويكون تأثير هذه المواد أكبر عند الذين يعانون أمراضاً في التنفّس أو القلب. وتسبب الربو عند الأصحاء وأمراضاً أخرى مثل النعاس والتقيّؤ وأوجاع الرأس. كما أن بعض الملوثات تأتي من سجاد السيارات، الفينيل، الجلد ومخدات الرغوة.

وتبين بعض الدراسات أن إغلاق النوافذ أو فتحها يمكن أن يزيد من التلوّث أحياناً أو يخفف منه حسب الحالة. ولكن لتخفيف التلوّث داخل السيارة يمكن اتباع الآتي:

1 – لا تدخن داخل السيارة ولا تدع أحداً يدخن.
2 – ابتعد قدر الإمكان عن المركبة التي أمامك.
3 – يجب صيانة السيارة دائماً، فالسيارة غير المصانة تُدخل التلوّث داخلها أكثر بكثير من غيرها.
4 – إذا كان عندك أكثر من خيار، اتخذ الطريق الأقل ازدحاماً أو تجنب ساعات الازدحام.
5 – لا تعتمد على المكيفات المتنوعة داخل السيارة، فبعض الشركات تروج لمكيفات تعتمد على فيلترات الكاربون المانعة لغبار الطلع أو اللقاحات التي تسبب الحساسية، لكنها لا تمنع أبداً الملوثات الأخرى.
7 – احذر رائحة السيارة الجديدة، هناك بعض الناس يحبون ذلك لكن ذلك خطير خاصة رائحة الفينيل والسجاد. وعند ذلك يجب ترك نوافذ السيارة مفتوحة لمدة شهرين قدر الإمكان.
8 – لا تستعمل مزيل الرائحة أو ملطف الهواء داخل السيارة اطلاقاً.



2 لماذا يتساقط الشعر

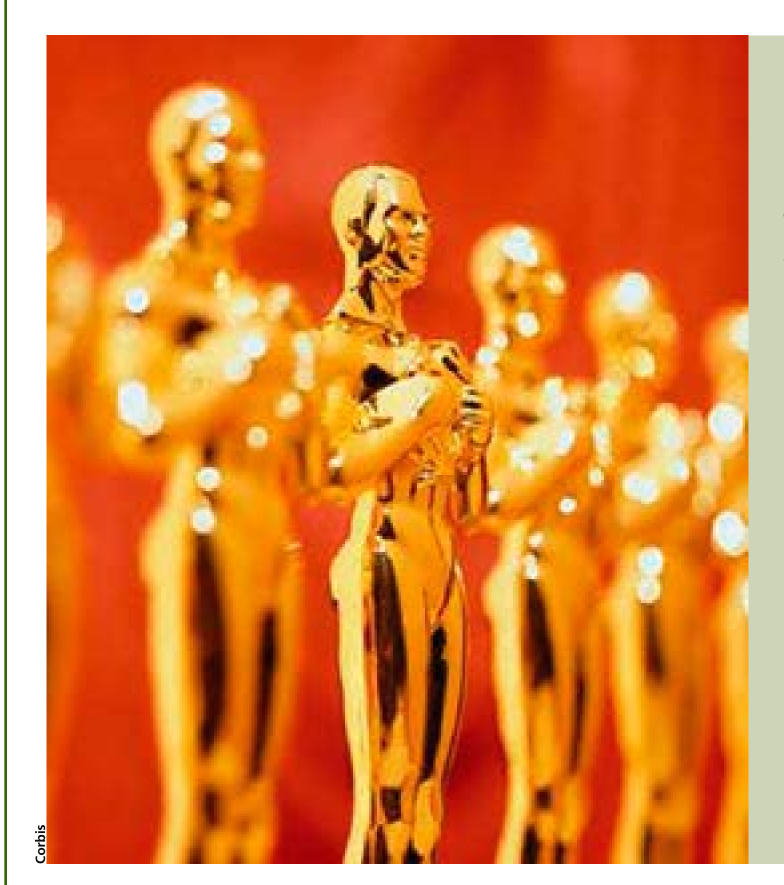

Corbis

يبلغ متوسط عمر الشعرة في رأس الإنسان نحو ست سنوات. ويفقد البالغ مابين 30 و 100 شعرة يومياً من دون أن يعني ذلك أنه يتجه نحو الصلع، لأن الأمر يتعلق بالشعرات التي انتهى عمرها، وتحل محلها شعرات جديدة تنبت من جذور جديدة. ففروة الرأس تتألف من نحو 120000 شعرة تتجدد باستمرار بحيث تحافظ على هذا العدد. وتمر كل شعرة بثلاث مراحل متتالية هي: النمو ، وتتكاثر خلاله خلايا البصلة وتدفع بالشعرة خارج الجلد بمعدل 0.3 ملم يومياً، أي نحو سنتيمتر واحد في الشهر. بعد ذلك تأتي مرحلة التراجع وفيها تتوقف خلايا البصلة عن التكاثر، ويتوقف نمو الشعرة بدوره. وأخيراً تأتي مرحلة "السكينة" وفيها تصبح الشعرة غير مرتبطة بالبصلة، وشد الشعرة أو احتكاكها بأي شيء يكفي لاقتلاعها. وعلى عكس الانطباع الذي توحي به الإعلانات التجارية لأنواع الشامبو، فإن الشعرة بحد ذاتها جسم ميت، إذ تتألف من الكيراتين "المادة نفسها التي تتألف منها الأظافر" ومن الميلامين المسؤول عن لون الشعر. ونمو الشعر هو الجانب المرئي لتكاثر الخلايا الحية على مستوى الجذور تحت الجلد.

أما العوامل المؤدية إلى الصلع بعد سن معينة فتتراوح ما بين نظام التغذية، التوتر العصبي والقلق، الحساسية تجاه بعض أنواع الأدوية، مستوى الهورمونات في الجسم وما إلى ذلك. أما تساقط الشعر بشكل ملحوظ أكثر خلال فصل الخريف، فأمر لم يفسره العلم بعد. والتفسيرات المتوافرة في هذا المجال (مثل مستوى الأشعة ما فوق البنفسجية، أو حساسية الخلايا تجاه تقلبات الفصول) لم تتمكن من إثبات صحتها حتى الآن.

3 الذهب.. كثيره يبقى قليلاً

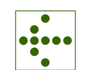
لو جمعنا كل ذهب العالم الذي تم استخراجه خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة من عمر الإنسانية، وصهرناه في قطعة واحدة لحصلنا على مكعب يبلغ طول ضلعه 19 متراً فقط، ووزنه نحو 150000 طن، أي أقل مما ينتجه العالم من الحديد خلال ساعة واحدة.
ومن أصل هذه الكمية لا يزال في حوزة الإنسانية نحو 120 ألف طن، وضاع الباقي في غياهب الزمن وباطن الأرض.. كما أن 80 في المئة من الذهب المتوافر في العالم حالياً تم استخراجه ما بعد العام 1848م، تاريخ اكتشاف المناجم الأولى في كاليفورنيا.
وفي العام 2003م بلغ إنتاج الذهب المستخرج من نحو 900 منجم في العالم 2593 طناً، أي ما يكفي لسد 80 في المئة من الطلب العالمي. في حين أن تدوير الحلي القديمة، وطرح الحكومات لكميات من الذهب في السوق يسدان النسبة الباقية من الطلب.
وتشير مصادر "مجلس الذهب العالمي" أنه في نهاية العام 2003م، كان هناك 28,554 طناً في خزنات المصارف المركزية والمؤسسات المالية الدولية. في حين يتبعثر نحو مئة ألف طن في أنحاء العالم على شكل حلي وسبائك وميداليات وعملات وتحف فنية.
وتأتي الولايات المتحدة الأمريكية في طليعة مخزني الذهب (8135 طناً)، ثم ألمانيا (3440 طناً)، وصندوق النقد الدولي (3217 طناً)، ثم فرنسا (3025 طناً).


Corbis

هل سيتعثر حوار العرب بلغتهم الأم حول العلوم الحديثة، حتى بعد تعريب المصطلحات العلمية الجديدة؟ السؤال يبدو وكأنه يتضمن بعض المبالغة، لكن العاملين في الميادين العلمية بدأوا يلحظون بعض الصعوبات في التفاهم فيما بينهم عندما يكون موضوع الحديث علمياً أو تقنياً جديداً. وقد تصل هذه الصعوبات إلى حد الاعتماد على التحليل والتكهن لمعرفة المقصود بهذا المصطلح أو ذاك، إذ إن تعريبه غالباً ما يكون مختلفاً بين بلد عربي وآخر.

الكاتب والمترجم الجزائري عبدالحفيظ جباري يعرض واقع المصطلحات العلمية كما تم تعريبها ويكشف ضآلة ما تم تحقيقه على صعيد توحيدها.

تعريب المصطلحات العلمية
الأسماء كثيرة والمقصود واحد



منذ أن نُظّم أول مؤتمرات التعريب ووضع المصطلحات، نودي بتوحيد المصطلحات في مختلف المجالات المعرفية في اللغة العربية، حفاظاً على وحدة لغتنا، وكي لا تتحلل إلى مجموعة لغات مختلفة. وفي إطار السعي إلى هذا الهدف، تم إنشاء "مكتب تنسيق التعريب" في الرباط بالمغرب، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إيذاناً بطرق مرحلة توحيد المصطلحات العربية وانتهاء فوضى المصطلحات والمترادفات.

وعلى الرغم مما بذلته وتبذله هذه المؤسسة التنسيقية من جهود لبلوغ مراميها، فإن الواقع يكشف لنا بمرارة أن المشكلة لا تزال مستفحلة، ولا نبالغ إذا قلنا إن حدتها قد زادت في السنوات الأخيرة.

فبالبحث والتقصي يقف المرء أمام كثرة مذهلة من المصطلحات العربية المختلفة في شتّى الميادين العلمية. والأمر صار ظاهرة مثيرة لقلق أهل العربية والغيارى عليها، خاصة وأن اللغة العلمية تمتاز، كما هو معلوم، بدقة مفرداتها الاصطلاحية، ولا تقبل لبساً أو تشوشاً، مثلما هو الحال، بوجه عام، في مصطلحات العلوم باللغتين الإنجليزية والفرنسية، الأكثر استخداماً في الأقطار العربية.

التعريب قطرياً

وتوكيداً لصحة ملاحظتنا هذه، نكتفي هنا بذكر عينة من هذه الفوضى في المصطلحات؛ لأنها من الكثرة بحيث يصعب حصرها في مقالة واحدة.

"Computer Science" "Informatique"
يقابلها في لغتنا العربية:
الإعلام الآلي، المعلوماتية (الجزائر)، الإعلامية (تونس)، المعلوميات (المغرب)، الإعلاميات، الإعلاماتية، علم الحاسب، علم الحاسب الآلي، علم الحاسبات، علم الحاسوب، علم الكمبيوتر.

ولنا ملاحظة في هذا المقام، هي أن هذه الألفاظ بعضها مترجم عن اللغة الفرنسية وبعضها الآخر مترجم عن اللغة الإنجليزية.

"Computer" "Ordinateur"
حاسوب، حاسب، حاسب آلي، رتّابة، منظام، منظمة، كمبيوتر.

"Server" "Serveur"
ملقم، مزود، خادم، مخدام.

"Software" "Logiciel"
برمجية، برامجية، منطاقية، برنامج.

"Virtual Reality" "Réalité Virtuelle"
الواقع الافتراضي، الواقع المتخيّل، الواقع الكامن، الواقع الظاهري، الواقع شبه الحقيقي (اقترحه د. نضال قسوم، الجزائر).

"Pendulum" "Pendule"
بندول (مصر)، رقّاص (العراق)، نوّاس (سوريا)، خطّار (الأردن).

"Linguistics" "Linguistique"
علم اللغة، علم اللغة العام، علم اللسانية، اللسانية، اللسانيات، اللغويات، الألسنية... وجاء في "قاموس اللسانيات" للأستاذ عبدالسلام المسدي أن هذا المصطلح نُقل إلى العربية بـ 23 مصطلحاً!؟

"Privatization" "Privatisation"
التمليك، الخوصصة، الخصخصة، التخصيص، التخصيصية، الخوصنة، الأهلية، التفويت، التفريد.

"Acoustics" "Acoustique"
علم السمعيات، علم الصوت، علم الصوتيات.

"Allergology" "Allergologic"
طب أمراض الاستهداف، علم الاستهداف، علم الأرجية (سهيل إدريس وجبور عبدالنور في "المنهل").

"Archaeology" "Archéologic"
علم الآثار، علم القديم، علم الأثريات، علم العاديات، علم الآثار القديمة، علم الوثائق القديمة، أركيولوجيا.

"Biology" "Biologic"
علم الحياة، علم الأحياء، علم الحي، البيولوجيا.

"Ecology" "Ecologic"
علم البيئة، علم التبيؤ، علم المحيط، إيكولوجيا.

"Ergonomics" "Ergonomie"
علم تنظيم الشغل، علم توثيق العمل، شِغالة، أرغونوميا.

"Geogeny" "Géogénie"
علم تكوّن الأرض، علم نشأة الأرض، علم أصل الأرض.

"Geriatrics" "Gériatrie"
طب المُسنّين، طب الشيوخ، طب العجزة.

"Prefixes" "Préfixes"
"Suffixes" "Suffixes"
الصدور، اللواحق/الصدور، الكواسع/السوابق، اللواحق/البادئات، اللاحقات.

"Jargon" "Jargon"
رطانة، ملاحنة، لُغيّة، لهجة خاصة، لهجة عاميّة.

"Microphone" "Microphone"
صَيِّت، مجهار، مهتاف، هاتوف (أكرم محمود قنص: المسميات الأجنبية تخترق الحياة العربية، مجلة الفيصل العدد 278)، زُعاق (اقترحه اللبناني كرم ملحم كرم).

"Telephone" "Téléphone"
تلفون، هاتف، مسرة، مقول، إرزيز، سماعة كبريت، سماعة حديث بالسلك، آلة تكلم عن بعد، آلة متكلمة، تلغراف ناطق (الحمزاوي، محمد رشاد، "المعجم العربي إشكالات ومقاربات"، تونس).

"Semantics" "Sémantique"
علم الدلالة، علم المعاني، الدلالية، السيمية، علم السيمانتيك.

"Semasiology" "Sémasiologie"
علم الدلالة، علم المعاني، الدّالية، علم السيماسيولوجيا.

"Semiology" "Sémiologie"
علم الرموز، العلامية، علم العلاقات، الساميولوجيا.

"Semiotics" "Sémiotique"
علم الرموز، السيميائية، السيميوتية.

"Television" "Télévision"
تلفزيون، تلفزة، تلفاز، مِرناء (أكرم محمود قنص، المرجع السابق).

"Mobile" "Téléphone Portable"
الهاتف الجوال، الهاتف المحمول، الهاتف النقّال، الهاتف الخليوي، الموبايل.

"Class Room" "Classe d'Ecole"
صف (العراق)، فصل (مصر)، قسم (الجزائر/ تونس/ المغرب)

وغني عن القول إن المصطلح العلمي، خاصة، لا بد أن يُرصد لمفهوم واحد. وإن وضعاً سمته تعدد الألفاظ مقابل مفهوم واحد، يعني وجود اضطراب في اللغة يقود حتماً إلى تشوش في نظامها المفاهيمي، ولا أقصد هنا في ذاتها وكيانها.

ومن الحالات الجادة والجديدة، نذكر ما وضعه الدكتور محمد رشاد الحمزاوي من مقاربة لسانية إحصائية تهتم خصوصاً باللغة العلمية في كتابه "المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها (دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م). ولقد طُبقت هذه الطريقة على مشروع ترجمة مصطلحات الاتصالات والفضاء إلى اللغة العربية في منظمة الأمم المتحدة في معجم مصطلحات الاتصالات (عربي، إنجليزي، فرنسي، إسباني) صدر عن الاتحاد الدولي للاتصالات في العام 1987م بجنيف (سويسرا). وما دامت هذه الطريقة قد اعتمدت، بعد أن ثبت جدواها، على صعيد الأمم المتحدة (مستوى دولي)، يجدر بنا أن نوسعها إلى مجالات علمية أخرى، لوضع معجمات منمَّطة على مستوى محلي وإقليمي.

دور المجاميع اللغوية

العاملون في حقول الترجمة والبحث العلمي هم أول المصطدمين بالفوضى الحاصلة في حقل تعريب المصطلحات العلمية. ولهؤلاء مجموعة ملاحظات مشتركة، أهمها ما يأتي:

- عمل المجاميع اللغوية العربية وغيرها من الهيئات اللغوية عظيم ويستحق الثناء والشكر. ولكن المأخذ على هذه الجهود هو أن ثمارها تبقى بعيدة عمّن يفترض بها أن تتوجه إليه. فغالباً ما نسمع أن هذه المجامع أصدرت معاجم تضم مصطلحات موحدة في حقل علمي. غير أن المؤسف هو أن هذه المعاجم لا توزع بما يكفي لوصولها إلى أيدي كل المعنيين من باحثين ومترجمين وكتّاب علميين. فهي بعيدة المنال وغير متوافرة في المكتبات. ولو أنها كانت تصل فعلاً إلى أي مترجم أو باحث لوجد نفسه مضطراً إلى اعتمادها على أوسع نطاق.

معظم معلومات التعريب لا تصل إلى مستخدميها إلا متأخرة..

- ثمة سمة التصقت بعمل المجامع اللغوية العربية فلازمتها، وهي أنها تصدر "توصيات" ليتم العمل بها بما تراه مناسباً لتطوير اللغة العربية. ولكن ما يؤسف له هو أن هذه المجامع لا تملك السلطة والقدرة اللازمتين لإنفاذها.
- محدودية الموارد المالية المتوافرة لدى المجامع اللغوية تحدّ من جهودها. ولا بد من تدعيم قدراتها في هذا المجال بشكل يسمح لها بطبع ما يكفي من المعاجم الموحدة وتوزيعها على المؤسسات والأفراد المعنيين بها مجاناً.
- من المستحسن أن تفتح المجامع اللغوية أبوابها لكل من يقدم مقترحاً أو مقترحات يحاول من خلالها خدمة اللغة العربية، حتى ولو لم يكن اسمه مسبوقاً بتميز أكاديمي أو درجة أكاديمية. لأنه قد تتحقق أحياناً مقولة: "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر". وهذا منهج يمكّن الهيئات اللغوية من المتابعة والتحكم - قدر المستطاع - في كل ما يستحدث من ألفاظ خارج أطرها. فيتسنى للمجامع اللغوية أن تجمع على مستواها كل المفردات المستحدثة، فتعتمد ما تراه مناسباً، وتستبعد ما لا يلائم.
- على المجامع اللغوية التي تتوصل إلى توحيد المصطلحات في مجال معين، أن تبادر إلى تضمين هذه الاصطلاحات في مطبوعة أو نشرة، توزعها على خاصة الناس وعامتهم من المستعملين. كأن تصدر معجماً صغير الحجم يضم المفردات المتداولة في قطاع المؤسسات والهيئات الإدارية انطلاقاً من تسمية أبسط الأدوات المستخدمة في العمل الإداري اليومي (دبّاسة، نشابة،....) ومروراً بعملية جرد الوسائل والتجهيزات المزودة بها، ووصولاً إلى أدق المسائل المرتبطة بالمفاهيم والإجراءات والترتيبات والتدابير القانونية والتنظيمية والإدارية. على أن يتم "تَأوين" (مُحَايَنَة) هذه المراجع عند الاقتضاء مواكبة للتطور، وأن يبعث بها إلى مختلف المؤسسات والإدارات في الوطن العربي.
- الانتباه إلى دور وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية أمر بالغ الأهمية في هذا المجال. فهذه الوسائط الإعلامية تحقق بالتأكيد التداول والانتشار الواسعين لهذه الاصطلاحات.
- باتت الشبكة العالمية (الإنترنت) وسيلة اتصال ناجعة وفاعلة، تيسّر السعي إلى توحيد المصطلحات. وهذه سانحة يحسن بنا ألا نفوتها لخدمة اللغة العربية، بأن نمكّن أهل الاختصاص وغيرهم من عامة الناس من الاستفادة من المعاجم التي تحوي مصطلحات موحدة التي من الممكن توافرها على الشبكة العالمية. بحيث يكون المحتوى غير قابل للتبديل والتغيير مثلما اقترح ذلك أحد الباحثين. وبهذ نضمن الانتشار الواسع لمصطلحاتنا الجديدة الموحدة والمتفق عليها.

إن استفحال ظاهرة الترادف يرجع جانب كبير منه إلى أن المستعمل (المترجم، الباحث، الإعلامي...) عندما تعوزه المعاجم، فلا تسعفه بما يلزمه، ولا يتاح له الوصول إلى المصطلح الذي أقرته الهيئات اللغوية المتخصصة، فإنه يلجأ "مضطراً" (ولا يعني هذا أننا نسوّغ مثل هذا المسعى) إلى اعتماد مصطلح متداول (قد يكون مخالفاً لسنن العربية)، أو ابتكار لفظة أخرى - ربما وفق أساليب اللغة العربية إن كانت له دراية بها، أو بأسلوب الجاهل بقواعدها - وهنا تكمن الكارثة - ملتزماً المقولة الشائعة: "خطأ شائع خير من صواب مهجور" (بل قل مجهول). ومن هنا تكثر المرادفات في لغتنا مقابل المصطلح الواحد في اللغة الأجنبية سواء أكانت الإنجليزية أو الفرنسية.

ختاماً لا بد من إشارة إلى عامل الوقت ودوره في مسيرة توحيد المصطلحات العلمية المعربة. فكلما تأخرت عملية التوحيد هذه كلما أصبحت أكثر صعوبة. لأن المترادفات المختلفة تترسخ بمرور الوقت أكثر فأكثر في وجدان مستخدميها، وتصبح لاحقاً جزءاً من النسيج اللغوي الشائع على ألسنتهم. فإذا كان مقدراً لتوحيد هذه المصطلحات أن ينجح، فلا بد من أن يبدأ العمل عليه باكراً.. باكراً جداً، قبل أن يعتاد الناس على الخطأ فيصبح شائعاً وخيراً من صحيح مهجور.

قصة ابتكار

عود الثقاب

ابتكار صغير الحجم ذو تكلفة باهظة في الأرواح

صغير في حجمه ومتواضع في اللهب الناجم عن اشتعاله، إلا أن ابتكار عود الثقاب كلّف الكثير من الأرواح خلال مراحل تطويره التي استمرت لقرنين ونصف من الزمن، ناهيك عن ضحايا الحرائق الناجمة عن سوء استعماله.

بدأ التفكير في إنتاج أعواد مشتعلة بعيد اكتشاف الفوسفور عام 1680م على يد روبرت بويل. ولكن عود الثقاب كما نعرفه لم يظهر في أول أشكاله إلا عام 1827م على يد الصيدلي البريطاني جون ووكر الذي أنتج أعواداً طول الواحد منها نحو 8 سنتمترات، ومغطاة عند طرفها بمادة كبريتيد الإثمد وكلورات البوتاس والصمغ. ويشتعل هذا النوع من الأعواد عند حكه على ورق رملي خشن يشبه ورق الصقل، ليصدر عنه لهب وشرارات تتناثر أينما كان من حوله.

بعد ذلك بسنوات قليلة نجح الفرنسي شارل ساوريا، وهو طالب كيمياء، في إنتاج أول عود ثقاب يشتعل بمجرد احتكاكه بأي سطح؛ لأن رأسه مغطى بالفوسفور. وبسرعة وصل هذا الابتكار إلى أمريكا حيث سجله الترو دي فيليبس عام 1836م، وراح ينتج أعواد الثقاب يدوياً ويبيعها من خلال تجواله على المنازل والأسواق.

وهنا وقعت الكارثة.

لم يعلم المستهلكون الأوائل ولا فيليبس نفسه بأن الأبخرة الناتجة عن احتراق الفوسفور بالغة الخطورة؛ إذ تؤدي إلى مرض النخر (أي تحلل عظام الفك، ومن ثم الموت). توفي الكثيرون، وغالبيتهم من العمال نتيجة تعرضهم للغازات الفوسفورية.. واستمرت الأزمة حتى العام 1910م عندما فرضت الحكومة الأمريكية ضرائب باهظة على أعواد الثقاب الفوسفورية، مما كاد يودي بهذه الصناعة إلى التوقف والانقراض.

ولكن بموازاة هذا العود السام، كان هناك اختراع وتطوير لأعواد ثقاب الأمان التي اكتشفها السويدي غوستاف إي باش عام 1844م. وفي هذا النوع يتشكل رأس العود من كلورات البوتاس التي تشتعل عند احتكاكها بسطح ذي طبيعة محددة يوضع عادة على جانب صندوق الأعواد، ويحتوي هذا السطح على مركبات الفوسفور والرمل. وطوّر المحامي الأمريكي جوسيا بيوزي هذا الابتكار بصناعة العود نفسه من الورق المقوّى بالشمع بدلاً من الخشب عام 1892م. ولكن الأعواد الورقية لم تلق رواجاً حتى الحرب العالمية الأولى.

تركزت صناعة عود الثقاب في السويد لسنوات عديدة، بعدما أسس إيفر كريجر "شركة أعواد الثقاب السويدية" التي نمت حتى أنشأت مصانع لها في نحو 40 دولة. ولكن الأزمة الاقتصادية عام 1929م، دفعت بكريجر إلى الانتحار. واحتاجت الشركة إلى بضع سنوات لتقوم من كبوتها، وتعيد سيطرتها على "صناعة اللهب الصغير" في العالم. صناعة عانت منافسة خطرة من ولاّعة الغاز بدءاً من منتصف القرن العشرين، ولكنها ما زالت قائمة ونشطة بما يكفي.

قصة مبتكر

جون هاريسون

الرجل الذي عمل 45 سنة متواصلة على ابتكار واحد



هو مصمم ساعات إنجليزي ابتكر أول ساعة بحرية في العالم تسمح للسفن المبحرة في المحيطات من تحديد مواقعها بدقة من خطوط الطول. الأمر الذي شكّل تعزيزاً لا مثيل له لسيادة بريطانيا على البحار.

ولد جون هاريسون في مارس من العام 1693م، لأب يعمل في صناعة المفروشات. واضطر جون الصغير إلى تعلّم الحرفة نفسها عن والده غير أن ولعه بصناعة الساعات جعله ينصرف إلى العمل في تصليحها في أوقات الفراغ، ومن ثم كمصمم ومبتكر لطرازات مختلفة.

في ذلك العصر، كانت السفن تفتقد القدرة على تحديد مواقعها بدقة في المحيطات، وتعتمد في ذلك على تقديرات الربابنة. وقد فشل كل من غاليليو ونيوتن في ابتكار وسيلة لتحديد المواقع من خطوط الطول؛ لأن اهتمامهم تركز على الاستدلال بالقمر ومواقع النجوم.

في العام 1728م، أعلنت جمعية علماء الفلك في بريطانيا عن "جائزة خطوط الطول" وقيمتها 20,000 جنيه لمن يستطيع وضع نظام أو جهاز يسمح للسفن بتحديد مواقعها خلال الإبحار. وعلى الفور بدأ هاريسون العمل.

وضع أولاً رسوم مشروعه وحملها إلى جورج غراهام أشهر صانعي الساعات في بريطانيا طلباً لدعمه، فحظي ببعض التمويل. وبعد سبع سنوات، وضع جهازه الأول المسمى "هاريسون رقم 1" أو "H1".

لم يكن الجهاز دقيقاً تماماً، ولكنه شجع القائمين على الجائزة على منح المبتكر 500 جنيه لتطويره. وبعد ثلاث سنوات، أكمل هاريسون بناء "H2"، ولكن الحرب البريطانية الإسبانية اضطرته إلى إبطاء مشروعه لأن الابتكار كان على قدر من الأهمية لا يسمح بوقوعه في أيدي الإسبان، فاستغل هاريسون هذا الوقت لوضع الصيغة الثالثة من الجهاز "H3"، التي لم تعجبه لعدم دقتها. فانصرف إلى وضع الصيغة الرابعة "H4".

استغرقت صناعة الجهاز "H4" نحو 13 سنة إضافية. وأصبح هاريسون في الثامنة والستين من العمر. وجُرِّب هذا الجهاز عام 1761م في رحلة إلى بربادوس وكان مقدار الخطأ ميلين فقط. واعتبر نجاحه ضربة حظ. ورفضت لجنة الجائزة دفع القيمة الكاملة، وعرضت تسوية تقضي بدفع ربع الجائزة فقط، فرفض هاريسون، وأعاد تجربة الجهاز في رحلة أخرى إلى بريدجتاون، فنجحت. ولكن اللجنة عرضت هذه المرة دفع نصف الجائزة فقط؛ لأن التلاعب السياسي بجهود هذا المبتكر كان أقوى منه.

انصرف هاريسون إلى تصميم الصيغة الخامسة من الجهاز، ولكنه بعد سنوات ثلاث من العمل، تعب وانهار. فنقل شكواه إلى الملك جورج الثالث الذي جرّب الجهاز "H4" في قصره، وبعد عشرة أيام، تأكد الملك من دقته، فضغط على البرلمان لكي يوفي المبتكر حقه، ويدفع له قيمة الجائزة كاملة. الأمر الذي حصل عام 1773م أي قبل سنوات ثلاث من وفاة هذا المبتكر. وظل الجهاز نفسه الذي لا يزيد حجمه على حجم ساعة جيب كبيرة قيد الاستعمال من قبل كل بحّارة العالم حتى القرن العشرين. 

اطلب العلم

العودة إلى القمر.. رهان خاسر

عندما كان الرئيس الأمريكي جورج بوش في خضم معركته الانتخابية الأخيرة أطلق ما سمّاه "رؤية لاستكشاف الفضاء"، واعداً من خلال ذلك باستئناف الرحلات المأهولة إلى القمر، وبناء محطة قمرية يعيش عليها الإنسان ويعمل.

وجاءت موازنة وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" للعام الجاري بزيادة 6 في المئة عما كانت عليه في العام الماضي؛ لتعطي دفعاً باتجاه الصدقية لمشروع يفتقر إليها. ولكن التأمل في تفاصيل هذا الوعد يؤكد أنه لم يعد قابلاً للتحقق بالسهولة التي تحقق بها وعد جون كنيدي.

فوكالة الفضاء الأمريكية تملك اليوم برنامجاً واضحاً إلى حد معقول، يقوم أولاً على إعادة تشغيل المكوكات الفضائية الثلاثة الباقية عندها بعد سنتين من التوقف. ومن ثم إكمال بناء المحطة الفضائية لإنقاذ ماء الوجه أمام شركائها في المشروع. فأوروبا استثمرت 3.5 بليون يورو في هذا المشروع، ولا تزال العربة "كولومبوس" التي بنتها لهذه المحطة قابعة في أحد مستودعات الناسا بانتظار استئناف رحلات المكوك الأمريكي. وباكتمال بناء المحطة الفضائية المتوقعة في العام 2010م، تكون المكوكات الثلاثة قد أنهت مهماتها وعمرها أيضاً.. ويمكن عندها لناسا أن تبدأ بإعداد العدة لإرسال إنسان إلى القمر مجدداً. ولكن الرئيس بوش يكون قد أنهى ولايته أيضاً، وسيكون المشروع بين أيدي أصحاب قرار مختلفين من علماء واقتصاديين.

يقول العلماء إن السباق إلى القمر في الستينيات جاء تحت ضغط الحرب الباردة. وتضمنت الرحلات الفضائية مخاطر لم تعد مقبولة اليوم (انفجار أبولو 1 وفشل أبولو 13)، خاصة بعد انفجار مكوكين فضائيين. وبالتالي فإن الرحلات القمرية تستوجب إعادة بناء كل شيء واختراع كل شيء انطلاقاً من الصفر تقريباً. بما في ذلك الصواريخ القادرة على هذه الرحلات (مثل ساتورن 5) إذ إن أكبر الصواريخ المتوافرة حالياً لا تحمل أكثر من 20 طناً إلى مدار يبعد 400 كيلومتر عن الأرض، في حين أن القمر هو أبعد من ذلك بألف مرة.

ولو سلمنا جدلاً بأن التقنية ليست عائقاً للعودة إلى القمر، فإن هذا البرنامج يكلف بحسابات اليوم 100 بليون دولار.. لا يبدو أي مبلغ منها متوافر في الأفق.

إلى ذلك يرى العلماء ومن ضمنهم 45 ألف باحث في "جمعية الفيزياء الأمريكية" أنه لا يوجد سبب واحد يدفع إلى إرسال إنسان إلى سطح القمر. فعربات الرصد والرجال الآليين يستطيعون القيام بكل ما كان مطلوباً من الإنسان في الستينيات من القرن الماضي. وبدلاً من 100 بليون دولار لإرسال إنسان، يمكن إرسال عربة آلية إلى القمر أو المريخ، كما حصل مؤخراً، بتكلفة لا تتجاوز 300 مليون دولار.. كما أن القمر ليس ضرورياً بوصفه محطة في الرحلات إلى المريخ.

فما بين العائق التقني والتكلفة المالية العملاقة، وضعف القيمة العلمية، يمكن القول إن من الصعب أن ينجو هذا المشروع من براثن السياسيين وأصحاب القرار المتعاقبين لمدة خمس عشرة سنة مقبلة.

أما التفاؤل الذي تبديه وكالة الفضاء الأمريكية، فيعلق عليه جورج كيوورث المستشار العلمي للرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان بالقول: "إن كل الوكالات الحكومية تكذب من حين إلى آخر. الناسا وحدها تكذب طوال الوقت"..!!

عبود عطية

الملف المصور




منال الضويان

بدأت رحلتها مع الكاميرا قبل أربع سنوات فدرست التصوير الصحافي ما بين العامين 2002 و 2004م في لندن، وتابعت دورات تصوير في دبي والظهران. شاركت في معارض عديدة في الظهران ولندن وبورغوس (إسبانيا) وصولاً إلى "المتحف العالمي للمرأة" في سان فرانسيسكو، وهيئة الأمم المتحدة في نيويورك التي تبنت إحدى صورها لمناسبة انعقاد الدورة التاسعة والأربعين لمفوضية شؤون المرأة في العالم. وهي اليوم عضو في جمعية المصورين في "بيت الطالب العالمي" في لندن، و"نادي الكاميرا" في أرامكو السعودية حيث تعمل.

هذا مركبك..
تتركه وترحل بعيداً..





التكرار التكرار..التكرار تأكيد
أصابع يد أو أصابع بطاطس.. و الرفقة خير من الوحدة



أما هو.. كالدراجة والزهرة والشرشف المعلق
في الهواء.. ينضم إلى زملاء ويصبحون كثر..



انقــلاب السـيراميك

المهندس: شجاع المصلح*

قد تكون أكثر جمالاً وجاذبية وأقرب إلى البساطة لمن يفضلون البساطة، ولكنّ انتشار أرضيات الرخام والسيراميك والبورسلان في بيوتنا، لم يأت لهذه الأسباب الشكلية فحسب، وإنما هروباً من أرضيات السجاد والموكيت التي راحت مشكلاتها وأضرارها الصحية تتزايد مع كل خطوة نخطوها عليها.

ولا شك في أن لهذا الهروب آثاراً في صناعة السجاد والأثاث عموماً، إذ إن عزوف الناس عن استخدام الأنسجة في أرضيات منازلهم أحدث ما يشبه الانقلاب في الاستخدام، وعمد الكثيرون إلى استبدال "البلاط" بالرخام أو السيراميك أو البورسلان، والاستغناء به عن أرضيات السجاد، والاكتفاء بقطع صغيرة منه تنسجم وديكور المنزل فحسب.

ولم يقتصر الأمر على أصحاب المنازل، بل إن المدهش في الأمر هو أن مستأجرين تحمّلوا تكاليف هذا الاستبدال هرباً من الموكيت. ناهيك عن أن الأرضيات الجديدة صارت ضمن مواصفات الشقق الاستثمارية التي تحرّك أسعار الإيجار صعوداً أو نزولاً تبعاً لنوع الأرضية..!

ومن الطبيعي أن تتأثر سوق الأثاث بهذا التغيير، كما تأثرت سوق العقار وسوق مواد البناء نسبياً أيضاً..!

وإذا كان بعضنا يرى الصحة وبعضنا يرى الشكل فإن بعضنا لا يرى شيئاً سوى الانسجام مع الموضة التي لا يُمكن إنكار تأثيرها بشكل من الأشكال. وهنا بيت القصيد، فهذه الجزئية تمسّ رغباتنا وأذواقنا في استخدام هذه الوسيلة أو تلك، خاصة في مبانينا الخاصة.

فقبل عقدين فقط كان السّجاد رمزاً من رموز الوجاهة الاجتماعية، وكلما ازدادت سماكته كان ذلك إشارة إلى موقع ومكانة أعلى. وبعد أن غرقت الأسواق بالسماكات والدرجات والصناعات الآتية من وراء الحدود، أو من داخلها؛ تحوّلت الرغبات إلى الأرضيات الصلبة، رخاماً، أو سيراميك، وبدرجات تعكس الموقع والمكانة أيضاً، وتشير إلى الموضة..!

الغبار والملوّثات مشكلات تعانيها أرضيات السجاد ونعاني معها، ولكن اتجاهنا إلى غيرها لم يكن بحثاً عن الصحة، بقدر ما هو مسايرة لحالة جديدة، وشكل جديد في البيوت، ودلالة على أن وعينا الصحي ليس هو الذي يقودنا إلى استخدام هذه الوسيلة أو تلك، على الرغم من بروز ذلك حين نتحدث عن أسباب استخداماتنا للأشياء..!

وها نحن نشاهد أنفسنا نمشي على الرخام الصلب، وتتنقل أقدامنا بينه وبين قطع سجاد ديكورية، ونسترخي كما نشاء.. ولكن الصحة ليست في الدعة.. ولا الفخامة..!

* أكاديمي سابق ورئيس بلدية الجبيل.



ثقافة المراكز التجارية

مدن بلا أسواق.. أسواق بلا مدن!

على الرغم من حداثة عهدها أصبحت المراكز التجارية من أبرز المعالم في المدن المعاصرة، ومن أقوى نقاط الجذب لسكانها. ولكن الدور الذي تلعبه هذه المراكز من خلال تشكيلها لنسيج الحياة في المدينة لا يزال موضع نقد ونقاش. المهندس الدكتور مشاري النعيم يحدثنا عن المراكز التجارية في مدننا العربية معتمداً على الدراسات العديدة التي أجراها حول هذا الموضوع وعلى خبرته المهنية في تصميم عدد من المراكز التجارية في المملكة خلال السنوات الخمس الماضية.

عرفت المدن منذ القدم بأسواقها، حيث تلتقي جميع طبقات المجتمع، وتتجلى القيم المشتركة وعادات الناس وتقاليدهم، حتى أن العرب في جاهليتهم عُرفوا بأسواقهم التي كانت ساحات للشعر والخطابة وليس فقط للتجارة وتبادل المنافع.

في السوق، تعيش المدينة بوهجها وصخبها وبألوانها وبروائحها. أذكر عندما كنت طفلاً، كان سوق القيصرية في مدينة الهفوف محطة رئيسة في تجوالي اليومي.. حتى أنني لا أستطيع نسيان تلك المناظر المتداخلة والروائح المميزة لسوق العطارة في طرف السوق وسوق "البدو" في الطرف الآخر... كنت أشعر بكل المدينة في تلك "الدكاكين" الصغيرة المتراصة، والبضائع البسيطة التي أتت من كل مكان إلى هذا السوق الذي يضج بالحياة.

أما اليوم فقد تحولت المدينة كلها إلى سوق كبير أفقدنا الإحساس بذلك الاختلاف بين السكن والسكينة وبين السوق والصخب.. لا أعلم لماذا هذا الامتداد للسوق، حتى أن المدينة تحولت إلى أشرطة من الدكاكين، ولم يعد لها مركز؟!

ربما آن الأوان أن ننظر إلى الجانب الثقافي لظاهرة التسوق، وأن ننتقد إشكالية الاستهلاكي/الإنتاجي التي تهدد المدينة العربية المعاصرة. فمن الناحية العمرانية، كانت المدن تتشكل بطرقاتها وأحيائها حول مركزها الذي كان يمثل السوق أحد أهم عناصره. ربما كانت هذه الصورة التي ميّزت المدينة العربية لقرون عديدة قبل أن تتحول إلى الحداثة، ويتحول وسطها إلى مجرد سوق "غير مرغوب فيه"، مقارنة بأسواق حديثة صارت تنتشر على الأطراف وفي كل مكان، جعلت من المدينة المعاصرة كياناً مشوشاً يصعب فهمه.


أرشيف الدكتور مشاري النعيم

pBase

سوق ميركاتو في دبي.. والجالاري في نابولي.. هل نجح استيحاء النموذج الإيطالي؟

تحولات رأسمالية في المدينة العربية

عندما زرت مدينة الرباط هالني تحوّل أزقة المدينة وأفنية المساكن إلى محلات وورش. ولم يعد هناك أماكن يشعر فيها الزائر بالسكينة إلا ما كان بعيداً عن "سرطان السوق" الشره. لم يبقَ من المدينة القديمة داخل السوق إلا دكاكين متناثرة.. فهل المطلوب منا أن نستسلم ونترك المدينة العربية بتاريخها تتحول إلى سوق؟ قلت في نفسي لمَ لا..؟ فنحن نطالب بعودة الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى المناطق التاريخية، والتداخل بين المسكن والسوق أمر مهم ورئيس لإبقاء الحياة وتطورها في تلك المناطق.

أتذكر هنا مدينة نابولي الإيطالية التي يقال إنها "أقرب مدينة غربية من الشرق وأقرب مدينة شرقية من الغرب". الإحساس بالشرق في نابولي يطغى على كل شيء، ومع ذلك فإن الحضور الروماني بهيبته وضخامته

بين ثنايا المدينة وبيوتها يظهر فجأة.. هذا ما يمكن أن نراه عندما نمر في أحد شوارع المدينة القديمة ويشدنا فجأة "الجالاري" أو "البساج" Passage.. وهو سوق مسقوف "مزجج" يستفيد من أعماق المدينة ويتشكل من البنايات، حيث تتحول الطرق بين مجموعة من البلوكات (عادة أربعة بلوكات كبيرة) إلى سوق داخلية للمشاة وتصبح الواجهات الخلفية للمساكن دكاكين ومقاهي وقد ظهر في نهاية القرن الثامن عشر في المدن الأوروبية وانتشر في القرن التاسع عشر.

تفسير كثرة المراكز المغلقة في البلاد العربية بحرارة المناخ لم يعد مقنعاً، ولسلوكية المجتمع دور كبير في هذا التوجه

المفارقة هنا هو ما رأيته في مدينة دبي مؤخراً والسوق الجديد "ميركاتو" الذي يوحي اسمه بمعنى السوق. ففكرة المشروع كلها ترتكز على تقليد فكرة "الجالاري" الموجود في المدن الإيطالية، حتى أن المعماري في معالجته لواجهات المركز "ميركاتو" في دبي كان يحاول أن يعيد روح المدينة الإيطالية التقليدية من خلال تصميمه للواجهات الجانبية على شكل وجود أبنية عديدة مصفوفة وكأننا في إحدى المدن الإيطالية، على أن الوظيفة الحضرية للسوق الإيطالي التاريخي تختلف كثيراً، فهو موصل لأجزاء المدينة المختلفة ورابط بينها ينقلنا من عالم صاخب ومتحرك إلى عالم ساكن.. بينما يمثل مركز "ميركاتو" مجرد "صورة متخفية"، ومكاناً للمتعة من دون وظيفة حضرية ذات قيمة..

ونتساءل لماذا تحولت نابولي إلى سوق كبير ممتع ورائع، ولم تتحول المدن العربية بالقدر نفسه من الجمال والمحافظة على روح المدينة القديمة؟

تحولات تفتقد الحياة

كما ذكرت كان منظر الرباط القديمة يبعث على الأسى. أما القاهرة فكل ما فيها يشعر بعدم الراحة، لم تتحول المدينة إلى سوق متوهج بقدر ما تدهورت المباني وتراجع تراثها البصري والمعماري. وحلب التي يمر بها "طريق الحرير"، المدينة النابضة بالحياة التجارية لا تجد فيها الروح التي يمكن أن تشعر بها في مدينة مثل نابولي. رغم ثراء سوقها التقليدي الذي يعتبر من أهم الأسواق العتيقة "الباقية على قيد الحياة" في المدن العربية. ربما نجد في مدينة جدة بعض التحول الإيجابي، ولكنه تحول يفتقد الحياة. فقد تحولت جدة القديمة إلى ما يشبه المتحف، ولم يمتد سوقها ليبعث الحياة في المدينة التي هجرها أهلها.. بل إننا لا نشعر بجدة القديمة من الخارج. فهي محاطة بالمباني الخرسانية ووجودها حضرياً وبصرياً محكوم عليه بالسجن خلف تلك القلاع التي لن تعطيها فرصة للحياة في يوم.

أعتقد أن المدينة العربية تعاني "أزمة حياة" ربما يكون للمجتمع دور فيها. إذ يبدو أننا، كمجتمع، لا تمثل لنا المدينة الشيء الكثير. فنحن نعيش داخل عالمنا الخاص الذي لا نريد أن نتقاطع فيه مع أحد. لذلك يصعب أن نجد مدينة عربية مثل نابولي أو غيرها من المدن الإيطالية والأوروبية حيث أسرار المدينة ومبانيها تنثر على أرصفة الشوارع.. فمدننا التي أصبحت سوقاً كبيراً تظل مدن "مباني وشوارع" كما وصفها أمين إحدى المدن الكبرى في السعودية.

وأحد الأسئلة التي تُطرح دائماً حول الموضوع نفسه هو: لماذا هناك عدد كبير من الأسواق المغلقة في المدن العربية؟.. ونجد إجابة واحدة "بسبب حرارة الجو"، وهي إجابة غير مقنعة أبداً. إن الطبيعة السلوكية للمجتمع لها دور كبير في هذا التوجه إلى الداخل، رغم ما نشاهده من تنافس حاد حول بناء المراكز التجارية إلا أننا لا نشعر بوجودها وبتأثيرها في المدينة ونسيجها الاجتماعي والثقافي، بل نرى أنها تزيد من "برودة مشاعر المدينة" التي نجدها في شوارعنا وطرقاتنا الخالية. فمدينة مثل مدينة الرياض يسكنها حوالي خمسة ملايين إنسان، لا نجد الإنسان إلا في المركبات التي تضج بها الطرقات.. وفي هذه الظاهرة أمر مثير للاستفهام، إنه يؤكد فكرة أن مدننا هي "مبان وطرقات".

لقد حاولت أن أجد علاقة حضرية بين المراكز التجارية التي تكتظ بها مدينة الرياض، فلم أجد سوى الازدحام الشديد للطرقات المحيطة بتلك المراكز، ولم أجد الإنسان الذي يتنقل من مركز إلى آخر رغم قرب تلك المراكز بعضها من بعض.. ومن يعرف مدينة الرياض جيداً لن يستغرب أبداً، فمسألة التنقل مشياً من شارع إلى آخر هي مجازفة ومخاطرة.. كما أن لا دافع يشجع المرء على الانتقال من سوق إلى آخر، فكل الأسواق تتشابه، والمعروضات هي نفسها تقريباً، والمسألة تبقى في القرب والبعد والمساحة التي يمكن أن تجعل ساكن المدينة يفضل مكاناً على الآخر..

المدينة العربية التي تتحول إلى سوق كبير يوماً بعد يوم تدفع سكانها إلى الداخل بدلاً من أن تدفعهم إلى بعث الحياة في المدينة. في مدينة الشارقة كان هناك السوق المركزي الذي صمم في بداية السبعينيات، رمزاً بصرياً مفتوحاً على الخارج كمحاولة لبعث الحياة في مدينة تتسارع نحو الحداثة. على أن ذلك السوق لم يصمد طويلاً أمام متغيرات الحياة الرغدة فتحول إلى مكان مغلق يعيش على التكييف. الأمر الغريب كذلك هو أن أحد الأسواق التقليدية الذي رمم مؤخراً في الشارقة (سوق العرصة) لم يصمد بدوره طويلاً، بل تحول إلى سوق مغلق "مكيف". ويبدو أن المدينة الخليجية على وجه الخصوص

تحولت إلى مدينة ميكانيكية، لا تقبل الحياة الطبيعية. والمبرر الوحيد الذي يراه الناس هنا لهذه الظاهرة هو "حرارة الجو". إننا لا ننكر دور الطقس وتأثيرة السلوكي الواضح، ولكن هناك أسباباً أخرى تجعل مسألة البحث عن الحلول السهلة "أسلوب حياة". حتى في مدينة مسقط الرائعة بدأت تظهر الأسواق المغلقة لتبعد السكان عن "سوق مطرح" التقليدي وهو أمر سيكون له تبعاته الكبيرة على المدينة في السنوات المقبلة.. والحقيقة أن هذا المشهد يتكرر في كل عاصمة خليجية، ففي المنامة هناك تحوّل لمركز المدينة جهة منطقة السيف ومراكزها التجارية التي تسحب السكان إلى الداخل "الميكانيكي" وتفرغ وسط المدينة من محتواه التاريخي - الاجتماعي، فلم يعد باب البحرين وأسواق المنامة والمحرق تغري أحداً.. وربما تكون مدينة الكويت من أوائل المدن الخليجية التي خسرت روحها التقليدية عندما أزيلت المدينة القديمة بكاملها. ومع أن شارع السالمية كان من أشهر الشوارع التي كانت تعج بالحياة في منطقة الخليج في فترة الستينيات من القرن الماضي.. إلا أنه فقد كثيراً من وهجه. ويذكرنا شارع السالمية بما حدث لشارع الملك خالد في مدينة الخبر (شرق السعودية)، فقد سلبته المراكز التجارية الحديثة تلك الإثارة التي كان يتمتع بها وحولته إلى مجرد شارع وسط مدينة مزدحمة بالمركبات.

ولو حاولنا أن نجري مقارنة أخرى بين ما حدث في المدينة العربية والمدينة الغربية سوف نجد أن المدينة الغربية لم تفقد حيوية وسطها التاريخي حتى بعد ما حاول الساسة بناء مدن جديدة. فمنطقة "الدفاع" في باريس لم تنجح في سحب سكان المدينة من باريس القديمة.. فالحي اللاتيني (سان ميشيل) ما زال يعج بالحركة، والشانزلزيه ما زال المكان المفضل للساسة ورجال الفن والفكر. أما المدينة العربية التي كان يغلب عليها في يوم من الأيام "الحفيز"، وهو الدكان الصغير، فقد تطورت بالإيقاع الفردي نفسه غير المخطط له وتحول "الحفيز" إلى مراكز تجارية متناثرة في المدينة من دون دراسة أو فهم لتأثير هذه المراكز على مجتمع المدينة وحياتها.



سوق القيصرية في الهفوف القديم

أرامكو السعودية

نيوكاسل أبون تاين.. النجاح ابن التخطيط

أرشيف الدكتور مشاري النعيم

ثقافة المراكز التجارية

ربما تكون الظاهرة الأهم هي نمو الأسواق أو تحول المدينة إلى سوق كبير من دون مبرر اقتصادي واضح. ويؤكد هذا التحول الظاهرة الاستهلاكية للمدينة، وهي هوية جديدة تقوم عليها المدينة العربية المعاصرة. وهذه الظاهرة التي تتفاقم لا تجد حلاً لها؛ لأن المستثمر لا يقبل المغامرة بل يعمل في الآمن والمضمون.

عندما نسأل أنفسنا كيف تحولت المدينة العربية إلى ما أصبحت عليه، يقودنا السؤال إلى بدايات التحول الذي عاشته تلك المدينة منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقريباً، عندما خطط الفرنسيون (عمدة باريس، هوسمان على وجه الخصوص) حي الإسماعيلية الذي تحول في وقتنا الحاضر إلى سوق كبير يعج بالناس في وسط القاهرة. فذلك التحول أوجد منذ البداية فكرة المخازن الكبيرة (عمر أفندي وغيره) ومنذ تلك اللحظة تشكلت فكرة الأسواق الحديثة.


Flickr images

سوق الديرة بدبي

ربما يكون مفهوم السوق أو "المركز التجاري" بشكله الحديث أتى من الغرب، ولم يكن هذا ضرورياً على أية حال في المدينة العربية التقليدية. لكن الوضع تغير عندما اصطدمت تلك المدينة بالحداثة، فقد كانت الصدمة الرأسمالية شديدة وأفقدت المدينة العربية توازنها.

ربما تعود هذه الظاهرة كذلك إلى تعقد المدينة وتشعب وظائفها فلم تعد المدن توفر لسكانها فرصة الاستمتاع بالحركة. فكل ما فيها يدعو إلى البحث عن سبل أسهل للحياة، ووجود فضاءات تجارية تجمع كل ما يحتاجه الناس تحت سقف واحد يمثل حلاً رأسمالياً/اجتماعياً. ومع ذلك فإن المراكز التجارية لم تتحول إلى ظاهرة في المدينة العربية إلا في العقدين الأخيرين، كجزء من الظاهرة العالمية التي دفعت بثقافة الاستهلاك إلى حدودها القصوى، حتى أنه لم يعد هناك خصوصية للسوق نفسه، فكل البضائع متشابهة. وأصبح التنوع في شكل السوق وليس في محتواه، على أن ما يهمنا هو تأثير هذه المراكز في المدينة العربية من الناحية الثقافية والعمرانية.

بين ثقافة الأسرة وثقافة المدينة: أفكار لتصميم المراكز التجارية

لم تعد خرائطنا الذهنية التي تشكلت في عقولنا عن المدينة بسيطة كما كانت عند آبائنا. لا بد لهذا التغيير الذهني الذي طرأ على رؤيتنا للمدينة من تأثير في أسلوبنا في الحياة.. فما الذي بدلته فينا الأسواق أو المراكز التجارية المعاصرة؟ وما الذي أحدثته من تغيير في علاقتنا بالمدينة وبعلاقة بعضنا ببعض؟

عند دراستنا للمراكز التجارية في مدينة الرياض، على سبيل المثال، أكد لنا جميع المطورين لتلك المراكز أن احترام ثقافة الأسرة السعودية هو الخطوة الأولى لضمان نجاح المركز. وكان سؤالنا هو: ما المقصود بثقافة الأسرة السعودية؟ فتعددت الإجابات عن هذا السؤال. فكل واحد ينظر إلى الأسرة من زاوية مختلفة، على أن الكل أجمع على أن الأسرة السعودية تفضل الأسواق التجارية الواضحة حيث لا ممرات بعيدة عن الساحات العامة داخل المركز. وهذه قضية أمنية مرتبطة بدور المرأة في المجتمع، فهي لا تفضل أن تكون بمفردها داخل المركز التجاري. والمؤكد أن مصممي المراكز التجارية في السعودية صاروا يعون جيداً هذا الدور وهذه الرغبة. فمن دونها سوف تكون تصاميمهم فاشلة. والحقيقة أنني كنت أقصد من هذا المثال أن المراكز التجارية ظاهرة ثقافية داخل المدينة تؤثر وتتأثر بمجتمع المدينة، وما هو مفضل في الرياض قد لا يكون كذلك في عُمان أو دبي أو بغداد.

نعتقد أن المصمم يستطيع أن يحقق ما تحتاجه الأسرة العربية في المراكز التجارية بوضوح إذا وعى أهمية دور المرأة في تحديد الصورة النهائية للمركز. ومع ذلك فنحن لا نعتقد أن تحقيق التوافق بين المجتمع وحركة السوق مسألة هينة. إذ إن للجدوى الاقتصادية دوراً مؤثراً في القرارات التصميمية المرتبطة بالمراكز التجارية. فعلى سبيل المثال، يقول مسؤول في إحدى شركات التطوير العقاري في الرياض "إن الشركة فكرت في مراكز تجارية بسيطة ذات مسارين بينهما محلات في الوسط وعلى الأطراف، بحيث يرى المستخدم في رحلة الذهاب محلات تختلف عن تلك التي في الإياب. على أن هذا جوبه بمشكلة تقليل الوضوح داخل المراكز. وقامت الشركة بعدد من الدراسات أكدت جميعها أن المراكز التي طورت بمسارين مفتوحين على فناء داخلي مغلق تصيب الإنسان بالملل؛ لأنه سيرى كل شيء دفعة واحدة". ورغم أن في هذا الرأي بعض الصحة خصوصاً إذا ما عرفنا أن الغموض والتعقيد حاجتان يطلبهما الإنسان في بيئته العمرانية، إلا أن التعقيد والتناقض يمكن أن يحققهما المصمم في المركز التجاري حتى لو لم يكن ذا مسارين مفتوحين على فناء مغلق. فـ"السيتي سنتر" ومركز "حمر عين" في دبي و"الفيصلية" و"المملكة" في الرياض كلها مراكز تجارية من هذا النوع، الذي هو عبارة عن ساحة طولية واسعة (لايمكن أن نسميها ممراً) تشكل مسارين للحركة لا يوجد بينها فواصل، مما يجعل المستخدم يتنقل من مسار لآخر من دون أن يشعر بالملل. فالإيقاع بين المغلق والمفتوح وتأثير الحجم والشكل له تأثير كبير في تحقيق متعة التسوق.

ويمكننا أن نضيف في هذا السياق عنصراً آخر هو واجهات المحلات التجارية وأسلوب العرض الذي يختلط فيه الفن البصري مع الفن التسويقي.

وهناك العديد من الفنون والأساليب التي بدأت توظف لإضفاء المتعة على المراكز التجارية من الداخل، حتى أن المراكز الكبرى صارت تستخدم الأفنية الوسطية لتقديم العروض المسرحية والغنائية والدعائية لجذب أكبر قدر ممكن من الزوار. كما يحتوي العديد من المراكز على قاعات للعرض السينمائي وصالات للملاهي. فقد أوجدت المراكز التجارية ثقافة جديدة في المدينة هي "الترفيه" المنغلق على الداخل، وأصبح كل مركز هو عالم بحد ذاته، ولم يعد هناك من داع بالنسبة إلى ساكن المدينة كي يتعرف على كل أجزاء المدينة فلديه ما يكفيه في المكان الذي يعيش فيه.

بين التخطيط والرسملة

يجب أن نفكر في المركز التجاري من الخارج وكيف يمكن أن يكون متواصلاً مع المدينة وسكانها. فإذا كان وجود "مواقف سيارات" فوق سطح الأرض أحد المحددات التي يمكن التفكير فيها فليس بالإمكان تحقيق هذا العنصر في كل الأحوال. ففي "المترو سنتر" وهو أحد المراكز التجارية الكبرى (في مدينة نيوكاسل أبون تاين في إنجلترا) يتنافس الزوار على المواقف المكشوفة الواقعة على أطراف المركز، بينما المواقف المتعددة الطوابق غير مرغوبة من المستخدمين رغم أنها محمية من المطر وموصلة بالسوق من خلال المصاعد والسلالم الكهربائية. وأسباب ذلك قد تكون كثيرة، ولكن المشكلة هي في إمكانية توافر المواقف المكشوفة.


أرشيف الدكتور مشاري النعيم

مدخل سوق الحميدية.. أقدم الأسواق التقليدية المسقوفة في دمشق

وفي مركز الشعلة في مدينة الخبر (قبل أن يحترق ويزال) كانت مواقف السيارات فوق المبنى، وكان هذا لا يشجع الزوار على استخدام سطح المبنى كمواقف لسياراتهم لصعوبة العودة إلى السطح بعد التسوق محملين بمشترياتهم. وقد شاهدت الظاهرة نفسها في مركز (وايتليز) في لندن، حيث تقع بعض المواقف على مستوى الطابق الثالث ولا يستخدمها كثير من الناس. ويمكن رؤية مثال آخر لحلول مواقف السيارات في مركز الشرق الأوسط بمدينة جدة، حيث يوجد في المركز مواقف للسيارات تحت المبنى ولم تستخدمه الأسرة السعودية، لذلك قرر أصحابه استخدام المواقف فوق أرض قبالة المركز، ولكن بات على الأسرة عبور شارع فلسطين، فتم بناء جسر عبور مغطى ومكيف يربط المواقف مع المركز بسلالم ومصاعد كهربائية. إذن القضية تتجاوز مسألة توافر مواقف للسيارات إلى التفكير في نوعية المواقف ومدى ملاءمتها لثقافة المستخدم.

ويبقى السؤال: لماذا نعتقد أن تصميم المراكز التجارية يجب أن يحظى باهتمام خاص في المدينة العربية المعاصرة؟

نحن مثلاً بحاجة إلى حل مشكلة الوسط التاريخي للمدينة العربية وإعادة إحيائه بما يحفظ للمدينة شخصيتها التاريخية، وقد يجعلنا هذا نفكر في مساهمة المراكز التجارية في إعادة إحياء الوسط التاريخي. ففي أغلب المدن الأوروبية نجد أن المراكز التجارية استخدمت لإعادة توصيل المدينة المفتتة. من الأمثلة الجديرة بالذكر "السنترال أركيد" في وسط مدينة نيوكاسل الإنجليزية، وهو مركز تجاري صغير مفتوح بشكل كامل على أحد شوارع المشاة في المدينة وهذا السوق يذكرنا بالقيصريات في المدن العربية. فرغم أنها أسواق مغلقة إلا أنها مرتبطة بالخارج بشكل كبير، حتى أن الطرقات والسكك المحيطة بالقيصرية غالباً ما تكون متصلة بشبكة ممرات موجودة داخل القيصرية نفسها، فتكون بذلك جزءاً من النسيج العمراني (سوق الحميدية بدمشق والسوق القديم في حلب، والقيصرية بمدينة الهفوف). ونستطيع أن نرى ذلك في العديد من الأسواق المعاصرة ففي (الكويينز أركيد) في مدينة كاردف (عاصمة ويلز) نجد المركز التجاري مفتوحاً على ساحة متصلة بطريق مشاه، فيربطها بأجزاء أخرى في وسط المدينة.

تجربتا شارع المتنبي ومنطقة قصر الحكم في الرياض تظهران الفرق الناجم عن الدراسة المتأنية للمراكز التجارية

ولتبيان الإمكانات الكبيرة التي يمكن أن تقدمها الدراسات المتأنية للمراكز التجارية، نستطيع أن نقارن بين تجربتين حضريتين حدثتا في مدينة الرياض خلال الأعوام القليلة الماضية. التجربة الأولى هي شارع المتنبي (حي الملز) الذي تحول إلى شارع للمشاة، أما التجربة الثانية فهي منطقة قصر الحكم.

في التجربة الأولى يخيل لنا أنه كان هناك عدم تصور لسلوك المستخدمين لشارع المتنبي، مما أدى إلى فقدان الشارع لقيمته التجارية التي كان يحظى بها سابقاً. فمستخدمو الشارع، كانوا يأتون بصحبة عائلاتهم، فتنزل المرأة إلى المحل المطلوب ثم تعود إلى السيارة مباشرة، أي أن قرب السيارة من المحل كان عاملاً مؤثراً في زيادة الإقبال على التسوق، خصوصاً في الأجواء الحارة. كما أن مرور السيارات باستمرار في الشارع كان حافزاً دعائياً للمحلات الموجودة فيه. ويؤكد بعض أصحاب المحلات أنهم كانوا يعرفون زبائنهم من سياراتهم ويحددون السعر حسب ذلك. ومع التغيرات التي حدثت فقدوا هذه الميزة. وعلى سبيل المثال أيضاً، عندما حاولت بلدية الخبر إغلاق شارع السويكت في الخبر لم تنجح في ذلك فأعادته إلى حالته الأولى. ولحسن الحظ لم يكن هناك منشآت مما أعطى البلدية مرونة كافية في التراجع عن القرار عندما ثبت عدم جدواه. كما أن شارع المتنبي واجهته مشكلة أخرى عند تطوره إلى طريق مشاة إذ كانت هناك مجمعات تجارية عملاقة قد بدأت بالظهور في أطراف الرياض (مشروعات العقارية في العليا بالرياض بدأ التفكير فيها منذ عام 1977م). تلك المجمعات مغلقة ومكيفة توفر الراحة والأمان للمستخدم بعيداً عن حرارة الجو. كان من الأجدى أن يطور شارع المتنبي بحيث يجمع القدرة على أن يكون سوقاً مغلقاً ومفتوحاً في الوقت نفسه وأن يكون حلقة وصل بين أجزاء المنطقة التي يقع فيها.

أما منطقة قصر الحكم بالرياض، فقادرة على أن تكون أحد الأمثلة الرائدة للتطور الحضري لوسط المدينة العربية. فالتنوع الوظيفي الحاصل فيها يعد من أهم عناصر النجاح لهذا المشروع، إذ إن الفراغات المفتوحة ذات خلفية تاريخية تقود المستخدم إلى الأسواق المغلقة أو المغطاة (المعيقلية) أو (مركز التعمير الذي صممه كل من راسم بدران وعبدالحليم إبراهيم) بشكل أقل، كما أنها تقوده إلى الجامع الكبير ومبنى الإمارة والأمانة. ونعتقد بأن المنطقة تقدم الفرصة لكل المنطقة القديمة للتطور والبقاء على قيد الحياة.

مدينة بلا أسواق.. أسواق بلا مدينة

من الواضح أن استخدام المراكز التجارية كرابط لوسط المدينة يساعد على اكتشاف المدينة عن طريق المشي الذي شجع كثيراً من المسؤولين عن إدارة المدن على تطوير وسط المدينة للمشاة. في مدينة نيويورك، على سبيل المثال، هناك "الجادة الخامسة" كأحد الشوارع الرئيسة التي يستخدمها المشاة وتربط عدداً من الأبنية والمراكز التجارية المشهورة. حركة المشاة في هذا الشارع تضيف إلى مدينة نيويورك حيوية كبيرة، ويجد فيها المشاة فرصة كبيرة لاكتشاف (منهاتن). ويتكرر المشهد في أغلب المدن الأمريكية. على أن حركة المشاة وارتباطها بالمراكز التجارية لم تتطور في وسط المدن العربية والخليجية، إلا إذا استثنينا مدينة دبي التي استثمرت مهرجانها للتسوق لتفعيل حركة المشاة وربط عدد من المراكز التجارية بعضها ببعض.

أعتقد أن التفكير في تصميم المراكز التجارية لابد أن يكون من ضمن التفكير في المدينة ككل. ولا بد أن تكون الحلول مرتبطة بالحلول الحضرية والتخطيطية للمدينة. وربما نحتاج أن نفكر كذلك في قضية أخرى ألا وهي ظهور المراكز ذات الوجهة الواحدة. فأغلب المراكز التجارية في الآونة الأخيرة تطور كي تكون ذات وجهة واحدة مطلة على الشارع الرئيس وبها مداخل رئيسة، بينما الوجهات الأخرى من دون أهمية تذكر. ومثل هذا التوجه لن يطور عمارة متميزة، وسوف تكون المراكز التجارية رديئة من الناحية المعمارية. لعل الوضوح الذي تحدثنا عنه هو ما جعل المصممين يركزون على تصميم مراكز ذات وجهة واحدة مفتوحة على مواقف السيارات السطحية إرضاءً للزبون، فنحن قد نكون مقبلين على أسواق من دون أن تكون هناك مدن. ولعل بعض المدن الخليجية تتجه إلى هذه الظاهرة الرأسمالية العنيفة، حيث تصبح المدينة كلها سوقاً، ويبحث الناس فيها عن مدن صغيرة بعيدة من دون أسواق.



يوسف الدبيس

مجمع الفيصلية بالرياض

مع حلول فصل الصيف، تصبح السباحة أكثر الرياضات شعبية في العالم، ويصبح قضاء يوم على شاطىء البحر، أو حول بركة السباحة، نشاطاً ترفيهياً يستقطب الآلاف. ولكي لا تتحول الرياضة إلى مصيبة، ولكي لا ينتهي اليوم الترفيهي بالحزن، فإن للسباحة الآمنة وارتياد الشواطىء قواعد وشروطاً يذكرنا **محمد أبو المكارم** فيما يلي بأبرزها.

للسباحة شروط.. لا تغفلوها!

تتراوح المخاطر الناجمة عن السباحة وارتياد الشواطىء صيفاً مابين الإصابة بحروق جلدية نتيجة التعرض لأشعة الشمس والغرق، ناهيك عن مجموعة كبيرة من الحوادث المفاجئة متفاوتة الخطورة على السابحين والمستجمين على الشواطىء، والتي قد تتسبب فيها ظروف وعوامل طارئة لم تكن في حسبان الذين يتعرضون لها، فتقلب الفرح واللهو حزناً وهماً.

القاعدة العامة والأساس هي طبعاً في تعلم السباحة. ويمكن الاعتماد في هذا المجال إما على مدربين محترفين، أو على أصدقاء يتقنون السباحة. صحيح أنه ليس من شروط النزول إلى الماء أن يكون المرء بطلاً ماهراً في هذا المجال، ولكن لابد من أن يكون قد تعلم من فن السباحة مايكفيه لأن يطفو بارتياح وثقة كاملة بالنفس، ولأن يتحرك في الاتجاه الذي يريده.

ولكن هذه القاعدة الأساس لاتكفي وحدها لدرء مجموعة من المخاطر قد تؤدي بأمر السابحين إلى الغرق، أو تعرضهم إلى حوادث لاتحمد عقباها. لذلك لابد من التقيد بجملة شروط تطال اختيار أماكن السباحة، وممارستها، وصولاً إلى الشاطىء الذي يلهو عليه المستجمون.

إختيار المكان الملائم للسباحة

1. إذهب دائما إلى الشواطيء التي يشرف عليها مراقبوا إنقاذ، ولاتسبح إلا في المناطق الخاضعة لإشرافهم، والتزم بتعليماتهم.
2. لا تنزل إلى الماء أبداً إذا رأيت الراية الحمراء مرفوعة في مكان ما؛ لأنها تدل على وجود خطر.
3. لاتسبح بمفردك مطلقاً، أو بعيداً عن أعين الناس.
4. انتبه لأحوال الطقس وتقلباته، فإذا رأيت غيوماً في الأفق، أو إذا بدأت حركة الريح تشتد، فلا تنزل إلى الماء.
5. لاتسبح بعد حلول الظلام؛ لأن تقديم المساعدة إليك إذا احتجتها لن يكون سهلاً.
6. إذا لم تكن على دراية تامة بالشاطىء، فاستفد من خبرة الذين سبقوك إليه لمعرفة طبيعته، وإلا تجنب الذهاب إليه.
7. عدم السباحة قرب أرصفة رسو الزوارق أو انطلاق الدراجات المائية "الجيت سكي"، تلافياً للارتطام بها، الأمر الذي، وللأسف الشديد يتكرر عدة مرات موسمياً.

خلال السباحة

1. التزم بالمساحات المحددة للسباحة، ولاتتجاوز الرايات الحمراء بتاتاً.
2. لاتعتمد على الأدوات المنفوخة بالهواء؛ لأنها وإن ساعدتك على أن تطفو بسهولة، فإن الهواء والتيارات البحرية قد تجرفك وإياها بعيداً عن الشاطىء.
3. إياك والهلع إذا أحسست بأن تياراً مفاجئاً بدأ يجرفك بعيداً عن الشاطىء. ولا تحاول السباحة عكسه؛ لأنها لن تجدي نفعاً، بل اسبح بزاوية مائلة قليلاً عن اتجاهه بحيث تستطيع الخروج منه في اتجاه لا يختلف إلا قليلاً عن الاتجاه الذي يذهب فيه.
4. إذا واجهت أية مشكلة خلال السباحة، فحافظ على هدوئك، وحرك قدميك بهدوء، وارفع إحدى يديك في الهواء لطلب النجدة.
5. إذا رأيت شخصاً في خطر فعليك إبلاغ مراقب الإنقاذ، أو أقرب شخص قادر على المساعدة، أو الاتصال بخدمات الطوارئ "110 داخل أرامكو السعودية و 977 خارجها". وإذا أمكن، حاول إيصال أي جسم يطفو على الماء إليه. لاتغامر بتقديم أية مساعدة بنفسك إذا لم تكن واثقاً من قدرتك على ذلك.
6. تلافى المزاح الخشن مع رفاقك في الماء؛ لأنه قد يؤدي إلى أمور غير متوقعة.



لوحة السباحون للفنان الفرنسي سوراة

7. لاتتردد في طلب المساعدة الطبية في حال تعرضك لأي جرح أو لسعة من كائن بحري أو حشرة على الشاطىء.
8. عدم السباحة لمدة ساعة بعد تناول الطعام، تلافياً للإصابة بسوء الهضم.

على الشاطىء

تعتبر أشعة الشمس الحارقة صيفاً المصدر الأول للمتاعب الصحية على الشواطىء؛ لأن انعكاسها على ضفة الماء وعلى الرمال البيضاء يزيد من قوة أشعتها وتأثيرها على الجسم.

1. احرص على حماية جلدك من ضوء الشمس والأشعة فوق البنفسجية المسببة لسرطان الجلد والحروق الجلدية وشيخوخة البشرة، خاصة عندما تكون هذه الأشعة في ذروتها مابين العاشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر. ولهذه الغاية، استخدم زيتاً واقياً من الشمس لايقل عامل الوقاية فيه عن 15 درجة "SPF-15".
2. إشرب كميات كافية من الماء والسوائل بانتظام، حتى ولو لم تكن تشعر بالعطش. فجسمك يحتاج إلى الماء للاحتفاظ بالبرودة. وتجنب المشروبات المحتوية على الكافيين؛ لأنها تجعل تأثيرات الحرارة على الجسم أسوأ.
3. استخدم النظارات الشمسية لحماية العينين من الأشعة فوق البنفسجية. واختر النظارات التي تمتص 90 في المئة على الأقل من هذه الأشعة، حسبما يكون مدوناً في تعليمات الشركة المنتجة.
4. انتبه من السير حافي القدمين على الرمال، فقد تتعرض قدماك للحروق بسبب الرمل الساخن، أو للجروح بسبب شظايا الزجاج المكسور أو الأجسام الصلبة والمدفونة في الرمال.
5. ضع قبعة ذات حافة على رأسك، تلافياً للإصابة بضربة شمس.

الأطفال والشاطىء

الأطفال أكثر عرضة للغرق من غيرهم، وهو من أبرز مسببات وفيات الأطفال دون سن الخامسة. خصوصاً وأنهم يحبون اللعب والمرح في الماء دون أي شعور بالخطر. ولذا لابد من التدابير الآتية:

1. راقب أطفالك باستمرار، إذ إن المغريات التي قد تجتذبهم إلى مصادر الخطر كثيرة على الشواطىء ، مثل الزوارق والدراجات المائية.
2. لا تترك الأطفال ينزلون بمفردهم إلى الماء مهما كانت مهارتهم في السباحة كبيرة.
3. لا تعتمد على عمال الإنقاذ في رعاية أطفالك والعناية بهم. فقد يتركهم هؤلاء فجأة إذا ما تم استدعاؤهم لمواجهة أي ظرف طارئ.
4. لا تعتمد على البدائل، فاستخدام وسائل الطفو والألعاب المنفوخة بالهواء لا يؤدي المهمة التي يقوم بها شخص بالغ ومسؤول. كما أن هذه الأدوات يمكن أن يتغير وضعها فجأة، أو تخسر الهواء، أو تنزلق من تحت الطفل، ليصبح عرضة للخطر.
5. إحرص على تسجيل أطفالك في مراكز تعليم السباحة فهي تشجع على الممارسات المأمونة.
6. بلغ حارس الإنقاذ فوراً عن أي طفل مفقود، ولاتنتظر طويلاً وأنت تفتش عليه بنفسك.

ختاماً، وإن كان ماتقدم يشمل أبرز مايتوجب لفت النظر إليه، فيجب أن نشير إلى أن المؤثرات في سلامة السباحة وارتياد الشواطىء وأيضاً برك السباحة، والنزهات البحرية في القوارب هي أكثر من أن تحصى أو أن تحصر بكلمات معدودة. ولكن لكل نشاط في هذا المجال مجموعة خاصة من الإرشادات تكون في كتيبات خاصة، أو معروضة على لوحات كبيرة في مواقعها. ويخطىء خطأ جسيماً من يتلافى قراءتها باهتمام، أو يعتقد أنها وضعت رفعاً للمسؤولية، لأنها هناك كي يكون اليوم الترفيهي فعلاً كذلك، وكي لاينقلب إلى عكسه تماماً.

صورة شخصية

لمع اسم كارلوس غصن في السنوات الأخيرة كواحد من أنجح الإداريين في العالم، بعدما حقق من الإنجازات ما جعله يتبوأ مراكز كان مجرد الحلم بها ضرباً من الخيال، ومنها ترؤسه في وقت واحد لاثنتين من كبريات شركات صناعة السيارات: "نيسان" في اليابان، و"رينو" في فرنسا. الزميل أمين نجيب يحدثنا عن أبرز الملامح في صورة هذه الشخصية الفذّة، وبعض الأسس التي يتبعها في عمله الإداري.

كارلوس غصن

الإداري الذي أصبح بطلاً شعبياً



إنه أول شخص غير ياباني يرأس واحدة من أكبر الشركات اليابانية لصناعة السيارات. وبعدما تولى إدارة شركة "رينو" الفرنسية قبل شهرين، أصبح اللبناني الأصل كارلوس غصن أول رجل في العالم يدير شركتين لصناعة السيارات: واحدة في اليابان، وأخرى في أوروبا. وصار يقسّم دوامه الأسبوعي إلى قسمين: ثلاثة أيام في اليابان، وثلاثة أيام في باريس.. والسابع للطائرة.

نشأته.. مدرسة بحد ذاتها

الترحال الدائم ما بين عواصم العالم ليس جديداً على كارلوس غصن. فهو من مواليد البرازيل عام 1954م، حيث عاش صباه، ومن ثم عاد إلى موطنه الأصلي لمتابعة دراسته الثانوية في مدرسة الجمهور في الضاحية الشرقية من بيروت، وسافر لاحقاً إلى فرنسا للتحصيل الجامعي.

يقول عارفوه إنه اكتسب الكثير من الأمور التي أغنت شخصيته ودفعته إلى هذا النجاح الأسطوري في عالم الأعمال، من كل مكان عاش فيه لبعض الوقت. فمن البرازيل اكتسب الشخصية الشعبية التي تبادر إلى مصافحة عامل التنظيفات بالحرارة نفسها التي يصافح بها مديراً من مديري شركته. ومن لبنان اكتسب الشخصية العابرة للثقافات والمنفتحة على كل ما هو جديد وعالمي، بما في ذلك اللغات الأجنبية التي يتكلم منها أربعاً بطلاقة إضافة إلى العربية.

وفي مدرسة "البوليتكنيك" في باريس، لم يكتسب غصن فقط شهادة في الهندسة الكيميائية سنة 1974م، بل أيضاً التداخل والترابط ما بين كافة العلوم والاختصاصات. وأدرك بذكائه ما هية روح العصر الفكرية، التي تبقى باريس السبّاقة إليها من بين كل عواصم العالم. فعرف أن الفلسفة والهندسة وعلم النفس والأدب والفن والاقتصاد كلها من العلوم التي باتت ضرورية للعقل الإداري العصري، وأن الفصل ما بين الاختصاصات الذي ساد في عصر الحداثة قد انتهى.

وبعد متابعة تخصصه في "إيكول دي مِن" التي تخرج فيها عام 1978م، بدأ العمل في شركة "ميشلان" لصناعة الإطارات في فرنسا، ومن ثم راح يترقى على السلم الوظيفي في الشركة نفسها التي أوفدته أولاً إلى مصانعها في البرازيل، ومن ثم إلى الولايات المتحدة عام 1989م حيث أصبح مديراً لعملياتها، ومن ثم مديراً عاماً ورئيساً لمجلس الإدارة في "ميشلان-أمريكا الشمالية". وهناك، يقول غصن إنه عرف ما هي العولمة وبيئتها. إنه عالم جديد مختلف. فالإنتاج في هذا العصر صار مختلفاً عمّا كان عليه في عصر فورد. إنه اتصالاتي وشبكي بالدرجة الأولى.

قصته مع اليابان

في يونيو من العام 1999م، انتقل هذا المهاجر على الدوام إلى اليابان لإنقاذ شركة "نيسان" التي كانت ترزح تحت دَيْن يبلغ 22 بليون دولار، وباتت على شفير الإفلاس والانهيار.

كان غصن قد اكتسب خبرة في صناعة السيارات من شركة "رينو" الفرنسية التي انضم إليها في أكتوبر عام 1996م، وأصبح خلال شهرين فقط نائب الرئيس التنفيذي للأبحاث والتصنيع والمشتريات.

استمهل غصن شركة "نيسان" ثلاثة أشهر لدراسة المشكلات التي تعاني منها ووضع خطة للإنقاذ. وفي أكتوبر من السنة نفسها كان جاهزاً لإعلان خطته، واعداً بأنه إذا لم يتمكن خلال عام واحد من إنقاذ الشركة ووضعها على سكة الربح فإنه سوف يستقيل.

كانت المهمة شاقة وخطيرة. فهذه الشركة كانت تعتبر من مراكز القوة في الاقتصاد الياباني، ووزارة الصناعة والتجارة الدولية تصنفها كنقطة ارتكاز للسياسة الصناعية ما بعد الحرب العالمية الثانية. والأدهى من ذلك أن خطة غصن تضمنت هدماً للتقاليد والمفاهيم السائدة في الشركة. وهذا ما يعتبر في اليابان من المحرمات، ورآه الكثير من الناس جنوناً صرفاً.

إبداع إدارة جديدة

ركزت خطة غصن على ثلاثة جوانب رئيسة:

أولاً: هيكلية الشركة، وشدد فيها غصن على جملة معطيات أبرزها الشفافية، "عليك أن تجعل الناس يتأكدون من أن ما تفكر فيه وما تنفذه هو شيء واحد"، وأن السرعة في التنفيذ يجب أن تتماشى مع إعطاء صلاحيات واسعة للموظفين. "فإذا أردت أن تسيء إلى شركة، عليك بتقوية مركزيتها".. وأيضاً "لا يستطيع أي من أنظمة المعلوماتية والإدارية أن يحل محل الإنسان".

وأيد غصن قيام بنية إدارية أقل تراتبية وأكثر انفتاحاً. وألغى نظام الوظيفة مدى الحياة المعمول به في اليابان، كما ألغى نظام الترقية حسب الأقدمية، وجعلها حسب الإنتاجية، وصرف الكثير من الموظفين من دون أن يستقدم جدداً.

ثانياً: الإنتاج، حيث رأى أن على الشركة أن تتجه إلى المستهلك مباشرة، من دون أن تكبل نفسها بالتنافس مع الشركات الأخرى مثل "تويوتا" و"هوندا"، كما كان الحال آنذاك. وبما أن المستهلك متنوع ومتجدد على الدوام، فعلى السيارات أن تكون كذلك. وقد دفع منذ السنة الأولى بطرازات جديدة لم تعهدها الشركة من قبل. وكان نجاحها مؤكداً.

ثالثاً: الإدارة المالية، إذ كانت "نيسان" مثل باقي الشركات اليابانية تتبع نظام "الكيريتسو" (Keiretsu)، وهو عبارة عن شبكة من العلاقات المالية وأحياناً الإدارية بين كافة الشركات والبنوك اليابانية، تشتري بموجبه كل شركة أسهماً متقاطعة، بهدف الحؤول دون اكتتاب الأجانب بكميات كبيرة من الأسهم تؤثر على الاقتصاد الوطني ككل، فقد وجد غصن في هذا النظام عائقاً كبيراً، فما كان يصلح قبل العولمة لم يعد كذلك بعدها. وعندما طرح هدم هذا النظام رأى الكثير من الخبراء أن الأمر جنون مطبق. لكنه مضى في تنفيذ خطته، وألغى 1400 شراكة مرتبطة بهذا النظام، وأبقى على 4 فقط. وأكثر من ذلك، صرف من الخدمة كل من كان مديراً في تلك الشركات. كما صرف أيضاً كل مدير يرتبط بصداقة مع مديرين كانوا يعملون في الشركة، وفتح الإدارة المالية على السوق الحرة وفق الطريقة الأمريكية واعتبر ذلك ثورة كبيرة على تقاليد لم تكن تُمس حتى ذلك الوقت.

وخلال أقل من سنة كان غصن قد أوفى بوعده، وتحققت الأهداف التي وضعها نصب عينيه أمام ذهول أوساط الأعمال في العالم بأسره.

الإداري بطل شعبي

لقي أسلوب كارلوس غصن في الإدارة مديحاً على أعلى المنابر الاقتصادية في العالم، ومنها مجلة "هارفرد بزنيس" وصحيفة "الوول ستريت جورنال" الشهيرة واختارته مجلة "الأوتوموبيل" الفرنسية رجل العام على صعيد العالم.

أما في اليابان فقد تحول بنجاحه وشخصيته الفريدة نجماً شعبياً، حتى أنه أصبح بطل سلسلة من الكتب المصوّرة، يباع من الواحد منها نصف مليون نسخة!!

أما شركة "رينو" الفرنسية التي عادت وتلقفته لتشارك "نيسان" اليابانية في الاستفادة من عبقريته، فقد أجرت استطلاعاً سألت خلاله ألفاً من مديري الشركات في العالم عن أفضل الإداريين من وجهة نظرهم، فكان كارلوس غصن واحداً من بين أهم ثلاثة في العالم.

اتصفت المدارس العربية في أوائل القرن العشرين بسمات مشتركة لافتة في مذكرات عدد كبير من المثقفين الذين وصفوا بدقة وبشكل طريف حيناً ومؤثراً أحياناً ما كانت عليه التربية والمدارس التي ارتادوها في مطلع حياتهم.

مهى قمر الدين، ومحمد الفوز جالا في مذكرات عدد من الأدباء العرب، وجمعا بعض الصفات العامة التي شكلت القواسم المشتركة لكل تلك المدارس، ورسما من خلالها صورة التعليم في تلك الحقبة من الزمن.

بدائية وقسوة وخريجون كبار

مدارس أيام زمان

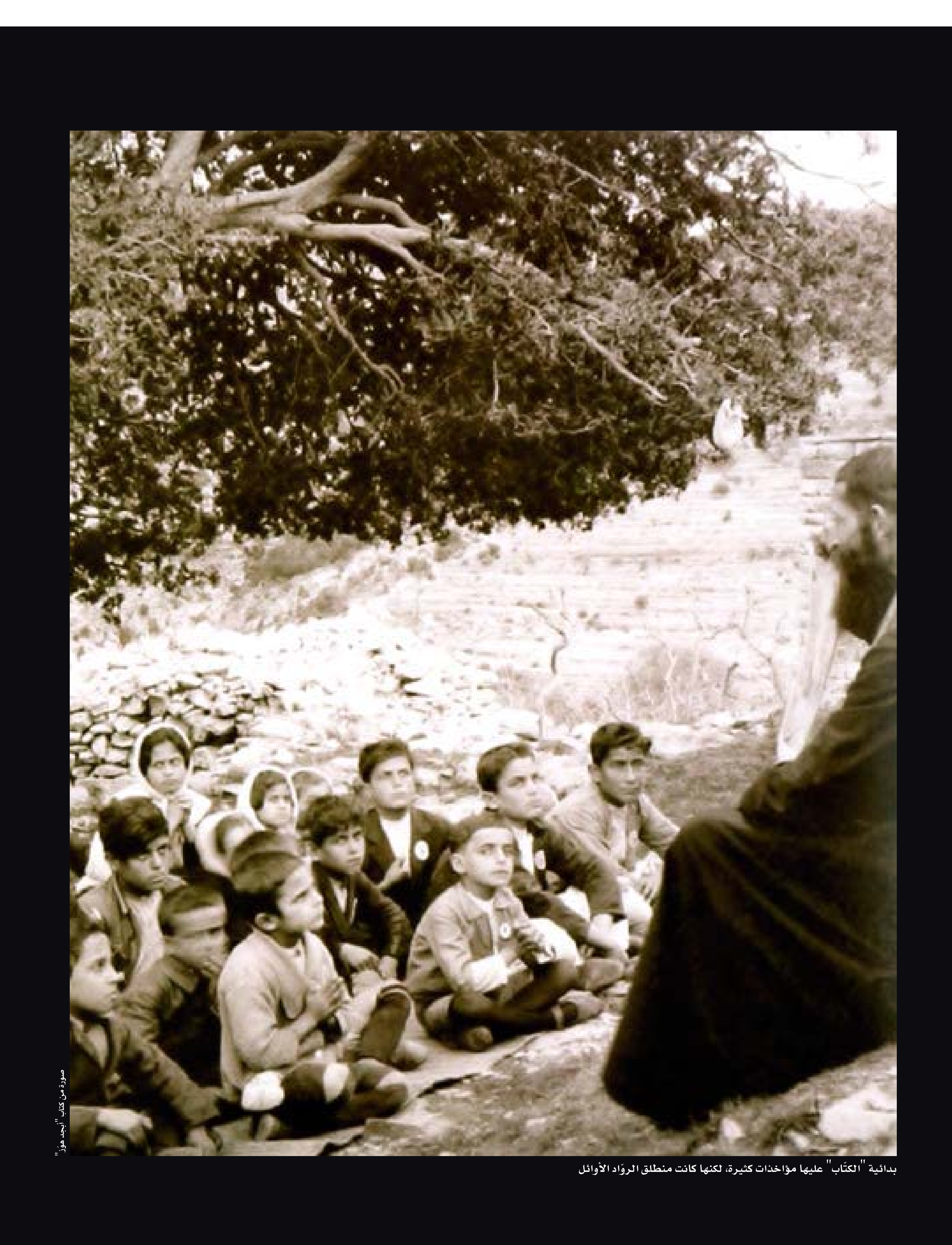
البدائية هي الصفة الأولى التي يمكن أن ننطلق منها للحديث عن مدارس أيام زمان. فمعظم الأدباء العرب تحدثوا عن مدارسهم الابتدائية بوصفها غاية في البساطة والفقر وعدم التجهيز، وكأن أي مكان يصلح لأن يكون مدرسة.

يذكر الأديب اللبناني توفيق يوسف عواد في كتابه "حصاد العمر" مدرسته الأولى التي ارتادها في مطلع القرن العشرين فيقول إنها كانت عبارة عن قبو أحد المنازل. وكان يتوسط القبو في الشتاء صندوق من الحديد الصديء يقال له بلهجة زمانهم "البابور" ويستعمل لإيقاد الحطب فيه للتدفئة. وكان على التلاميذ أن يعدوا الوقود اللازم من عندهم ويتعهدوا ناره. ومن أتى منهم إلى المدرسة من دون قطعة الحطب، فلا يدخل الصف، بل يبقى في الخارج تحت المطر والزمهرير.

وكان لهذا الموقد مدخنة أسطوانية طويلة تخترق الحائط لطرد الدخان إلى الخارج. ولكن الرياح كانت تتغلب عليه فتعيد الدخان إليهم، فتصطبغ الوجوه بالأسود، ويعبق جو القبو "ويختلط أزيز النار بعطاسهم، بصياح المعلم، بالرعد القاصف، بشهيق التلميذ الراكع في الزاوية قصاصاً له".

أما مدرسة مارون عبّود فكانت في العراء.. تحت شجرة سنديان يجتمع في ظلها الأستاذ وتلامذته، وقد يكون بذلك أوفر حظاً من توفيق يوسف عوّاد.

ومن مصر وصلنا وصف الكتاتيب في مذكرات الكثيرين، منهم أحمد أمين وطه حسين، اللذان وصفا كيف كانا يجلسان على الأرض أو على حصير بالٍ انسلّت منه بعض


صورة من كتاب "أبجد هوز"
بدائية "الكتّاب" عليها مؤاخذات كثيرة، لكنها كانت منطلق الروّاد الأوائل

عيدانه. ويسترسل أحمد أمين في وصف أثاث الكتّاب الذي ذهب إليه، فيقول: كان هناك برميل فيه ماء يكاد يصبح أسود من الأوساخ، عليه غطاء من الخشب، وقد ثُبّت في الغطاء حبل طويل ربط فيه "كوز" ليستقي منه الناس. وكان يستخدمه "النظيف والقذر والمريض والصحيح".

من المدارس ما كان في أقبية تحت الأرض، وبعضها في الهواء الطلق وأفضلها كان الكُتّاب

ويتذكر طه حسين في "الأيام" نفسه جالساً على الأرض في الكتّاب بين يدي "سيدنا"، ومن حوله مجموعة كبيرة من النعال كان يعبث ببعضها. وهو يذكر ما ألصق بها من رقع. وكان "سيدنا" يجلس على دكة صغيرة (تطلق الدكة في مصر على سرير من الخشب معد للجلوس، له على جوانبه، ما عدا المقدمة، سياج صغير). وكان "سيدنا" قد تعود متى دخل الكتّاب أن يخلع عباءته، أو بعبارة أدق "دفيته"، ويلفها لفاً يجعلها على شكل وسادة ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعليه، ويتربّع على دكته ويشعل سيجارة ويبدأ في نداء الأسماء.

ومن أبلغ ما وردنا حول الإمكانيات والتجهيزات في المدارس القديمة، هو ما جاء بقلم الأديب السعودي عبدالكريم الجهيمان الذي كتب في سيرته الذاتية يقول: "... لم يكن للأطفال كتب ولا شيء من الأوراق والدفاتر، بل كنا نعتمد على بيئتنا وما فيها من مواد خام. فالأقلام من الشجر، والحبر نصنعه بأيدينا من الصمغ والسواد الذي يعلق بالآلات النحاسية التي توضع على النار. أما الورق فنستعيض عنه بألواح الخشب، نطليها بمادة بيضاء تسمى الصالوخ، نأخذها من الجبال المحيطة بنا. فإذا كتبنا آيات من القرآن الكريم في هذه الألواح، ثم حفظناها، محوناها بالماء، ثم طلينا الألواح ثانية بذلك الطلاء الذي يعطيها لوناً أبيض ناصعاً. وهكذا نستمر نكتب ما نحتاجه من المصحف في تلك الألواح، ثم نمحوه لنكتب غير ما حفظنا. وبهذه الطريقة لا نحتاج إلى ورق ولا دفاتر، ولا نفقات".

من أبناء ذلك الجيل كان ميخائيل نعيمة من المحظوظين القلائل جداً الذين ارتادوا مكاناً ينطبق عليه اسم مدرسة بالمعنى الحديث. فهو الوحيد الذي تحدث عن بناء ضخم مسقوف بالقرميد، تتسع أمامه ساحة للعب الأطفال. ولكننا هنا أمام مدرسة روسية أجنبية، لم يكن لها أية علاقة بالمدارس العربية التي تحدث عنها أدباؤنا الآخرون.

قسوة ينفطر لها القلب

الموضوع الثاني الذي بقي خالداً في ذاكرة الأدباء العرب من مدارسهم الابتدائية هو العقاب والقسوة في تنفيذه على أبدانهم الصغيرة. حتى أن الأديب أحمد السباعي أهدى سيرته الذاتية إلى "من جهل أثر التربية العالية في إعداد الجيل... إلى من ظن النجاح في أساليبها القاسية". وحين يتذكر السباعي طرق التدريس والتربية آنذاك يبدو مؤرقاً من بدائية العلم وأساليبه فيقول: "كان سيدي الفقيه حازماً بكل معاني الحزم الذي يفسره أبي؛ لأن الحزم الذي يعني التبصر في الأمور كان لغة لا يرقى إليها إلا الندرة من آباء عهدنا ومعلميه.." وأما القاعدة التي كانت شائعة لدى الشيوخ المدرسين في الحجاز ونجد والأحساء فتقول حسبما يورد السباعي: "ربِّ ولدك وأحسن أدبه، ما يموت حتى يفرغ من أجله.." أي أن القسوة كانت تصل إلى حدود تستوعب الطمأنة إلى أن التلميذ لن يموت نتيجة العقاب..!

وعندما نتصفح سيرة علاّمة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر في "سوانح وذكريات" التي نشرها تباعاً في "المجلة العربية"، نراه يرسم صورة المعلم التي كانت تثير الرعب في نفسه. ورغم أنه تحدث عنها باحترام، فهو لا يتجاهل أخطاءها، ونفور أجيال متعاقبة من التعليم نتيجة للخوف من المعلم وسطوته وعقابه الذي يدوي في الجسد.

ويشبه توفيق يوسف عوّاد العصا التي يمسك بها الأستاذ بعصا الموسيقار بيتهوفن. ولكن صاحب هذه العصا كان على استعداد دائم "لأن يترك الفن، ويعود عند أول بادرة إلى وظيفته الأساسية وهي الضرب"!

ويتذكر الأديب اللبناني أنيس فريحة عندما انتقل إلى صف "المعلم نجيب"، أن هذا الأخير كان يحب الإعراب، وطلب إليه أن يعرب جملة فيها كلمة وتظهر في آخرها علامة الإعراب للتعذر. فكان المعلم يصحح لفريحة قائلاً: "... لم تظهر للتعذر، منع ظهورها للتعذر"! فلم يفهم فريحة وكرر خطأه الأصلي. وأخيراً، أنزل الأستاذ نظارته إلى أرنبة أنفه، ولوّح بقضيب الرمان وصاح: "للتعذر يا حمار!" وتحت وطأة الرعب من القضيب كرر فريحة: "للتعذر ياحمار! للتعذر يا حمار!" فضج الأولاد بالضحك. وبعدها بثوانٍ كان قضيب الرمان يلهب جسده ضرباً.







مارون عبّود — المحترف السعودي

حمد الجاسر — المحترف السعودي

طه حسين — أرشيف جريدة السفير

وفي مكان آخر، يصف فريحة كيف امتنع عن الذهاب إلى المدرسة ذات يوم مخافة أن يُعاقب بعد أن جاء المفتش إلى المدرسة، وفشل هو أمام المفتش في أن يحل مسألة حسابية واحدة بطريقة صحيحة، تحت أنظار المعلم نجيب المهدد والمتوعد ولا يجرؤ على ضربه أمام المفتش. فهرب في اليوم التالي إلى البساتين بدلاً من الذهاب إلى المدرسة وهو يشتم الحساب "الذي فيه كسور من نوع الزلطة والنصف والربع..".

أرشيف جريدة النهار

وفي حالات الجرائم الكبرى

وتعبير "الجرائم الكبرى" هو لمارون عبود الذي يقول إن عقابها كان "الفلق". والفلق في مصر وبلاد الشام واحد. ويصفه أحمد أمين في كتابه "حياتي" بأنه عصا غليظة معلقة بمسمار كبير على حائط الكتّاب، يزيد طولها قليلاً عن المتر، وفيها ثقبان ثبت فيهما حبل. وهكذا إذا أراد "السيد" معاقبة ولد من الأولاد، أدخلت رجلاه في هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة. فلا تستطيع القدمان الحركة، وينزل هو عليهما بالضرب.

ويضيف أحمد أمين أنه في الكتّاب الثاني الذي ذهب إليه، كان هناك "سيد" غريب الأطوار، يعقل حيناً ويجن حيناً، ويشتد ويلين، ويضحك ويبكي. ولا يذكر أمين ما الذي فعله عندما نادى "السيد" ولدين قويين أدخلا رجليه في الفلقة، وأمسك بعصا من جريد النخيل، وأخذ يهوي بها على قدميه بكل قوته، حتى شق قدماه شقاً طويلاً، وتفجر منهما الدم. وبعدها سلمه إلى هذين الولدين يحملانه إلى بيته. وكان هذا آخر عهد له بهذا الكتّاب.



أرشيف جريدة النهار

المبنى المدرسي بشكله الأول أسس مفاهيم "المدرسة" و"الفصل" و"المنهج" و"الأستاذ" و"الطابور" .. والعنف المدرسي!

الحكاية نفسها تتكرر في ذكريات سهيل إدريس الذي روى كيف أنه وأخاه امتنعا عن الذهاب إلى المدرسة نهائياً بعد "حفلة الفلق" التي تعرض لها أخوه في الكتّاب الذي كانا يرتادانه.



أرشيف جريدة النهار

أرامكو السعودية

أرامكو السعودية

التنمية البشرية مرّت من هذه المرحلة البدائية

وفي الجزيرة العربية لم يكن الوضع مختلفاً في شيء عمّا هو في مصر وبلاد الشام. فالأديب السعودي محمد بن سعد بن حسين يروي في مستهل سيرته "من حياتي" ما كان يجري له على يد عمه الذي يدرّسه القرآن. فحين اكتشف العم أن تلميذه الذي لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره، قد نسي بعض الآيات القرآنية التي سبق له أن حفظها، غضب غضباً شديداً وضربه ضرباً لم يُمح أثره. وقد بلغت القسوة في العم الأستاذ وحرصه على تحفيظ القرآن لابن أخيه حد المغالاة. فكان ينام هو في حجرة المسجد ويترك تلميذه في البرد الشديد في الخارج ليقرأ بصوت عالٍ. وإذا خفت صوت التلميذ أو توقف عن القراءة، ضربه.

كثير من المشاعر وقليل من الرحمة

ولا تكتمل صورة "رحلات الشقاء" في مدارس أيام زمان، إلا بالإشارة إلى أن القسوة في معاملة الأساتذة لتلاميذهم لم تكن تقتصر على التحفيظ بالقوة، ولا على العقوبات البدنية، بل شملت أيضاً تغييباً لكل ما يدخل ضمن الاحتياجات النفسية والإنسانية للتلاميذ.

فقد عاش مارون عبود في مدرسة داخلية كان يدخلها في منتصف أكتوبر ولا يخرج منها إلا في منتصف يوليو من العام التالي، حيث "لا فرص ولا إجازة ولا من يحزنون". فلم يكن هناك من يأخذ بعين الاعتبار إحساس الأولاد بالشوق إلى ذويهم، ولا شعورهم بالخوف من عصا المعلم والفلق، ولا من يهتم إذا كانوا يحبون مدرستهم أم لا. وما من أحد كان يشعر "بالأرواح الميتة والنفوس الكسيرة" التي تحدث عنها أحمد أمين في "حياتي".

الحفظ غيباً ولو من دون فهم كان أساس التعليم، ومن نوادره ما هو طريف وما هو مؤثر

ويستعيد مارون عبود في ذكرياته أول مدرسة داخلية ذهب إليها، فيقول إنه عندما ذهب مع رفاقه للعب في إحدى الساحات القريبة، أتت والدته لتراه وهي تحمل صينية عليها "الفول الأخضر واللوز الفريك، والتبولة مع ورق العنب". وطلبت الوالدة من "حضرته"، أي الأستاذ، أن يسمح لابنها بربع ساعة ليرى إخوته الصغار. فرفض، وقال للوالدة إن القانون مقدس، وإن العلم لا يتسع لشيء آخر معه، وإن رؤية الأخوة سوف تشغل بال تلميذه أسبوعاً. وطلب منها أن "تترك الصبي يتعلم". وبعد ذلك قال لها إن تموز (يوليو) قريب. وما بقي له سوى ثلاثة أشهر ونصف الشهر.

ويضيف مارون أنه عندما نظر إلى والدته وهي ذاهبة، زجره الأستاذ كما يزجر المعّاز عنزة خرجت عن الصف، ويقول إنه شتم الأستاذ، ولكن في قلبه.

وهذا أنيس فريحة يقول إنه ورفاقه كانوا يكرهون المدرسة؛ لأنه لم يكن في المدرسة ما يحببها إلى نفوسهم. ولم يكن في البيت ما يحبب الذهاب إلى المدرسة. فكانت شيئاً ثقيلاً ومكروهاً، وكانت "سجناً يقيّد في الأطفال كل خيال، وزريبة تقتل في الأطفال كل ذوق". ويرى أن المعلم يحمل بيده قضيب رمان ليقتل به كل رغبة في الدرس. ولعل فريحة كان أكثر الأدباء قسوة في الحديث عن مدارس أيام زمان، وفي رسم أكثر الصور سوداوية لها فهي: سجن، زريبة، قضيب رمان، غرفة عتمة، دخنة ذات رائحة كريهة، ويستغرب كيف أنه تعلم وحفظ واستوعب.

المضحك المبكي في الحفظ والاستيعاب

كان أسلوب تلقين التلاميذ دروساً يحفظونها غيباً، ومن غير فهم لها في معظم الأحيان، هو الأسلوب المعتمد في معظم المدارس.

وينقل إلينا ميخائيل نعيمة صورة واضحة عن سبل التلقين في ذلك العصر، فيقول: "إن جاءت ساعة الدرس، هزّ المعلم عصاه وضرب بها الطاولة أمامه، ثم قطّب حاجبيه وصاح: اسكتوا! فيسكت التلاميذ. ومن ثم يصرخ ثانية ليأمرهم بأن يفتحوا الكرّاس على الصفحة الأولى، وأن ينغّموا مع الأستاذ بملء صوتهم:
ألف - با - تا - ثا - جين - حا - خا
ومن ثم يعيدونها حتى يحفظونها عن ظهر قلب. فمن أخطأ تناولته العصا. ومن أجاد، كافأه بقوله: "عافاك، اقعد".

ويؤكد ذلك مارون عبود بالقول إنهم كانوا في ذلك الزمان يعتمدون على الذاكرة يحشون من خلالها عقل الطالب بمحفوظات لا أول لها ولا آخر، شعراً ونثراً من كل عصر، والويل لمن يلحن أو يخرم حرفاً أو يخطئ في حركة".. فتقلع عينه وتصلب وتصلم أذنه".

وكان المتقدمون من الطلاب يتعلمون النحو عن ألفية ابن مالك. شعرٌ منظوم يحفظه التلميذ كالماء الجاري. أما شرح المعلم للألفية فيصفه عبود على الشكل الآتي:

"يقول المعلم أولاً بيت ابن مالك بكامله:

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ
واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكَلِم"

ثم يشرح الأستاذ قائلاً: يعني كلامنا لفظ مفيد مثل "استقم". وينتقل إلى الشطر الثاني فيقول: معنى هذا الشطر الكلم اسم وفعل وحرف. فهمتم يا أولادي؟ فنجيب بصوت واحد: نعم يا معلمي!
- طيّب، عافاكم، عافاكم.
وينتقل إلى درس آخر."

وتمضي السنة على ذلك المنوال، حيث يستمر الأستاذ في إلقاء ألفاظ على مسامع التلاميذ "يضل في واديها الشنفرى ويتيه امرؤ القيس".

ومن الحكايات الطريفة التي يرويها عبود في هذا المجال واحدة تقول إنه عندما حلّ مطلع العام، فرض عليهم الأستاذ أن يكتبوا رسالة إلى آبائهم للمناسبة. فراح التلاميذ يحكّون رؤوسهم فلا يخرج منها شيء، فهرعوا إلى الكتب المخصصة للمراسلات، حتى إذا وقعوا على الرسالة المطلوبة نقلوها "بكل أمانة" وبعثوا بها إلى أهلهم. وهنا واحدة من هذه الرسائل الطريفة التي نقلها رفيق لعبود عن تلك الكتب ووجهها إلى والده:

"والدي العزيز، بعد لثم يديكم وطلب رضاكم الأبوي على الدوام، أحاول أن أكتب إليكم فيفت في عضدي لأن باعي قصير. ولكن شوقي إلى محياكم يجري قلمي في هذا المضمار..." إلى أن يقول -طبعاً نقلاً عن كتاب المراسلات- "نحن متوجهون نهار الخميس القادم إلى طرابلس الفيحاء". ثم نقل خاتمة الرسالة "بشحمها ولحمها"، وبعث برسالته هذه إلى والده، فوصلته مساء الأربعاء. عندما قرأ الوالد الرسالة اضطرب، وشغلت باله عبارة "فُتَّ في عضدي وباعي قصير". فخشي أن يكون ولده قد أصيب بمكروه فتَّ عضده وقصّر باعه! وازداد الرجل اضطراباً حين علم بأن ولده متوجه إلى طرابلس. وهكذا توجه الرجل إلى طرابلس على ظهر البغلة، حتى كان عند فجر اليوم التالي على مشارف المدينة. وأخذ يفتش عن ابنه "المحروس" في الشوارع والأزقة. وعندما تعب قصد المدرسة، فوجد ولده بخير، فحمد الله وسأل ابنه "متى رجعت من طرابلس؟" فهزّ الفتى كتفيه وقال: "أية طرابلس؟" وقال التلميذ النجيب "هذا مكتوب في الكتاب". وكانت دقيقة صمت جزم الوالد فيها أن تعبه غير ضائع، وأن "المحروس" سيكون من النوابغ إن عاش.

وترك لنا الأديب السعودي حسين سرحان شهادة حول طريقة تدريس الخط العربي الذي كان مادة أساسية في ذلك الزمان. وكتب في الجزء من سيرته الذي خصصه بـ "أيام التلمذة" يقول: "..كان أستاذ الخط حينذاك الشيخ سليمان غزاوي، وعلى أنه قد أوهنه الكبر وأصبحت يداه ترتعشان عند الكتابة، إلا أن خطه كان فاتن الجمال... كانت (الريش) بكسر الراء المشددة وفتح الياء، محرمة علينا، وكنا لا نكتب إلا بأقلام البوص بعد أن نبريها أو تُبرى لنا، وكانت الطريقة السائدة في الخط أيامها أن نشتري كراريس نجيب هواويني، خطاط القصر الملكي بمصر، ونحاول تقليد الأمشاك على مختلف الخطوط من رقعة، وفارسي، ونسخ، وكانت الأمشاك تحتوي على حكم



للبنات نصيب مبكر من التعليم البدائي

تقليدية سائدة وأمثال مشهورة على ألاَّ تتجاوز مسافة السطر الواحد."

ويضيف سرحان: "والذي لا يجيد تقليد المشك يفرض عليه أن يعيده مئات المرات. لا يتجاوزه إلى غيره حتى يتقنه أو يكاد، فنجد أحدنا إذا أنزلت به هذه العقوبة منعزلاً عن بقية التلاميذ، وأمامه أكداس من فروخ الورق وأقلامه، يبريها ويقطعها مرة بعد مرة، ثم يغمسها في دواة الحبر الأسود، وقد نسيت العناصر التي يتكون منها ذلك الحبر وكيف كان يُصنع؟ سامح الله الشيخ الغزاوي. فقد أذاقني حلاوتها عشرات المرات ولا أحتاج أن أشير إلى بلادة الطبع المتأصلة فيّ مع غير قليل من الشراسة".

أما أحمد أمين فيتذكر أنه ختم في الكتّاب ألف باء على طريقة عقيمة جداً، فأول درس كان ألف "ألف لام فاء"، وهو درس حفظه ولم يفهمه إلا وهو في سن العشرين، إذ كان معنى ذلك أن كلمة الألف مركبة من ألف ولام وفاء، ومن أجل ذلك كره الكتّاب والتعليم و"السيد". ويقول إنه تنقل في أربعة كتاتيب من هذا القبيل كلها على هذه الصورة، لا تختلف إلا في أن الحجرة واسعة أو ضيقة، وأن السيد ليّن أو شديد، وأنه أعمى العينين أو مفتوح العينين، أما أسلوب التعليم فواحد في الجميع.

ولمحمد بن سعد الذي كان ضريراً تجربة فريدة ومؤثرة مع حفظ النصوص غيباً مع زملائه في الدراسة فيقول: "كنّا نقتسم المتون التي نحضر فيها على العلماء، والمتون الأخرى التي نصطفيها تزوداً، فأحدنا يتكفل بحفظ ألفية ابن مالك في النحو، وآخر يحفظ نظم الرحيبة في الفرائض وثالث يحفظ نظم مفردات الإمام أحمد بن حنبل ورابع يحفظ متن ملحمة الإعراب في النحو. ثم يبحث كل واحد منا عن أحد المبصرين ليحفظه خمسة أبيات من الفن الذي تكفل بحفظه. وهكذا، حتى إذا جاء المساء، اجتمعنا ليحفّظ بعضنا بعضاً، وهكذا حتى نحفظ كل هذه المتون".

هكذا كانوا يعلّمون ويتعلمون في ذلك الزمان. ولكن، كما يقول مارون عبود "من عقم هذا التعليم أنبتت البلاد رجالاً كان لهم شأن مذكور في تاريخنا. استفادوا وأفادوا لأنهم أرادوا. والإرادة أُمّ الإبداع".

اقرأ للثقافة

السيرة الذاتية في الأدب السعودي

"السيرة الذاتية في الأدب السعودي" هي أول دراسة من نوعها تركز اشتغالها على هذا الموضوع في الأدب السعودي. وقد صدرت في كتاب تجاوزت صفحاته 750 صفحة، عن دار المعراج الدولية عام 1998م. وفيه قدم الدكتور عبدالله الحيدري قراءة لما كتبه الأدباء السعوديون لقرائهم من سير ذاتية، جامعاً شتات ما تفرق في المؤلفات الخاصة أو المقالات الصحافية المتناثرة. وقد اهتمّ المؤلف بمفهوم "السيرة الذاتية" وتطوره باحثاً في التباسات المصطلح، وعلاقته بما يسمّى "الترجمة الذاتية" وأشكالها المتنوعة. كما درس هويّات كتّاب السير، وسماتهم الشخصية، والأوضاع الزمنية التي عاشوها، وتأثرهم ببيئاتهم الاجتماعية ومكوّناتها التي أسهمت في بناء ثقافتهم وانعكاسها على نتاجهم الإبداعي.

الجانب القصصي واحدٌ من القضايا المهمّة التي طرحها الحيدري، فهو "يطغى على السير الذاتية"، وهذا ما يُعدّ تداخلاً يبرّر ما يراه بعض النقاد من تدخل جنس القصة الطويلة أو الرواية السيرية التي تقدم حكاية كاملة متجانسة بأبعادها وظروفها الزمانية والمكانية، الأمر الذي حقق مفهوماً لمعنى الرواية المفتوح الذي يناقشه كثير من المعنيين بالرواية في الوقت الراهن، بحسب ما تطرحه بعض أفكار النقد الأدبي الحديث.

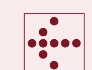
وقد توسّع المؤلف في تناوله بعض الشخصيات الأدبية السعودية، إذ أفرد جزءاً كبيراً للأديب أحمد السباعي الذي كتب سيرته الذاتية في شكل قصة مطوّلة سماها (أيامي) كما أعطى مساحة عريضة لما كتبه الشيخ حمد الجاسر عن سيرته في حلقات نشرها في المجلة العربية تحت عنوان (سوانح الذكريات).

وفي المقابل لم يصل التوسع مداه عند شخصيات أخرى، وربما كان ذلك راجعاً إلى عدم رواج السير الذاتية لدى الأدباء السعوديين بما يكفي. إلا أن المُجمل، في هذا العمل الأدبي المهم، هو أنه فرض نفسه مرجعاً للباحثين بكونه خامة أولية لدراسات أكثر جدية وتعمّقاً، وبكونه، أيضاً، قدم عملاً أصيلاً ورصيناً في تقييم السير الذاتية لأدباء المملكة، خاصة أن العناية قليلة بهذا الجنس من الدراسات، على الأقل في السعودية.

وما يزيد من قيمة الكتاب البحثية، أنه ليس مؤلفاً تاريخياً بالمعنى الذي ينحصر في تقصي مراحل حياة الأدباء بهدف تأريخ تفصيلات حياتهم ولادة ودراسة ونشأة وتكويناً، كما تهتمّ كتب السير والتراجم. بل يدرس الكتاب السير الذاتية التي أعدها الأدباء عن أنفسهم، بما انطوت عليه من ذكريات شخصية وثقافية، وعلى نحو خاص ذكريات الدراسة الأولى.

لامية العجم..

يعتبر مؤرخو الأدب العربي "لامية العجم" واحدة من عيون الشعر العربي القديم، ويرون فيها أهم ما في شعر الحسين الأصبهاني المعروف بـ "الطغرّائي"، استناداً إلى ما تمثله من تجربة وما تقدمه من موقف حيال الحياة والواقع والذات. فيما يلي مراجعة لها وتأمل قيمتها النفسية لدى شاعرٍ تقلّبت به الأحوال، وخذلته الأحداث..



ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل..!

استناداً إلى الشهرة؛ تبدو هذه الحكمة من بنات أفكار أبي الطيب. لكن المتنبي مات قبل ولادة صاحب "فسحة الأمل" بقرن كامل في أقلّ تقدير..! ولكن هناك علاقة واضحة بين الشاعرين العربيين، فكلاهما غرق في ذاته حدّ التناقض الحادّ بين حقيقة "الواقع" و"فسحة" الأمل/ الحلم..! وكلاهما تكسّرت أحلامه على صخرة الواقع، وكلاهما وجد في الشعر ملاذاً لتوثيق الوجع الخاص في مواجهة الحقائق العامة..!

المتنبي أراد "المنصب" إلى أن لقي حتفه قتيلاً. أما الحسين بن على بن محمد الأصبهانى الشهير بـ "الطُّغُرّائي"؛ فقد كان ذا منصب، وبسبب منصبه لقي حتفه.. وقتيلاً أيضاً. وإذا كان المتنبي قد مات ثمناً لطول لسانه، فإن الطُّغُرّائي مات ثمناً لطَول يده في سلطنة مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وفي أتون تطاحن سياسي بينه وبين أخيه محمود، تطوّر التطاحن إلى مواجهة عسكرية في همذان انتهت بهزيمة السلطان مسعود، وتصفية أعوانه ووزرائه.. وبالطبع كان الطغرائي واحداً منهم..!

هذا ما يقوله التاريخ؛ لكن التاريخ، أيضاً، يسوق رواية أخرى تقول إن التصفية كانت سياسية، فالسلطان المنتصر عفا عن الحسين الأصبهاني ليموت منكسراً ضعيفاً، بعدما عاش قوياً متنفذاً، منصباً بعد منصب..!

وهذا هو المرجّح استناداً إلى ما سجلته "لامية العجم" من انكسارات حادة، في نفسية الشاعر الذي أنفق صفوه في أيامه الأُوَل، مشغولاً بمنصب الكاتب الرسمي للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مدة ملكه كلها، ومن بعده ابنه مسعود.

لامية العجم.. لامية العرب..!

أنهى الحسين الأصبهاني قصيدته، وسمّاها "لامية العجم"، مجاراة للشاعر الجاهلي "الشنفرى" الذي عرف له العرب قصيدة "لامية العرب". ويبدو أن صلة الشاعر بسلاطين السلاجقة، هي دافع التسمية. لكن القصيدتين تلتقيان في قيمتين مهمتين في المضمون الشعري:

كلتا القصيدتين نابعة من روح ذاتية معتدّة بنفسها، ولهذا فإنهما تنتميان إلى قصائد الفخر.

وكلتاهما اعتنت بتسجيل الغربة والرغبة الصارخة في الرحيل.. يقول الشنفرى:

أقيموا بني أمي ظهورَ مُطيّكمْ
فإني إلى قومٍ سواكم لأميَلُ

ويقول الحسين الأصبهاني:

فيم الإقامة في الزوراء لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي؟
إن العلى حدّثتني وهي صادقة
فيما تحدّث أن العزّ في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

التقى الطغرّائي والشنفرى، أيضاً، في تقاطع حيوي من اهتمامات الشاعر العربي الذي كانت "أناه" محرّضاً لشاعريته، وباعثاً على التعبير المادح للذات. لقد فجّر الشاعر العربي فلسفة "الذات أسمى من الآخر" على عرض تاريخ الشعر العربي وطوله، وتوارث الشعراء هذا النسق الصارخ إلى حدّ اختلاط الحقيقة النفسية بالواجب الفني..

الذات الشاعرة

والطغرّائي استفاد من هذا الموروث منذ مطلع القصيدة، وعلى نحو جعل من نفسه إنساناً في حماية من الخطل..

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرعٌ
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

إلا أن هذا الاعتداد بالمجد، بداية ونهاية، سرعان ما ينكسر على صخرة الحقيقة التي وقف فيها الشاعر وحيداً شاكياً متوجعاً:

ناء عن الأهل، صفر الكف منفردٌ
كالسيف عُرِّي متناهُ عن الخلل
فلا صديقَ إليه مشتكى حَزَني
ولا أنيسَ إليه منتهى جذلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني
من الغنيمة بعد الجهد بالقفل

ولهذه الشكوى أسبابها الواقعية، ولكنّ الطغرّائي له أسبابه النفسية، فهو يربطها بالحظ العاثر، ويشاهد نفسه أقلّ قدراً من الجُهّال في زمنه الصعب:

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً
والحظ عنيَ بالجهّال في شغل
لعله إن بدا فضلي ونقصهمُ
لعينه نام عنهم أو تنبّه لي
تقدمتني أناسٌ كان شوطهمُ
وراءَ خطويَ لو أمشي على مهَل
هذا جزاء امريء أقرانه درجوا
من قلة فتمنى فسحة الأجل..

مقاومة..

ويتمتع الشاعر بروح مقاومة مردّها إلى الكبرياءِ الشاعرة، وهي كبرياء ترفض الخضوع للواقع، بل تحاول تعديله، وقراءته من زاوية أخرى:

غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتها
فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وإن علانيَ من دونيْ فلا عجبٌ
لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل..!

المقاومة النفسية للواقع، تحرّض على المغامرة والدخول في الصعاب، ذلك أن الجمود حالة فارغة تؤول بالمرء إلى الخوف والخنوع والكسل:

حب السلامة يثني عزم صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً
في الأرض أو سلما في الجو فاعتزل

ودع غمار العلى للمقدمين على
ركوبها واقتنع منهنّ بالبللِ

وبما أن لكل تجربة خلاصة ونتيجة؛ فإن صاحب لامية العجم استنتج الكثير من تجاربه المؤلمة، لكنّ أكثر تلك النتائج وضوحاً وصراخاً هو ذلك التشكّي من الغدر والخيانة التي تأتي من أقرب الأقربين ثقة:

أعدى عدوّك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخَل
فإنما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعوّل في الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالأيام معجزة
فظن شراً وكن منها على وجل
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت
مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبُهمُ
وهل يطابَق معوجّ بمعتدل
إن كان ينجعُ شيءٌ في ثباتهمُ
على العهود فسبْق السيف للعذَل

خضوع

وعلى الرغم من كل هذا التبرم والسخط؛ فإن ما يستقر في نفس الطغرائي هو قليل من الأفكار الداعية إلى الهدوء والقناعة والتعايش مع الواقع:

يا وراداً سؤر عيش كله كدرٌ
أنفقتَ صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه
وأنت تكفيك منه مصّة الوشل..؟
ملك القناعة لا يُخشى عليه ولا
يُحتاج فيه إلى الأنصار والخولِ
ترجو البقاء بدار لا ثبات بها
فهل سمعتَ بظل غير منتقل

البارحة

د. عبدالله الفَيْفي

هنا وقفتُ البارحةْ ..
هنا وقفتِ البارحةْ..

والبارحاتُ مرّتْ يا حبيبتي .. والحُبُّ مرّ
كأغنياتِ مِعْوَلٍ(1)
تسيلُ في مدارجِ الفَضاءْ
عَطْشَى تَشِيْمُ دمعةَ الـ(دّ)ماءْ.

أقلتُ "ماء" أم "(د)ماء"؟!
ففي مَدَى الدالِ تدولُ بيننا الدُّوَلْ
وكالغناءِ في الصَّباحِ
يولدُ العَناءُ في المساءْ
وثَمَّ دالٌ تَرشُقُ الحياةَ دائمًا بلثْمَةِ الفَنَاءْ

....

لا شيءَ هاهنا يَعِيّ التفافَ العُمْرِ في مساربِ الشَّجَنْ



وأنتِ يا حبيبتي
وجذوة الوقتِ المقيم بيننا..
وذاك الشعر والوطَنّ..
خرائطُ الفِتَنْ!

لا شيءَ يا حبيبتي
لا شيءَ يا حبيبتي
يردّ شيئًا لم يَشَأْ ولم يَحِنْ
لا شيءَ يا حبيبتي
يردّ شيئًا لم نَشَأْ
ولم نُردْ له بأنْ يَحِيْنْ
ولم نَحِنَّ، نحنُ، يا حبيبتي،
نَحنّ، نحنُ، يا حبيبتي،
لهُ بأنْ يحينْ
ليَشْرَئِبَّ من دفاترِ السنينِ غُصْنُهُ..
لو بَعْدِ حينْ

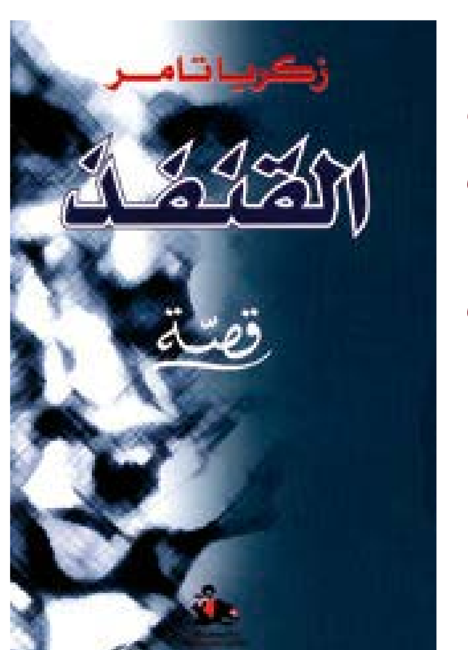
....

وآه يا حبيبتي لو تعلمينَ..
آهِ يا حبيبتي لو تعلمينْ!
فكلما رأيتُ شال هذا النهرِ
ينثني على الضياءْ
والآبنوسُ غيمتانِ
حفَّتا الرخامَ كالجنينْ
وطافت الأناملُ الحريرُ تغزلُ المساءْ
كحُمْرَة
يذوبُها في القُبلة الأولى مهاجرٌ حزينْ
وبين راحتيكِ نامتْ أحجياتُ الحُبِّ والغناءْ
والوجدُ راحَ يبتني على النسيم مَوْعِدَهْ
وحدَّثتْني من جديد قولهَا غيرَ المُباحْ
روائحُ الخُزام والبَشَام والأقاحْ..
شظّتْ مرايا الليلِ فيكِ
ن/ ش/ و/ ةُ ا/ ل/ ص/ ب/ ا/ حْ
ودَوَّمَتْ تجاعيدُ الثوانيّ
ب . ا . ر . ح . ةْ

(1) طائر يصيح في أيام القحط بصوت حزين، كأنه العويل؛ ومن هذا لعلها اشتقت تسميته بـ"مِعْوَل". وتزعم الحكاية الشعبية في موطن الشاعر أنه إنما يستدرُّ السماءَ لتُمطرَ، فيظلّ في صياحه هذا حتى تنزل له من السماء قطرةُ ماءٍ، لتَخْرُجَ منه وقد صارت قطرةَ دم.

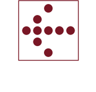
بعد نصف قرن من عطائه في حقل القصة القصيرة، خاصة الموجهة إلى الأطفال، ها هو القاص السوري زكريا تامر الذي ترجمت أعماله إلى أكثر من عشر لغات، يستعيد أجواء طفولته ليكتب ما يشبه السيرة الذاتية في قصة "القنفذ"، ولكن عبر عين الفتى الصغير الذي يوليه مهمة السرد، جاعلاً منه راوياً بريئاً جداً في نظرته إلى الحياة والعالم والطبيعة.

الزميل عبده وازن يعرض قراءاته لهذه القصة، ويختار لنا قصتين منها.



"القنفذ"

زكريا تامر يستعيد طفولته



في "القنفذ" وجهة نظر شاءها زكريا تامر نقية وصافية لأنها وجهة نظر طفل يختبئ وراءه الكاتب الذي بلغ من العمر عتياً وكأنه والد هذا الطفل الذي كانه ذات يوم. هذا ما يحصل عادة في السير الذاتية عندما يستعيد الكاتب طفولته وهو على شفا الشيخوخة. لكن القاص السوري الرائد لم يكتب سيرة تقليدية أو كما تفترضها المعايير الأدبية، بل اختلق أو أعاد اختلاق طفولته، مضيفاً إليها ملامح أخرى ومشذباً بعض تفاصيلها ليجعل من الطفل – الراوي شخصية قائمة بذاتها، سواء أمثلته طفلاً أم لم تمثله تماماً.

قصة أم رواية؟

إلا أن اللافت أن المؤلف يسمي كتابه هذا، الذي صدر حديثاً عن دار رياض الريس، بـ "القصة" فيما هو مجموعة قصص أو لوحات تتوالى من خلال راوٍ وحيد يحضر في كل لوحة أو متوالية سردية. ولا يخفي زكريا تامر في هذه "القصة" الطويلة مقاربته الفن الروائي ولا سيما في النهاية عندما يعمد في اللوحة الأخيرة، وعنوانها "سألت"، إلى كسر البنية السردية من خلال الراوي نفسه وقد أصبح كبيراً ينظر إلى ابنه نظرته إلى الطفل الذي كانه بنفسه. والغريب أن السرد يتولاه الراوي نفسه، أي الطفل الذي أصبح رجلاً. ترى هل يمكن تسمية "قصة" زكريا تامر بالرواية القصيرة أم بالقصة الطويلة؟ ربما هنا تكمن فرادة هذا الكتاب الذي تشبه "مادته" القصصية عالم زكريا تامر وتختلف عنه في الحين نفسه.

فهو لا يتخلى عن مفهوم "اللحظة" السردية التي تميز القصة القصيرة عادة، لكنه يحولها "لحظة" قائمة أو مستعادة باستمرار، لوحة تلي أخرى، أو متوالية تلي متوالية. وهنا تمكن العودة إلى وصف الروائي الأمريكي وليم فولكنر لمفهوم القصة عندما قال: "القصة هي تبلور للحظة اختيرت اعتباطاً، حيث الشخصية في تنازع مع شخصية أخرى أو مع بيئتها أو مع نفسها". هذا الوصف ينطبق تماماً على قصص زكريا تامر عموماً وعلى اللوحات التي تضمنتها قصته الطويلة "القنفذ". لكن اللوحة الأخيرة التي كسرت فعل السرد زمنياً ومكانياً استطاعت أن تمنح هذه المتواليات صفة أخرى، تقترب من الصفة الروائية ولكن من غير أن تكون روائية تماماً. وإذا كان مفهوم القصة غامضاً دوماً أو غير واضح، كما يقول الناقد الفرنسي ايتامبل، فهو "يفترض الاختصار والتوتر الدرامي والحدث اللامتوقع والشخصيات القليلة". وهذا أيضاً ما ينطبق على قصص تامر ومنها قصته "القنفذ" المتشظية سردياً. وقد يكون نعت هذه "القصة" الطويلة بالرواية التجريبية خير جواب عن السؤال الرئيس الذي تطرحه شكلاً وبنية! إنها قصة من قصص بل قصص في قصة واحدة، يربط بينها خيط وحيد هو الراوي الذي سينتقل انتقالاً مفاجئاً من الطفولة إلى الكبر، أي من الماضي المستعاد إلى الحاضر المرتكز إلى ماضيه.

متواليات سردية يختلط فيها الواقع بالمتخيل

تتألف قصة "القنفذ" من اثنتين وعشرين متوالية سردية يستهلها تامر بنص بديع، طفولي المنبع، يمتزج فيه المتخيل بالواقعي، عنوانه: "صديقتي التي لا تُرى". و"الصديقة" التي يحكي الفتى الصغير عنها ليست سوى "جنّية" طفلة يتوهم وجودها ويمضي في حوار معها، كأن يقول لها: "أنا لا أراكِ، أين أنتِ؟" فتجيبه: "أنا قربك ولا تستطيع أن تراني...". وتخبره أنها وعائلتها تقيم في المنزل نفسه قائلة له: "بيتكم بيتنا وغرفه غرفنا". لكن الفتى الغارق في الحلم أو الوهم تجده أمه قاعداً على الأرض يحاكي نفسه فتدعو له. وتنتهي هذه اللوحة نهاية بديعة على لسان الطفل: "لم أعد أنام في غرفتي في وسط السرير كعادتي، وصرت أنام على قسمه الأيمن، تاركاً القسم الأيسر منه فارغاً حتى يستطيع الراغب في النوم أن ينام براحة".

قد تختصر هذه "المتوالية" أو "اللوحة" الجو الذي يزيّن "القصة" الطويلة المتقطعة، سواء في نزعتها الطفولية

زكريا تامر

- زكريا تامر، مواليد دمشق عام 1931م.
- يكتب القصة القصيرة والخاطرة الهجائية الساخرة منذ عام 1957م.
- يكتب القصة الموجهة إلى الأطفال منذ عام 1968م.
- عمل سابقاً في وزارة الثقافة ووزارة الإعلام في سورية، ورئيساً لتحرير مجلة "الموقف الأدبي"، ومجلة "أسامة"، ومجلة "المعرفة".
- ترجمت كتبه القصصية إلى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والبلغارية والروسية والألمانية والصربية والكاتالونية والمجرية.
- صدر له: صهيل الجواد الأبيض، ربيع في الرماد، الرعد، دمشق الحرائق، النمور في اليوم العاشر، نداء نوح، سنضحك، الحصرم، تكسير ركب، هجاء القتيل لقاتله.

التي تخفي الكثير من الرهافة والشفافية والوعي الجمالي أم في طابعها المتخيل الذي تختفي ازاءه الحدود بين الواقع واللا واقع. إلا أن "الطفل" هذا لن ينحصر وجوده داخل المنزل والأسرة والحديقة، بل سيخرج قليلاً إلى "الحياة" أو "العالم" الصغير الذي هو عالم القرية، ليكتشفه ويعيد اكتشافه. ويلجأ في النهاية إلى المنزل والحديقة اللذين يجسدان عالمه المثالي.

بيت دمشقي وعالم ساحر يذكرنا بـ "الأمير الصغير" و"أليس في بلاد العجائب"، لكنه أقرب إلى الواقع

ومثلما حاور الفتاة – الجنية سيحاول في لوحة "النيام" أن ينصت إلى شجرة النارنج المزروعة في باحة البيت مع أشجار أخرى (الليمون الحلو، الليمون الحامض، الكبّاد...). وعندما لا يسمع قلب الشجرة يخفق يقول لنفسه إن الشجرة نائمة وإن قلبها ينام معها. ثم يكتشف أن الماء نائم في الأنابيب وأن القطة نائمة والحيطان والأرض... لكنه يدرك أن الهواء ليس نائماً فيشبّه نفسه بالهواء هو الذي يقول عن نفسه "لست نائماً ولا مستيقظاً" وكأنه يود أن يقول في منحى آخر إنه في حال من التداعي بين اليقظة والنوم. وفي نص عنوانه: "شجرة جديدة في باحة بيتنا" يسعى الطفل إلى أن يصبح شجرة فيصف نفسه واقفاً على التراب حافياً بين شجرتي النارنج والليمون راغباً في أن يصير شجرة ومقتنعاً بأن جذوراً ستنبت في باطن قدميه وتتغلغل في التربة، ويرفع إلى أعلى ذراعيه اللتين يظن أنهما ستصيران غصنين ينبتان أغصاناً أخرى. إلاّ أن أمه ستفاجئه قائلة: "ألن تبطل التمثيل السخيف الذي يرعبني؟". وعندما سأله أخوه عما يفعل لم يجبه "لأن الأشجار لا تتكلم".

أدب عن الأطفال لا للأطفال

عالم طفولي ساحر، يذكر بجو "الأمير الصغير" للكاتب الفرنسي انطوان دوسانت أكزيوبري وبعالم "أليس في بلاد العجائب"، لكنه طبعاً سيظل أقرب إلى الواقع مهما اتسعت مخيّلة هذا الطفل أو كثرت أوهامه. وقد تقترب نصوص هذا الكتاب من أدب الأطفال الذي أبدع فيه زكريا تامر أعمالاً جميلة من غير أن تنتمي إلى هذا النوع الأدبي.

وربما حاول الكاتب قصداً توظيف خبرته في هذا الحقل ليزيد من التباس هذه القصة الطويلة وليمنحها المزيد من التخييل الطفولي. لكن الطفولة هنا تؤدي دوراً رمزياً وكأنها أقرب إلى "التورية"، إذ تخفي وراءها الكثير من الألم والحكمة اللطيفة. وهذان العنصران هما اللذان ينقذان اللوحة القصصية من الوقوع في شرك أدب الأطفال، ناهيك بالوعي البريء الذي يخالج شخصية الراوي – الطفل. فهكذا يضفي الكاتب شيئاً من الحياة على الجماد فيجعل بطله "الطفل" يتوهم أن الحائط يحكي. بل إن الطفل سيصادق الحائط في المنزل وسيسأله دوماً عن "آخر أخبار البيت". ولن يتوانى الجدار عن البوح له ببعض أسرار العائلة. وعندما يقدم مرة على لمس الحائط بيد حانية يقول له الحائط: "كف عن لمسي وإلا بكيت، ومن المعيب أن تبكي الحيطان".

وفي لوحة "لغة الأسماك" يسأل الطفل أمه مراراً عن البحر الذي لم يره مرة فتقول له: "البحر كالنهر ولكنه أكبر منه". وعندما يسألها عن الأسماك تقول له: "الأسماك تتكلم، لكن لغتها لم يستطع أحد أن يعرفها". حينذاك، فكر الطفل ووعد أمه بأنه عندما يكبر سيكتشف لغة الأسماك ويتقنها. وتنتهي هذه اللوحة بلقطة ساخرة، حين يقول الأب إن الإبن الصغير لن ينجح في اقناع الناس بألا يأكلوا الأسماك. غير أن هذا الفتى – الطفل الراغب في تعلم لغة الأسماك يجيد لغة الهررة، مثلما يخيل إليه، فهو يموء عندما يريد التحدث إلى قطته البيضاء التي يعرف لغتها كما يعرف لغة الحيطان والشجر والطيور. وإن حزن لاصطياد الأسماك وأكلها فهو سيحزن أيضاً لذبح الغزلان وأكل لحمها، هو الذي تعرّف إلى أول غزال مقيد لدى بائع الدجاج في السوق. وراح يحلم بصور الغزلان في الكتب وقد وعده أخوه أنه سيشتري له كتاباً عن الغزلان إذا نجح في امتحانه المدرسي. ومثلما سأل أمه عن البحر سيسأل أباه عن الطائرة مدهوشاً أمام منظرها وهي تشق السماء. يسأل أباه: "الطائرة صغيرة فكيف تتسع لسائقها؟"، فيقول له أبوه: "الطائرة كبيرة في حجم البيت، وفيها مقاعد ومراحيض".

إلا أن الطفل لن يظل سجين مخيلته وأسير الطبيعة التي عمد الكاتب إلى الاحتفال بها من خلال عيني هذا البطل الصغير وعبر أحاسيسه المرهفة، وكأنه يسعى إلى استعادتها كملاذ يلجأ اليه هرباً من قسوة العالم وكابوسية الحياة الحديثة والمعاصرة. فها هو الطفل في لوحات أخرى لاحقة يخرج من عزلته العائلية والطبيعية إلى السوق والمقهى وإلى الطبيب، وها هو في لوحة "ورد

أم بصل؟" يقف أمام المرآة واضعاً سيجارة بين شفتيه. وعندما يعلم والده بالأمر يقول إن "هذا الولد القرد ابن أبيه فعلاً، فأنا عندما دخنت أول سيجارة كنت أصغر منه". وسينتهز الطفل هذه "المسامحة" طالباً من أمه أن تأخذ له صورة وهو يضع بين شفتيه سيجارة، ونظراً إلى أن أمه لا تجيد التصوير يظهر في الصورة جسماً بلا رأس.

إنها المرة الأولى التي يخرج فيها تامر عن الأسلوب القصصي ليكتب ما يشبه السيرة الذاتية البديعة كقصة طويلة أو كرواية قصيرة

وعندما يعده أخوه أيضاً باصطحابه إلى السينما بعد شفائه من وعكة صغيرة، ليشاهدا فيلم طرزان قائلاً له إن الممثل طرزان سيأتي شخصياً إلى السينما، يسأله: هل يمكنه أن يأتي من دون القردة "شيتا" التي لا تفارقه؟

لا تخلو نصوص "القنفذ" من بعض السخرية التي تسم عادة قصصاً كثيرة لدى زكريا تامر، لكن السخرية هنا لا تستحيل "سوداء" ولا عبثية صرفة، بل هي تظل على شيء من الألفة والعفوية. في نص "سأشتري بنكاً" تلتقي العائلة حول التلفزيون الصغير في البيت بانتظار إعلان نتائج "اليانصيب" وكان الوالد اشترى ورقة وأحسّ أن قلبه يقول له إنه سيفوز بالجائزة الكبرى. وقبل إعلان النتائج يقول الأب لولديه وزوجته: سأقسم الجائزة إلى ثلاث حصص، واحدة للإبن الكبير، وواحدة للصغير (الراوي) والثالثة له ولزوجته. ويروح كل واحد يحلم بماذا سيشتري بالمال. الطفل قال إنه سيشتري بنكاً من غير أن يدري ما هو البنك، وقال الوالد إنه سيشتري سيارة تريحه من المشي وانتظار الباص، وتلفزيوناً كبير الشاشة وسريراً عريضاً، تعترض عليه الأم لأنها تفضل السرير الضيّق... وعندما أعلنت النتائج كانت الورقة خاسرة، حينذاك لجأت الأم إلى سريرها لتنام باكراً وكأنها أصيبت بخيبة.

البراءة في مواجهة القسوة

غير أن الطفل الذي يعلن ذات مرة أنه يحلم في أن يصبح "حرامياً" (سارقاً) يتألم أمام بعض المشاهد الإنسانية التي رآها عندما خرج مع والده إلى السوق، وكان كل مرة يغمض عينيه لعدم قدرته على احتمال ما يرى. ومن تلك المشاهد: مشنقة محاطة برجال الشرطة، يتدلى منها رجل مشنوق، ولد صغير واقف على الرصيف يبكي، فتاة صغيرة أغمي عليها ونقلت إلى المستشفى بلا حقيبتها المدرسية، متسوّلة تقعد على الرصيف مع ثلاثة أطفال وسخين ومبتوري الأيدي، رجلان يتضاربان بشدة... وعندما يفرك الطفل عينيه بأصابعه يجدها مبتلّة بالدموع. لعل هذه المشاهد التي رآها الطفل تختصر نواحي عدة من الواقع العربي.

الطفولة قابلة للاستفادة دائماً

يشعر قارئ كتاب "القنفذ" أنه حيال قصة طويلة أو رواية قصيرة ولكن غير خاضعة لحركة من التنامي في الأحداث والمواقف. إنها رواية أو قصة مركبة من متواليات أو لوحات سردية تجمع بينها شخصية الراوي – الطفل ووحدة المكان الموزّع بين العائلة والبلدة والساحة وكذلك وحدة الزمن الذي هو زمن الحاضر الذي سيصبح في اللوحة الأخيرة زمن الماضي. فالراوي – الطفل الذي يسرد تلك اللوحات المتوالية سيصبح في اللوحة الأخيرة رجلاً تخطى الثلاثين من عمره وهو يبدو كأنه يسترجع ماضيه في لحظة العودة إلى المنزل، بعدما توفي والده ووالدته. واللافت هنا أنه يصطحب معه ابنه الذي هو في العمر الذي كان فيه قبل عقود من الزمن. وفي ختام اللوحة هذه يسأل ابنه الصغير عما يفعل، فيقول له أنه يرسم قرية صغيرة لا يعيش فيها إلا القطط والطيور والشجر. يربّت الأب براحته على رأس ابنه مشجعاً إياه ويقول في نفسه أنه ينوي أن يقلّده وأنه سيرسم مدينة ليس فيها أي حي وشوارعها وبيوتها جبال من رماد. هكذا يستعيد الأب طفولته من خلال طفولة ابنه الذي سيكون صورة عن الطفل الذي كانه ذات يوم. إنها لعبة الزمن الخطرة التي لا ترحم، فاللون الأخضر الذي طالما سكن عينيه ويسكن الآن عيني طفله، صار الآن رماداً.

إنها المرة الأولى يخرج فيها زكريا تامر عن الأسلوب القصصي الذي اختطه ليكتب ما يشبه السيرة الذاتية التي تدمج بين الواقع والمتخيل من خلال لعبة سردية تجمع بين فن القصة القصيرة القائمة على مفهوم "اللحظة" وفن الرواية ولكن في المعنى التجريبي. وفرادة هذا الكتاب أن من الممكن قراءته كمجموعة قصصية مؤلفة من قصص منفردة ومستقلة، وكقصة طويلة أو كرواية قصيرة مركبة من لوحات ومتواليات مرتبطة بعضها ببعض من خلال أكثر من خيط داخلي. إنها في أي حال "قصة" بديعة، أياً كانت الصفة التي يمكن إطلاقها عليها.

مقتطفات

1 الحقيبة

..من "القنفذ"

الساعة الرابعة، ولم يأتِ أخي من المدرسة.
الساعة الخامسة، ولم يأتِ أخي إلى البيت.
الساعة السادسة، ولم يأتِ أخي.
أتى أبي إلى البيت، ولم يأتِ أخي.
قالت أمي لأبي إن أخي تأخر في العودة إلى البيت من دون سبب تعرفه، فقال لها: "ابنك رجل، لا تخافي عليه".
أتت قطتي من جولتها المسائية في الحارة، ولم يأتِ أخي.
قال أبي لأمي: "تأخر ابنك".
قالت أمي: "اذهب واسأل عنه".
قال أبي: "وأين سأسأل عنه؟ في مدرسته؟ مدرسته تقفل أبوابها في الرابعة".
قالت أمي: "اسأل عنه في المستشفيات".
قال أبي: "أعوذ بالله!".
قالت أمي: "اسأل عنه في مخافر الشرطة".
قال أبي: "أنا في حياتي كلها لم أدخل مخفر شرطة ولن أدخله".
قالت أمي: "إذا لم تذهب، فأنا سأذهب".
قال أبي بغضب وسخرية: "ما شاء الله! هذا ما ينقصنا".
فلم تفه أمي بكلمة، وجلست واجمة كأنها تحولت تمثالاً من حجر.

في الساعة التاسعة، فتح باب البيت، ودخل أخي مصفرّ الوجه، يلهث متعباً كأنه كان يركض طول ساعات، فتجهّم وجه أبي، وبادرت أمي تسأل أخي عن سبب تأخره، فقال لها: "دعيني أستريح أولاً".

قال أبي لأمي بلهجة ساخرة: "أما سمعت ما تفوّه به ابنك البيك؟ هيا احضري له ماءً ساخناً لقدميه وفنجان قهوة وأعطه سيجارة لعله يستريح ويستطيع الكلام بعد ساعات".

قالت أمي لأخي بنزق: "احكِ أين كنت".
وحكى أخي عن سبب تأخره.
خرج أخي من مدرسته كالعادة في الساعة الثالثة، ومشى متجهاً إلى البيت، وفي أثناء سيره تنبه لامرأة عمرها أكثر من سبعين سنة تحمل حقيبة سفر يبدو أنها ثقيلة.
وكانت العجوز تحمل الحقيبة وتمشي خطوتين ثم تضع الحقيبة على الأرض وتستريح ثم تحمل الحقيبة وتمشي خطوتين ثم تضع الحقيبة على الأرض وتستريح، فأشفق عليها، وتذكر كل كلام أساتذته في المدرسة عن ضرورة مساعدة الناس المسنين، ودنا أخي من العجوز، وعرض عليها أن يساعدها في حمل الحقيبة، فشكرته وقالت له إنه ابن حلال، وأعطته الحقيبة، فحملها، فوجدها ثقيلة جداً، واستغرب أن تستطيع عجوز حمل مثل هذه الحقيبة، وسألها عن المكان الذي تقصده، فقالت إنها ذاهبة الى بيتها.
سألها أخي عن موقع البيت، فأجابت إنه قريب جداً.

مشى أخي وراء العجوز حاملاً الحقيبة، يدخل في حارة ويخرج من حارة، وكلما سأل العجوز عن بيتها كان جوابها إنه بات قريباً، وسيصلان إليه بعد دقيقة أو دقيقتين على الأكثر.



وغربت الشمس، وحلّت العتمة، وما زال أخي يحمل الحقيبة ويسير وراء العجوز.
وتعب أخي وتباطأت خطواته، وصارت العجوز تحثه على السير، وتوبخه، وأحس أنه سيموت من التعب، ووجد نفسه فجأة يرمي الحقيبة على الأرض، ويركض هارباً تتبعه صيحات العجوز التي تتهمه بأنه ابن حرام.

وعندما ابتعد أخي عن العجوز اكتشف أنه في حارات يجهلها، فصار يمشي ويسأل ويمشي ويسأل حتى وصل إلى شوارع يعرفها، ولم يستطع ركوب أي باص لأنه نسي نقوده في البيت.
وعندما انتهى أخي من كلامه، اكتفى أبي بالقول بصوت آسف: "لا حول ولا قوة الا بالله".
وقالت أمي لأخي: "العشاء جاهز وسأحضره لك".
فقال أخي إنه تعبان وغير جائع ولا يريد إلا النوم.

وعندما استلقيت على سريري محاولاً النوم، ظلّت عيناي مفتوحتين: المرأة العجوز بعد هروب أخي تنحني وتحمل الحقيبة الثقيلة وتمشي ببطء، وتكتشف أنها أضاعت بيتها، فلا تتوقف عن المشي، فيعترض طريقها ولد في السادسة من عمره، قويّ الجسم، مفتول العضلات، ويحملها هي والحقيبة، ويوصلها إلى بيتها الذي أضاعته، فتحاول أن تشكره، ولكنه يسارع إلى الابتعاد عنها، ويركض عائداً إلى بيته ليستلقي على سريره ويغمض عينيه وينام مبتهجاً.

2 الملح

..من "القنفذ"

أوشكت أمي أن تنتهي من طهو الطعام، فتنبهت إلى أن ما لديها من ملح قد نفد، ولامت نفسها بصوت عالٍ حانق، فأبي في المعمل، وأخي في المدرسة، وإذا ذهبت لشراء ما تحتاج إليه من ملح، فقد يحترق الطعام في أثناء غيابها، ولم تجد حلاً لهذه الورطة إلا أن تكلفني بشراء الملح من دكان البقال في سوق الحارة، وأعطتني النقود، وأوصلتني حتى باب البيت وهي توصيني بألا أمشي وسط الطريق، وألا أتشاجر مع أي ولد، وأن أشتري ملحاً لا سكراً.

سرت لصق الحيطان في زقاقنا الطويل سريع الخطى، وانعطفت يساراً في الطريق الموصل إلى سوق الحارة حيث دكاكين بيّاع الخضر واللحام والبقال والحلاق والفوال وبياع الدخان، فلمحت ثلاثة أولاد أكبر مني سناً، اعتادوا السخرية مني كلما رأوني، وتباطأت خطواتي على الرغم مني، وارتبكت وتحيرت، فالعودة إلى البيت بغير ملح ستعرضني لتوبيخ أمي، أما إذا تابعت السير، فوجوه الأولاد الثلاثة تنبئ أنهم لن يكتفوا بالسخرية مني كعادتهم.

مشيت كأني لم أرَ أحداً، وتصايح الأولاد متضاحكين لحظة اقتربت منهم، وتدانت رؤوسهم متهامسين ثم اعترض الثلاثة طريقي مشكلين جداراً، وقال لي أحدهم، وكان ذا وجه أسمر وعينين صغيرتين سوداوين وأذنين كبيرتين: "المرور ممنوع".
قلت: "أنا ذاهب إلى البقّال".

فلكزني الولد الأسمر بمرفقه لكزة قوية موجعة قائلاً لي بنزق: "أف! أنت أطرش؟ ألم تسمع ما قلنا؟".
والتفت إلى رفيقيه متسائلاً: "ماذا قلنا؟".
فصاح الولدان بصوت واحد: "المرور ممنوع والعتب مرفوع".
وقال لي الولد الأسمر: "أسمعت؟ من يرغب في المرور، من واجبه أن يرضينا ويدفع الثمن".

فتمسّكت أصابع يدي اليمنى في جيب بنطالي بثمن الملح بينما صاح الولد الأسمر بصوت فرح مخاطباً رفيقيه: "انظرا انظرا إلى رقبته. الله ما أعرضها وما ألذها! تصلح مطاراً تهبط عليه الطائرات". وأهوى الولد الأسمر فجأة بكفه على مؤخرة رأسي في صفعة قوية مؤلمة، وقال لي: "الآن صار المرور مسموحاً وفقاً لقوانيننا التي لا تسمح لأحد بأن يمر مجاناً".

فانحنيت على الأرض، وتناولت حجراً صلداً أكبر حجماً من قبضتي، وقذفت به نحو الولد الأسمر بيد جنّ جنونها، فاندفع الحجر كقذيفة مدفع ليبلغ مرماه، وينبثق فوراً الدم الأحمر الغزير من رأسه، ويبلل شعره، ويسيل على جبهته وحاجبيه وعينيه، فارتعب الولد الأسمر، وقعد على الأرض وهو يبكي ويولول بصوت كصوت النساء، فسارع رفيقاه إلى الهرب، وركضت عائداً إلى البيت، وما إن رأتني أمي حتى سألتني: "أين الملح؟ ولماذا وجهك أحمر وتلهث؟".

فأخبرتها بشجاري مع الأولاد الثلاثة متوقعاً أن تتباهى بي، ولكنها صاحت بي شاحبة الوجه: "الله لا يكبرك، ماذا يقول أبوك حين يسمع الخبر؟ نحن ناس لا نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا".
فقلت لها: "لا تزعلي. في المرة الثانية، سأعود إلى البيت مضروباً يسيل مني الدم حتى ترضي".
فقالت لي أمي: "ماذا تقول؟ مرة ثانية؟! لم تعد يا مسكين تستطيع أن تمشي وحدك في الحارة لأن الأولاد سيكونون بانتظارك لينتقموا منك".

وما تنبأت به أمي لم يتحقق، فعندما خرجت من البيت وتجولت في الحارة مخبئاً حجراً في جيبي، تبدل الأولاد، واستقبلوني كأني أكبر سناً منهم، وكان الولد المضروب المضمد الرأس أول المتبارين في التحبب إليّ.



قول آخر

عرب عند أطراف أصابعكم

لسنوات طويلة انشغلت بقضية انفصام المشرق العربي ثقافياً عن الجزيرة العربية ومنطقة الخليج. خُيّل لي أحياناً أن هناك تغييباً متعمداً للمثقف العربي الخليجي إلى درجة أن لا أحد فيما يُعرف بمنطقة الهلال الخصيب، من بين المثقفين المرموقين، يعرف حمد الجاسر، أو طاهر زمخشري، أو إبراهيم العريض، أو أحمد مشاري العدواني. وحين التقيت الناقد المعروف الأستاذ الدكتور سعد البازعي في حفل تكريم الشاعر عبدالله الجشي في منزل نجيب الخنيزي أكد لي هذه الشعور، من خلال طرحه، في تلك المناسبة، لموضوع المركز والأطراف. المركز المتمثل في الشام ومصر عموماً وربما العراق، والأطراف المتمثلة في الجزيرة العربية والخليج العربي وربما المغرب العربي والسودان.

لقد بقي إخواننا في دول (المركز الثقافي) يتصورون أننا خُلقنا لنستهلك منتجهم الثقافي من غير أن نملك القدرة على تحقيق منتج منافس أو مماثل. وبينما اهتموا بالتعرف إلى أشخاص نكرات في أصقاع الأرض من أطراف أمريكا اللاتينية إلى الصين وأدغال إفريقيا لم يكلفوا أنفسهم عناء الوصول إلى أرض عربية عند أطراف أصابعهم؛ ليتعرفوا إلى ملامحها الفكرية والأدبية والشعرية ويدرسوا حياة روادها وينقلوا لقرائهم عبر العالم العربي مشهداً ثقافياً كبيراً ورائعاً لا تنقصه المعاناة ولا التضحيات.

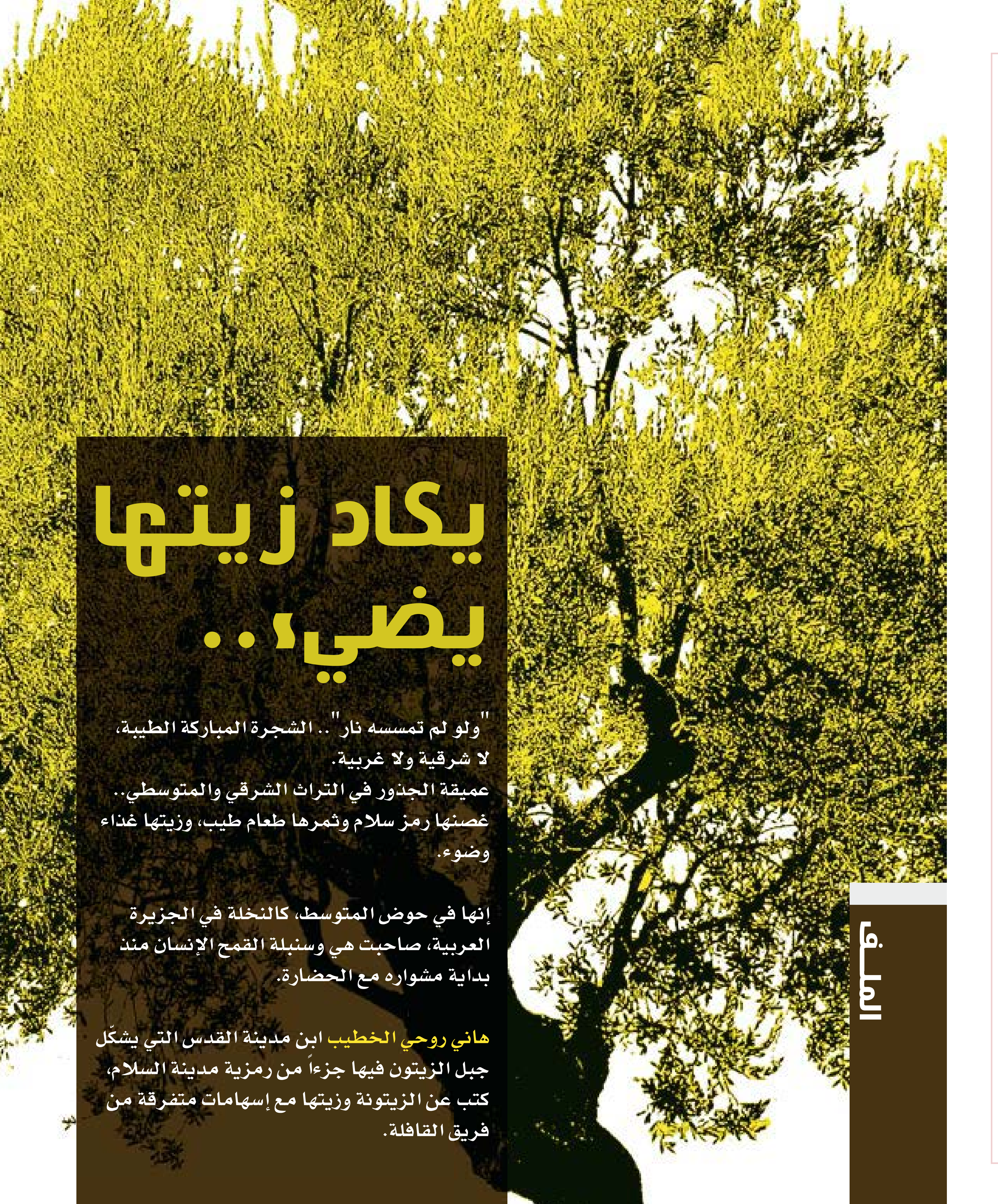
إلى الآن حين تذكر عبدالله الغذامي، أو محمد الرميحي، أو قاسم حداد، أو تركي الحمد، أو عبده خال، أو محمد العلي، أو تركي السديري فإن واحداً من مائة مثقف فيما يسمى دول المركز الثقافي سيعرفهم؛ لأن ما ليس ممهوراً بختم ذلك المركز لا يعتد به ولا بجهده الفكري أو الأدبي. بل ويكون من باب التفضل عليه أحياناً لو دُعي إلى مهرجان أو منبر من منابر العرب الثقافية. وإذا استجاب للدعوة وحضر فإنه سيُعطى المكانة الأقل حتى لو كان رائداً، بينما سيحظى الآخر المنتسب إلى فوقية المركز بالمكانة الأكبر والمنبر الأوسع ليعبر عن نفسه وإبداعه، حتى لو كان مجتهداً مغموراً.

في موازاة ذلك، وبينما تفاءلنا بما ستضيفه الفضائيات على مشهدنا الثقافي العربي من عمومية التناول والطرح وتوافر فرصة الظهور الإعلامي الثقافي لكل العرب، إذا بنا نفاجأ بهذه الفضائيات تعرف العرب كلهم إذا تعلق الأمر بمهازل الغناء والرقص، بينما تذهب في برامجها الثقافية المعدودة والمحدودة مذهب النظرة الفوقية لمثقفي المركز حين لا يكون هناك (كبار) في المشهد الثقافي والأدبي والشعري العربي إلا في حدود الجغرافيا العربية المتفق عليها سلفاً وتعسفاً.

ويبدو جلياً في بعض الأحيان أن معد برنامج ثقافي قادم من دول المركز مستعد أن يستضيف مفكراً أو أديباً أو شاعراً خليجياً واحداً كلّما استضاف عشرة من غير الخليج؛ ليذر الرماد في عيون أصحاب القناة الخليجية فقط، وليس، إلا فيما ندر؛ لأنه يعترف بهذا الأديب أو الشاعر أو الروائي. فمسألة الاعتراف بالإبداع الخليجي تبدو محسومة ومحسوبة، إلى الآن، على الرجعية والبترودولار وما إلى ذلك من انطباعات محنطة نلوم فيها نحن الخليجيون الغربيين أكثر مما نلوم فيها إخواننا العرب، الذين اعتبرونا دائماً أقل إذا ما تعلق الأمر بالشأن الثقافي والفكري والصحافي وأننا لا نرقى إلى مستوياتهم في كافة أشكال الإبداع.

ولذلك عاش روادنا في الخليج ورحلوا وهم لم يتشرفوا بمقابلة إعلامي صغير من إعلاميي دول المركز الثقافي. ولم يحظوا بما حظي به مجايلوهم من الكبار العرب الآخرين. ولا يبدو أن هناك إلى الآن رغبة حقيقية في تغيير هذه النظرة الفوقية من عرب المركز الثقافي إلى عرب أو (أعراب) الأطراف، فالمسألة متعلقة بإرث تاريخي تصعب زحزحته، وإن كان من وجهة نظري لا تصعب مناقشته.

محمد العصيمي



الملف

يكاد زيتها يضيء..

"ولو لم تمسسه نار".. الشجرة المباركة الطيبة، لا شرقية ولا غربية. عميقة الجذور في التراث الشرقي والمتوسطي.. غصنها رمز سلام وثمرها طعام طيب، وزيتها غذاء وضوء.

إنها في حوض المتوسط، كالنخلة في الجزيرة العربية، صاحبت هي وسنبلة القمح الإنسان منذ بداية مشواره مع الحضارة.

هاني روحي الخطيب ابن مدينة القدس التي يشكّل جبل الزيتون فيها جزءاً من رمزية مدينة السلام، كتب عن الزيتونة وزيتها مع إسهامات متفرقة من فريق القافلة.

ما هو سر هذه الشجرة؟

إنها لا تلفت النظر كثيراً بشكلها. فهي ليست بارتفاع النخلة أو شجرة السيكويا العملاقة. ولا توفر ظلاً كبيراً كشجرة السنديان الضخمة، ولا يصلح خشبها للبناء أو لصناعة المفروشات كخشب الجوز أو العرعر، ولا حتى هي ذات جمال شكلي لتكون مصدر وحي أدبي وشعري كما هو حال الحَوْر والدلب والصفصاف. فشكلها يوحي، خاصة عن بعد، بالشيخوخة والذبول، وتبدو بجذعها الملتوي المليء بالعقد أشبه برسم طفل ساذج غير واثق من نفسه. ورغم ذلك كله يختصر الكاتب لورنس داريل أهمية هذه الشجرة بقوله: "إن شجرة الزيتون وزيتها شكّلا الحضارات منذ الأزمان الغابرة إلى عصرنا هذا".

فشجرة الزيتون بالنسبة إلى كل الحضارات التي قامت ولا تزال حول حوض البحر الأبيض المتوسط هي تماماً كالنخلة بالنسبة إلى الجزيرة العربية. ومنذ بزوغ فجر الحضارات استوت هذه الشجرة مع سنبلة القمح وعسل النحل لا كغذاء أو كسلعة اقتصادية فقط، بل كمعلم حضاري وثقافي تجذّر عميقاً في وجدان الشعوب.

شجرة لا مثيل لها

"هناك شجرة لا أعرف مثيلاً لها تنمو فوق أرض آسيا أو جزيرة بيبلوس العظيمة. شجرة لا يمكن اقتلاعها بينما تعود إلى الولادة من تلقاء نفسها. شجرة هي مصدر خوف لجيوش الأعداء، تنمو في هذه الأماكن أفضل من أي مكان آخر، إنها شجرة الزيتون ذات الأوراق البرّاقة ومغذية أطفالنا، الشجرة التي لا يستطيع أحد، لا شاب ولا شيخ أن يدمِّرها أو يخرِّبها".

عندما كتب الشاعر اليوناني سوفوكليس هذا القول على لسان بطله "أوديب" حوالي العام 400 ق.م.، كان السؤال عن سر شجرة الزيتون قد أصبح من الماضي، وخصائص هذه الشجرة وميزاتها باتت معروفة من الجميع. فثمارها التي تكون مرّة عند القطاف تصبح غذاءً لذيذ الطعم بعد معالجته بطرق مختلفة. ومن عصير هذه الثمار يستخرج الزيت، الغذاء القديم جداً الذي لا يزال فتياً جداً، إذ أن استهلاكه لم يعرف التراجع خلال حقب التاريخ البشري، إن لم نقل إن الدراسات الحديثة تدعم مكانته وتتجه إلى رفع معدلات استهلاكه على حساب الدهون الأخرى.

وإضافة إلى كونه غذاءً، عرف الزيت استعمالات عديدة لعل أهمها في الماضي كان إضاءة المصابيح استفادة من قابليته للاشتعال، ومن ثم في صناعة الصابون والأدوية ومواد التجميل.. ورغم كل ذلك يبقى السر في الشجرة قبل الثمرة.

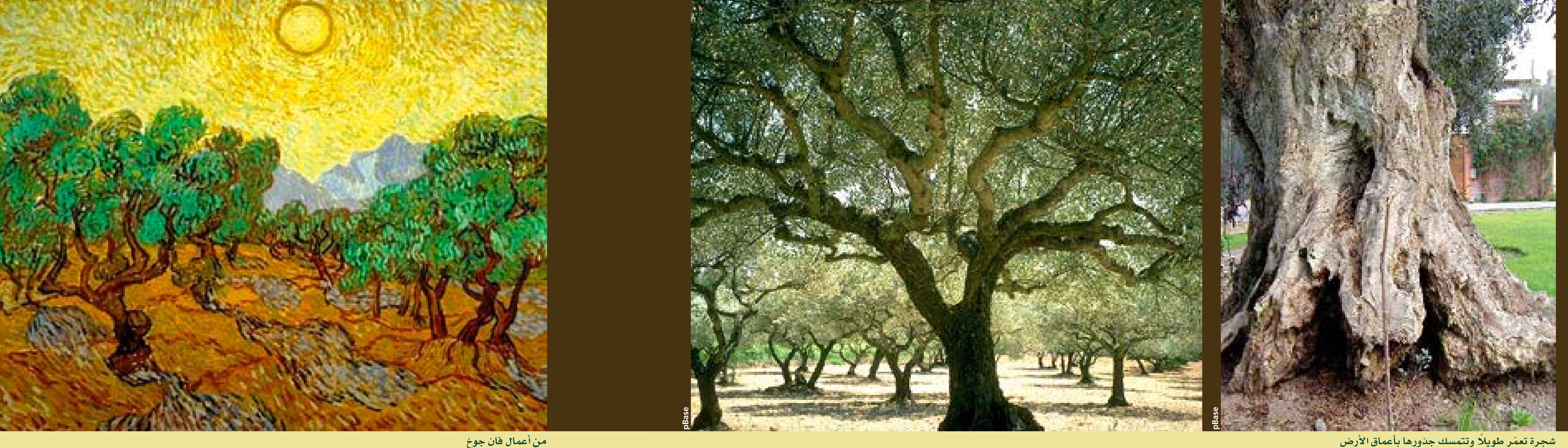
أحصى العلم الحديث 22 جنساً من الزيتون. وتحتوي هذه الأجناس على نحو 500 نوع مختلف، يزرع منها نحو 40 في حوض البحر الأبيض المتوسط. فحياة هذه الشجرة تتناغم تماماً مع المناخ المتوسطي، الحار جداً خلال الصيف وقليل الأمطار خلال الشتاء (المعدل هو 220 ملم سنوياً، وهو الأقل الذي يمكن أن تتحمله أية شجرة مثمرة).

تتكاثر الزيتونة بسهولة بالعقل والعقد والتطعيم. وتنمو بمقدار يتراوح ما بين 30 و 60 سم سنوياً ليصل ارتفاعها في حالتها البرية إلى 12 أو 14 متراً. أما الزراعي منها فيتم إيقاف نموه بالتقليم عند ارتفاع 5 إلى 8 أمتار.

والزيتونة شجرة دائمة الخضرة، تعيش أوراقها ثلاث أو أربع سنوات. وتثمر للمرة الأولى في عمر خمس سنوات، ويصبح عطاؤها مستقراً بعد 15 سنة، ويبلغ ذروته عندما تصبح في الأربعين.. وتستمر في العطاء نفسه – وهنا الأمر المدهش – لمدة 400 سنة على الأقل!! والكثير من أشجار الزيتون يعيش أكثر من ذلك ليتراوح عمره ما بين 700 و1000 سنة، وفي حالات استثنائية قد تعيش الزيتونة لآلاف السنين. فأشجار الزيتون التي زرعها الإمبراطور الروماني هوريان في القرن الثاني بعد الميلاد لاتزال حية في إيطاليا. وفي مرتفعات جبيل في لبنان أكد علماء فرنسيون أن عمر بعض أشجار الزيتون هناك يناهز الثلاثة آلاف سنة، ويحتاج جذع الواحدة منها إلى نحو ثمانية رجال ليتمكنوا من تطويقها بأذرعهم!

أما جذور هذه الشجرة فتغوص عميقاً في باطن الأرض، وقد تصل حتى عمق سبعة أمتار، في حين أنها تمتد أفقياً لتشكل دائرة قطرها نحو خمسة أمتار.. الأمر الذي يعطي هذه الشجرة صلابة وقوة ومناعة في تحدي الجفاف والأعاصير التي تقضي على الأشجار الأخرى.

العدو الوحيد لهذه الشجرة هو البرد. إذ أن تدني الحرارة إلى ما دون 7 درجات تحت الصفر يشكل خطراً كبيراً على حياتها، خاصة إذا طالت مدتة لعدة أيام. (الأمر غير وارد تقريباً في حوض المتوسط). ومع ذلك فإن تدني درجة الحرارة إلى ما يقارب الصفر (وهو أمر شائع في حوض المتوسط) يعتبر ضرورياً لكي تصبح هذه الشجرة مثمرة.



شجرة تعمِّر طويلاً وتتمسك جذورها بأعماق الأرض

pBase

pBase

من أعمال فان جوخ

من أعمال فان جوخ

عمر فروخ

من أعمال عمر فروخ

ويلخص الروائي الفرنسي تيد مونيه في روايته "نانس الراعي" قوة هذه الشجرة وقدرتها على الحياة بقوله: "الزيتونة هنا، وستبقى مكانها. من الذي سيقتلها يوماً ما؟ الصاعقة النارية أم الإنسان الغبي بفأسه الحديد؟ إذا ضربتها الصاعقة في قلبها، فستبقى منتصبة لقرن من الزمن، حية بفضل سور يلف باطن الجذع الذي أحرقته نيران السماء. وإذا قطعها الإنسان إلى فتات صغيرة، فعلى الفأس والرفش والمعول الغوص عميقاً جداً لعدم ترك نثرة صغيرة من الخشب قد تنبعث لاحقاً في هيئة عشرين غصناً أخضر، ولا أي شبر من الجذور التي حياتها وقوتها من باطن الأرض الملتهب، أما أوراقها فستبقى طويلاً قبل أن تتحلل، وستصرخ كالخيول البرية عند إحراقها، وستعطي لهباً جميلاً يبعث على الندم.. هذه هي الزيتونة".

القطاف طقس لا يتبدل

ليست الشجرة وحدها التي تعمّر طويلاً. ففي عالم الزيتون يصبح كل شيء تقليداً لا يتغير. ففي خريف كل سنة يحين موعد القطاف وهو واحد على كل سواحل المتوسط.

"هناك أناس يقفون حول الشجرة يقطفون ثمارها بأيديهم، وهناك من يضرب أغصانها العليا بعصا طويلة لتتساقط حباتها على أغطية كبيرة تكسو الأرض حول جذع الشجرة، وعدد من النسوة ينتقين حبات الزيتون المتساقطة فوق هذه الأغطية ويفصلنها عن الأوراق..". هذا ما جاء في نص عثر عليه في قصر كنوسوس في اليونان ويصف قطاف الزيتون كما كان قبل نحو أربعة آلاف عام. واليوم، لا يزال المشهد نفسه يتكرر من دون أي تغيير يستحق الذكر في كل بساتين الزيتون في اليونان كما في سوريا وتونس وفرنسا وإسبانيا.

عمر فروخ

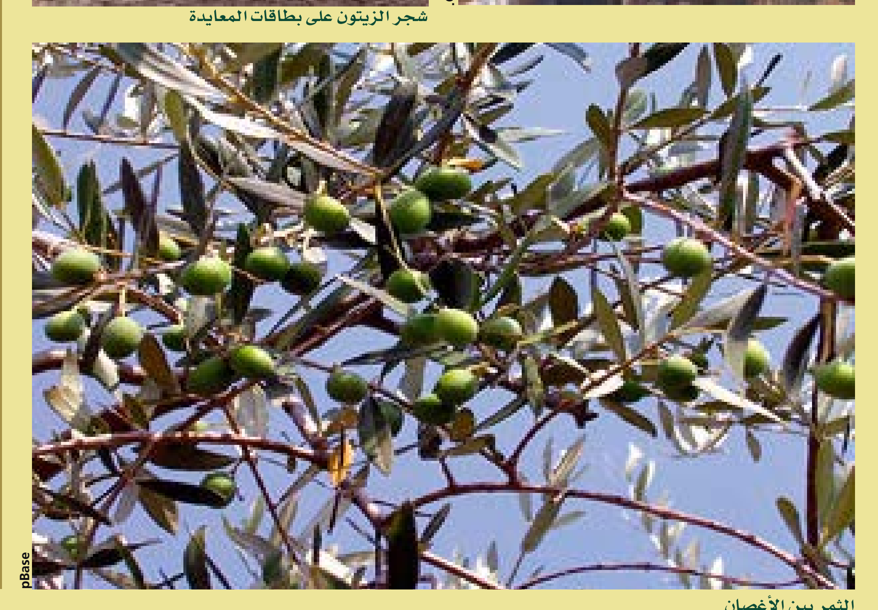
قطاف الزيتون في لوحة الفنان اللبناني عمر فروخ





شجر الزيتون على بطاقات المعايدة

Guillaume De Laubier d.r



pBase

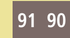
الثمر بين الأغصان

دورتها السنوية

تختلف دورة الحياة لشجرة الزيتون سنوياً اختلافاً طفيفاً ما بين جنوبي المتوسط وشماله. إلا أنها بشكل عام على الشكل الآتي:

- نوفمبر إلى فبراير: سُبات شتائي
- مارس إلى أبريل: استيقاظ وبداية تشكيل البراعم
- مايو إلى يونيو: الإزهار
- يوليو إلى أغسطس: تصلُّب نواة الثمرة
- أكتوبر: تبلغ الثمرة حجمها النهائي
- سبتمبر إلى يناير: القطاف في سبتمبر للمبكر جداً من الموسم، ويناير للمتأخر منه حسب النوع وحالات الطقس وتأخر أمطار الخريف





تم اختراع آلة لقطاف الزيتون. ولكن لأسباب عديدة، منها ما هو مجهول، لم تتمكن هذه الآلة من الحلول محل اليد العاملة. فقطاف الزيتون طقس سنوي، متعب وشاق، ولكنه ممتع. إنه وقت ينتظره المزارع بفارغ الصبر، لا لجمع الغلال فقط، بل للاستمتاع بالمكافأة على التعب. ولذا يعز عليه أن يجيِّر هذا العمل إلى آلة تسلبه وقت الفرح بالقطاف.

وبسبب صغر حجم الثمار وانتشارها أينما كانت على الأشجار، يحتاج القطاف إلى أيدٍ عاملة كثيرة. ومعظم أصحاب البساتين يستعدون للأمر مسبقاً. فيستنفرون كل الطاقات البشرية المتوافرة من حولهم سلفاً، ويتعاقدون مع عمال موسميين لهذه الغاية. وحتى اليوم، فإن اليونان هي الدولة الوحيدة في العالم، التي يحظى الموظفون الحكوميون فيها بإجازات إضافية في فصل الخريف، للتوجه إلى قراهم لقطاف الزيتون.

الزيت.. هذا الذهب السائل

بعد القطاف تشيح الأنظار عن الشجرة التي كانت قبلتها طوال الربيع والصيف؛ لتتركز على تلال الزيتون التي ترتفع في غرف خاصة بالبيوت. هناك، تُنتقى كمية محدودة من أفضل الحبّات وأحسنها شكلاً لتحفظ للأكل.

أما القسم الأكبر فيجب أن يتوجه خلال أيام معدودة، وقبل أن يلحقه التلف إلى المعاصر.

مبدأ عصر الزيتون واحد، وإن تبدّل من الاعتماد على حجر الرحى الذي كان يديره حمار أو بغل، إلى المعاصر الآلية الحديثة. تسحق حبّات الزيتون بعد غسلها بالماء، حتى تتحول إلى عجين. ومن ثم توزع عجينتها على أسطوانات من صوف تكدس فوق بعضها، وتضغط إما بحجر أو بمكبس آلي وهي تغسل في الوقت نفسه بالماء الساخن لتسييل الزيت، وانتزاع بقاياه من البذور والقشور المسحوقة. وينتهي السائل المتدفق من الكبس في أحواض كبيرة حيث يبقى ليوم تقريباً، يطفو خلاله الزيت فوق الماء، ويترسب "الزيبار" المؤلف من الماء النباتي والجزيئات الصلبة في القاع. ومن هذه الأحواض يعبّأ الزيت في جرار من الخزف أو قناني من الزجاج، حيث يبقى صالحاً للاستعمال حوالي سنة ونصف أو سنتين على الأكثر إذا تم حفظه بعيداً عن الحرارة والرطوبة.

ليس هناك زيت زيتون، بل زيوت زيتون

يقسّم الزيت إلى ثلاث فئات رئيسة: الأولى ونسبة الحمض فيها تكون 1.5 في المئة، والثانية تتفاوت هذه النسبة فيها ما بين 1.5 و 3 في المئة، أما الثالثة فما بين 3 و 4.5 في المئة. والزيت الجيد هو ما يحوي نسبة أحماض قليلة، ويستدل على ذلك بالعين من كثافته عند صبه. فالزيت كثير الأحماض يكون عادة رقيقاً وسائلاً أكثر من غيره.

ويتدرج الزيت في ألوانه من الأخضر إلى الأصفر، وفي مظهره ما بين البرّاق أو المعتم، وما بين الشفافية أو العكر، وحتى في رائحته التي تكون عطرية أو معدومة. وتعود كل هذه الاختلافات إلى نوعية التربة، وأحوال الطقس التي سادت الموسم، وطريقة العصر والتخزين.

فإذا كان الزيت واحداً بالنسبة إلى الكثيرين، فإن الذوّاقة والعريقين في التعامل مع الزيتون وزيته يوزعونه على نكهات مختلفة لكل منها استعمالاته الخاصة في المطابخ الراقية.



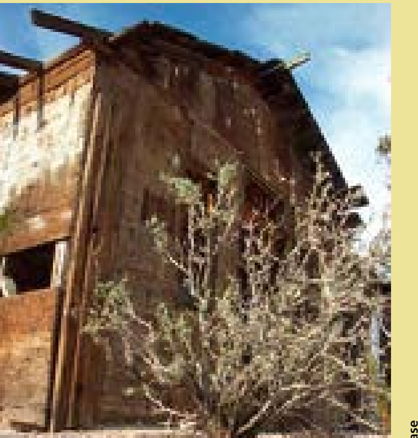
pBase

آلة عصر الزيتون القديمة

Guillaume De Laubier d.r



pBase



pBase

شجرة الزيتون في المملكة

لا يزال الطريق طويلاً جداً أمام شجرة الزيتون لتخرج من ظل النخلة في الجزيرة العربية. ولكن ما تحقق حتى الآن في مجال زراعتها يعد لافتاً للنظر بحجمه ونجاحه.

تتركز زراعة الزيتون في المملكة العربية السعودية في منطقتي الجوف وتبوك نظراً لما تتمتع به هاتان المنطقتان من تربة ومناخ مشابهين لما هما عليه في المناطق المتوسطية. وقد وصل عدد أشجار الزيتون في هاتين المنطقتين إلى نحو ثلاثة ملايين شجرة، أي ثلاثة أضعاف ما هو موجود منها في فلسطين، وضعفي ما في لبنان.

وقد حققت زراعة الزيتون في المملكة نجاحات على صعيدي الإنتاج والنوعية "تفوق الوصف" على حد تعبير الباحث ناصر بن إبراهيم الغصن من كلية الزراعة في جامعة الملك سعود في الرياض، الذي يقول إن الشركات الزراعية الكبرى في المملكة بدأت تستثمر في هذا المجال، وتزرع الآلاف من هذه الأشجار التي لا تحتاج إلى مياه كثيرة ولا إلى عناية مستمرة.

ويطالب الغصن بإنشاء مركز متخصص لأبحاث الزيتون لأهميته الغذائية والاقتصادية، يكون من ضمن مهماته اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية هذه الشجرة وتطبيق الحجر الزراعي حفاظاً عليها.



pBase

الزيت والزيتون على المائدة

يعتبر الوجود الدائم لصحن من الزيتون على طاولة الطعام تحصيل حاصل في معظم الدول المتوسطية. فيشكل عماد وجبة الفطور الصباحية، ومقبلات وجبتي الغداء والعشاء، أو يكون محل الحلوى في تلطيف المذاق في الفم بعد الانتهاء من وجبة طعام دسمة. كما أنه يدخل في صلب أطعمة عديدة فنجده إلى جانب الخضار في السَلَطَة اليونانية، وعلى البيتزا الإيطالية، ومحشواً داخل لفافات من الخبز في فرنسا.

أما الزيت فحضوره أقوى، إذ تشترك مطابخ كل الدول المتوسطية في تحضير مئات الأطباق التي لا قاسم مشترك بينها غير زيت الزيتون. فالمازة المؤلفة من أطباق صغيرة ومتنوعة والتي اشتهر بها المطبخ الشامي والتركي تقوم أساساً على زيت الزيتون نيئاً أو مطبوخاً مع الخضار والحبوب والحشائش. وثمة أطباق لا يصلح تقديمها إلا بزيت الزيتون مثل ورق العنب والفول الأخضر والهندباء، الحمص بالطحينة، والخضار بالزيت والفاصولياء.. من دون أن ننسى "المنقوشة" بالزعتر والجبنة التي يدخل الزيت في أساس مكوناتها إلى جانب الزيتون.

ولا يقتصر حضور زيت الزيتون على الأطباق المالحة، فثمة أصناف من الحلوى تُصنع منه، ومنها "مطبق بالزيت والسكر" المؤلف من طحين وماء وزيت زيتون وسكر حيث تُصنع عجينة تُرق وتُدهن بالزيت ويُوزع السكر عليها، وتُعاد العملية أكثر من مرة، ثم تخبز العجينة وتقدم. وهناك "الكعك بالزيت" وغير ذلك من الأصناف العديدة.

ويدخل زيت الزيتون في صلب أطباق المعجنات الإيطالية، وحتى في مكونات البيتزا والأسماك. وفي إسبانيا نجده في المقبلات وأنواع الحساء وأطباق الأرز والبيض والخضار إضافة إلى السلطات والدجاج واللحوم. وللدلالة على المكانة التي يحتلها زيت الزيتون في الطعام المتوسطي يمكن العودة إلى أي من الكتب الخاصة بالزيتون الصادرة في أوروبا، حيث إن معظمها يتضمن ملحقات ضخمة من عشرات ومئات الأطباق الخاصة بكل بلد، وتعتمد في تحضيرها على زيت الزيتون.



فوائد الزيت والزيتون

يتألف الزيتون مما تتراوح نسبته ما بين 40 و50 في المئة من الماء، وما بين 15 و40 في المئة من الزيت، ومن 25 إلى 40 في المئة من المواد الصلبة التي تتألف بدورها من 70 في المئة من السكر، و20 في المئة من السليلوز و5 في المئة من البروتينات، و5 في المئة من الأملاح المعدنية.

لا تظلموا زيت الزيتون

لا أحد يجرؤ على نقد زيت الزيتون نيئاً، ولكن هناك خطأ شائعاً يقول إن هذا الزيت ليس جيداً للطبخ؛ لأن الحرارة تبدّل طعمه ويصبح ضاراً. ولكن الواقع هو عكس ذلك تماماً. فزيت الزيتون يتحمل الحرارة ويصلح للطبخ أكثر من أية مادة دهنية أخرى.

فالحرارة التي يبدأ معها هذا الزيت بالتدخين (أي يخرج منه دخان لا رائحة له ولكنه ضار) هي ما بين 210 و 230 درجة مئوية، في حين أن زيت دوار الشمس يدخّن عند وصول حرارته إلى 170 درجة مئوية، والزبدة عند 110 درجات.

إذن هو أفضل من غيره للطبخ والقلي، مع الانتباه إلى وجوب عدم تسخينه حتى مستوى انبعاث الدخان منه. وهذه قاعدة عامة تنطبق على غيره من المواد الدهنية.

pBase

pBase

وقد كشفت دراسة نُشرت مؤخراً في مجلة "المرأة العصرية" أن نسبة السعرات الحرارية تقل في الزيتون الأخضر عمّا هي عليه في الأسود. فكل مئة غرام من الزيتون الأخضر تحتوي على 123 سعراً حرارياً، مقابل 234 سعراً حرارياً في الكمية نفسها من الزيتون الأسود.

أما الزيت الذي وصفه الشاعر الإغريقي هوميروس بـ "السائل الذهبي"، فقد وصفه الطبيب أبوقراط بـ "الدواء العظيم". والدراسات الحديثة تدعم يوماً بعد يوم صحة هذا الرأي.

فمما أدهش الباحثين منذ سنوات قليلة هو أن سكان جزيرة كريت اليونانية هم أقل الناس إصابة بأمراض القلب والسرطان في العالم. ومما زاد من الدهشة هو أن سكان هذه الجزيرة يستهلكون زيت الزيتون أكثر من أي شعب آخر. إذ أن نحو 33 في المئة من السعرات الحرارية التي يتناولونها يومياً تأتي من زيت الزيتون.

يحتوي زيت الزيتون على حامض طبيعي يُدعى حامض الأوليك، وهو الأفضل بين الدهون الأحادية غير المشبعة (Mono Unsaturated)، فيعمل هذا الحمض الفريد على زيادة الكوليسترول الجيد في الدم على حساب الكوليسترول السيء الذي يمكن أن يؤدي ارتفاعه إلى

"كان غير شكل الزيتون"

إن كانت المتاجر الحديثة تحوي اليوم عشرات الأنواع والأشكال من الصابون، فالأمر لا يعدو أكثر من تنويعات شكلية مشتقة من أصل واحد: صابون زيت الزيتون.

فالمكونات الأساسية للصابون هي الدهون أو الزيوت تضاف إليها مادة قلوية غالباً ما تكون هيدروكسيد الصوديوم (المعروف شعبياً باسم محلول القلي أو الصودا الكاوية).

ومنذ مئات السنين وحتى اليوم كان كل من ينتج زيتوناً وزيتاً في حوض المتوسط يصنع الصابون أيضاً، ويستعمل لهذه الغاية زيت الموسم السابق الذي اقترب من انتهاء مدة صلاحيته للأكل.

ولهذه الغاية، يتم تذويب الصودا الكاوية التي تكون على شكل حجارة بلورية في الماء، ثم تضاف إلى الزيت الموضوع في قدر معدني كبير، ويُغلى المزيج على نار متوسطة. فتتشكل بفعل الحرارة قشدة الصابون في الخليط. ثم يضاف ملح الطعام لفصل الخليط إلى طبقتين، فيرتفع الصابون إلى الأعلى، وتترسب باقي المواد في الأسفل. ويصب الصابون الذي يكون سائلاً سميكاً وهو ساخن في قوالب، فيتصلب عندما يبرد.

وللحصول على الصابون السائل (الشامبو) يكفي استبدال هيدروكسيد الصوديوم بهيدروكسيد البوتاسيوم.

أما المطهرات والألوان والعطور التي تتسم بها أنواع الصابون التجارية فهي إضافات. ومن الممكن جداً في أنواع الصابون الرخيصة أن يكون قد تم استبدال زيت الزيتون بمواد دهنية أخرى.

أما الأصل النقي فهو صابون أخضر اللون يميل إلى الرمادي، برائحة الزيت الزكية، الرائحة التي تغنّت بها فيروز: "كان غير شكل الصابون... كان غير شكل الزيتون"



تصلب الشرايين واذ   مر الذي بدوره له علاقة كبيرة بأمراض القلب والجلطات الدموية.

كما كشفت الأبحاث المخبرية التي أجريت في فرنسا (حيث الاهتمام العلمي بالزيت أكبر مما هو عليه في أماكن أخرى) أن تركيب زيت الزيتون قريب من تركيب الدهون في حليب الرضاعة. لذا، فإن امتصاصه أسهل على الجسم من امتصاص وهضم أية مادة أخرى. فإذا كانت عملية هضم طعام دسم في المعدة تتطلب نحو ثماني ساعات، فإن هضم وجبة مؤلفة من الخبز والزيتون، أو الزعتر والزيت لا يتطلب سوى نصف تلك المدة.

ويعدد البروفسور الفرنسي آلان شاربونيه مجموعة كبيرة من فوائد زيت الزيتون تشمل الكبد والمعدة والمسالك البولية والمصارين الدقيقة والهيكل العظمي والدماغ والأوعية الدموية والشرايين والقلب. ويشدد على أنه لا بديل عن زيت الزيتون ولا غنى عنه لتركيب العظم ونموه الطبيعي. كما أنه الطعام الدهني الوحيد الذي يساعد النساء على تلافي ترقق العظام مع التقدم بالسن.

وفي بريطانيا أدرج أطباء زيت الزيتون، إلى جانب الفواكه والخضار الطازجة، على قائمة الأطعمة المساعدة على الحد من الإصابة بسرطان القولون. ويعتقد أن زيت الزيتون يخفض كمية الصفراء، ويرفع من مستوى أنزيمات مهمتها تنظيم تبدد الخلايا في الأمعاء، في حين أن اللحوم مثلاً لها مفعول عكسي، إذ تزيد من الصفراء.

ويشير علماء يابانيون إلى أن دهن الجلد بزيت الزيتون النقي يقي من سرطان الجلد الناجم عن التعرض لفترات طويلة لأشعة الشمس.

pBase

المروج الخضراء تملؤها أشجار الزيتون

طرق حفظ الزيتون

تتلون حبات الزيتون بواحد من لونين: الأخضر أو الأسود. وتتنوع طرق حفظه بتنوع الأذواق والعادات التي تختلف من بلد لآخر. فثمة من يحب شيئاً من المرارة في طعمه، وهناك من يفضل تحليته، أو إضافة نكهة الفلفل الحار والليمون الحامض، وحتى الكمون أو الزعتر الأخضر.

أسرع وسائل تحضير الزيتون هي "الترويجة" الشائعة في بلاد الشام. فبعد أن يُقطف الزيتون ويُغسل يُضرب بمطرقة خشبية حتى تتشقق قشرته، ثم يُنقع في الماء يوماً كاملاً. بعد ذلك يُرش عليه ملح الطعام ويوضع في مصفاة. وعندما يتغير لونه إلى الداكن بشكل ملحوظ، يمكن تقديمه على المائدة، ويكون طعمه مراً بعض الشيء غير أنه يحوي كل نكهة الزيتون الطازج. غير أن هذه الطريقة لا تسمح بالاحتفاظ بالزيتون صالحاً لأكثر من أيام قليلة.

أما لحفظ الزيتون لمدة سنة كاملة أو أكثر فهناك أكثر من طريقة، وأكثرها شيوعاً الطرق اليونانية، وأشهرها "الزيتون المرصوص" الذي يحضّر من الزيتون الأخضر الناضج. فـ"يرصّ"، أي تشقق قشرته بمطرقة، ثم يوضع في جرار فخارية أو أوعية زجاجية ويغمر بالماء المالح. ويجب أن تكون كثافة الملح في الماء كافية لكي تعوم البيضة النيئة فيه. ومن الممكن تعطيره بورق الليمون أو الفلفل الحار أو الزعتر.

ويصبح صالحاً للأكل بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. أما إذا اتبعت الطريقة نفسها من دون تشقيق قشرة حبة الزيتون، وأضيفت طبقة رقيقة من الزيت على سطح الوعاء، فتبقى الحبّات طازجة محتفظة بكامل نكهتها لأكثر من ستة أشهر، ولا تصبح حلوة المذاق إلا بعد أيام على فتح الوعاء الذي يحويها.

وهناك كبيس الزيتون، الذي يقوم على شق كل حبة منه برأس السكين، وفركه بالملح الخشن، ومن ثم غمره بالزيت وشرائح الحامض من دون ماء.

أما الطريقة الإسبانية فتعتمد أساساً على الزيتون غير الناضج الأخضر المائل إلى الاصفرار، فيوضع في محلول القلي ليزيل منه طعم المرارة لمادة الأوليوروبين، ثم يُغسل ويُغمر في محلول ملحي. وقد تنتزع من الزيتون النواة لتستبدل بحشوة مثل اللوز والفلفل الحلو. ثم يعبأ الزيتون في محلول ملحي طازج، ويعقم بالبسترة.

ومن الطرق التي لا يمكن حصرها هناك أيضاً الطريقة الأمريكية التي تتعامل مع الزيتون صناعياً، فتغمره في محلول القلي ثم تعرضه للهواء بالتناوب حتى تزول مرارته فيتحول لونه من الأخضر إلى البني الداكن. بعد ذلك تغسل الثمار وتخلل. وبعد التعليب يعقّم الزيتون في درجة حرارة تصل إلى 116 درجة مئوية.



pBase

بعد القطاف

ويُستخدم زيت الزيتون لوقف تساقط الشعر من خلال تدليك فروة الرأس به كل مساء وتغطيتها ليلاً، ثم غسل الرأس صباحاً، وذلك لمدة عشرة أيام. أما لإزالة تجاعيد الوجه والرقبة، فيصنع مزيج من زيت الزيتون وصفار البيض وبضع نقاط من الليمون، ويوضع المزيج كقناع على الوجه.

ولأن زيت الزيتون يحتوي على نسبة جيدة من فيتامين (هـ) المضاد للأكسدة، فقد كشفت الإحصاءات أن استهلاك ملعقة منه يومياً تقلل من خطر الإصابة بسرطان الثدي بنسبة تتجاوز 40 في المئة.

وثمة من ينصح بتناول قطرات من زيت الزيتون يومياً للوقاية من فقدان الذاكرة. ويقول الدكتور أنطونيو كابورسو الذي يرأس فريقاً علمياً من جامعة باري، إن زيت الزيتون يُبقي على أداء الدماغ لوظيفته بشكل فاعل عند بلوغ الإنسان سن الشيخوخة. إذ يبدو أن هناك حاجة متزايدة إلى الأحماض الدهنية غير المشبعة أثناء الانتقال إلى مرحلة الشيخوخة.

الزيتون تاريخ وجغرافيا

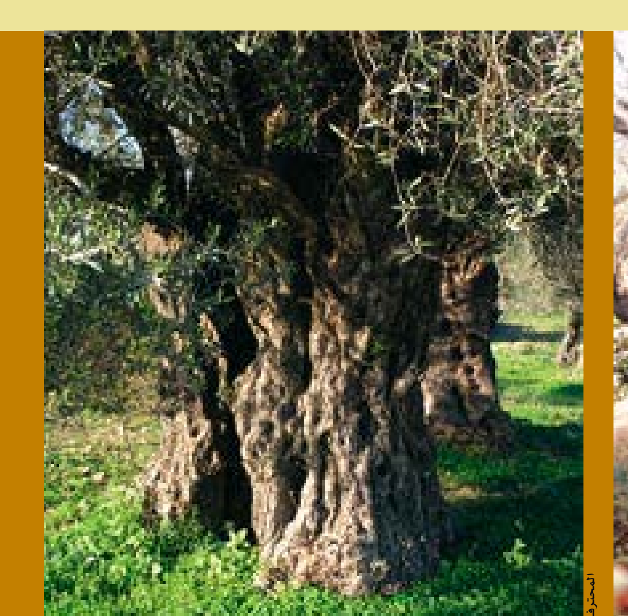
يجمع المؤرخون على أن ظهور شجرة الزيتون كان في البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وعلى الأرجح في سوريا. ومن المرجح أن حضارة جزيرة كريت التي سادت حوض المتوسط ما بين العامين 4500 و 1450 ق.م. (تاريخ اندثار هذه الحضارة بفعل انفجار بركان سانتوريني) قد عرفت الزيتون والزيت، إذ عُثر في آثار قصر كنوسوس على خوابي زيت من الفخار يصل ارتفاع الواحدة إلى مترين.

أما أول تدوين لشجرة الزيتون فقد جاء ضمن الأرشيف الملكي الذي عُثر عليه في مملكة إبلا (قرب حلب بسورية)، التي قامت في الفترة الواقعة ما بين العامين 2600 و 2240 ق.م. إذ عثر ضمن هذا الأرشيف على اثنتي عشرة وثيقة تتعلق بأملاك الملك والملكة، التي كانت تضم 1465 هكتاراً من الأراضي المزروعة بالزيتون. كما تشير هذه الوثائق إلى وجود 4000 جرة زيت مخزونة ومخصصة للعائلة المالكة و7000 جرة أخرى للشعب.

وبما أن كل جرّة كانت تحتوي على ستين كيلو من الزيت، فهذا يعني وجود 700 طن من زيت الزيتون لاستعمال شعب إبلا الذي لم يتجاوز عدده 15 ألف نسمة. الأمر الذي يدل على أن صناعة زيت الزيتون كانت رئيسة في ذلك الوقت، وتتجاوز استخداماتها الطعام، وصولاً على الأرجح إلى التصدير التجاري.

فمن سواحل بلاد الشام انطلقت زراعة الزيتون لتعم معظم البلدان الواقعة حول المتوسط. فقد وصل الفينيقيون إلى دكار في السنغال جنوباً على شاطئ الأطلسي وإلى كورنويل في بريطانيا، وسواحل فرنسا الجنوبية حيث أسسوا مدينة مرسيليا. وكانت الزيتونة هديتهم إلى العالم.

وأخذت شجرة الزيتون في أوروبا المتوسطية مكانة فاقت مكانتها في وطنها الأم. فاليوم، صارت إسبانيا وحدها تمتلك 250 مليون شجرة مزروعة على مليوني هكتار، أي ربع المساحة المخصصة عالمياً لزراعة الزيتون، وهي تنتج حوالي 800 ألف طن من الزيت، أي 30 في المئة من الإنتاج العالمي.




المحترف السعودي

يُعتقد أن هذه الحلقة من «الاجزاء» هي شجرة واحدة فرغ قلبها مع مرور السنين.. التي تربو على الالفين.

أرشيف المحترف السعودي

جبل الزيتون في القدس

وتأتي إيطاليا في المرتبة الثانية، ثم اليونان وفيها حوالي 137 مليون شجرة يعتني بها حوالي 700 ألف شخص أي 6.5 في المئة من السكان.

وفي شمال إفريقيا التي وصلتها الزيتونة عندما أسس الفينيقيون مدينة قرطاج في القرن التاسع ق.م. ظلت زراعة الزيتون مزدهرة حتى الفتح العربي عام 698م. حين بدأت بالتدهور نتيجة تفضيل التربة الأندلسية عليها. ولكن منذ القرن الخامس عشر، أي بعد سقوط الأندلس، أعاد العرب تركيز جهودهم على الزراعة في بلاد المغرب. ومنذ ذلك الحين وهذه الزراعة تتقدم باستمرار. وبلغت ذروتها في القرن العشرين. فقد أصبحت هذه الزراعة رائجة وشعبية إلى درجة احتلت معها صور الزيتون البطاقات البريدية في الجزائر وتونس.

وفيما تفيد التقارير الصحافية أن زراعة الزيتون في الجزائر تأثرت بشكل بالغ من جرّاء الاضطرابات الأخيرة، فإن تونس تحتل المرتبة الثانية عالمياً في إنتاج الزيت بعد دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة. إذ تبلغ مساحة الأراضي المزروعة زيتوناً نحو مليون ونصف المليون هكتار، أي سبعة أضعاف مثيلتها في الجزائر.

أما في الموطن الأصلي لشجرة الزيتون ونعني به المرتفعات الساحلية في بلاد الشام، فلا تزال هذه الشجرة عنصراً مهماً في الاقتصادات الوطنية وإنتاجها يزيد على الحاجات المحلية، ليدخل في عداد الصادرات رغم عدم انتعاش زراعتها كما هو الحال في إسبانيا واليونان وتونس.

في سوريا التي تحتل المرتبة السابعة عالمياً يزرع الزيتون في الجبال الساحلية المحيطة بطرطوس واللاذقية وإدلب إضافة إلى هضبة الجولان التي تضررت كل الزراعات فيها نتيجة الاحتلال الإسرائيلي.

وفي فلسطين، لا تزال زراعة الزيتون مورد رزق أساس لآلاف العائلات، وهو ثاني الصادرات الفلسطينية. غير أن هذه الزراعة تضررت جداً بفعل الاحتلال والاضطرابات الأمنية المستمرة. إذ تؤكد المصادر الفلسطينية أن الإسرائيليين اقتلعوا منذ العام 1967م نحو 350 ألف شجرة زيتون من أصل مليون شجرة. ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير إلى أن أحد الجبال المهمة في جوار مدينة القدس يحمل اسم جبل الزيتون.

وفي لبنان يشكل الزيتون الزراعة الرئيسة في مناطق الكورة وعكار والجنوب، حتى أن اسمه أطلق منذ القدم على صيدا عاصمة الجنوب (بالفينيقية صيدون أي زيتون). وإذا كان الزيت والزيتون الشامي قد خسر زعامته التاريخية كماً، فهو لم يخسرها نوعاً. إذ أن الذواقة حتى الأوروبيين منهم يقرّون بتفوق مذاقه ونكهاته المختلفة على باقي الزيتون في العالم.

من المتوسط إلى أمريكا.. وغداً في الصين

منذ اكتشاف أمريكا نقل المستوطنون الأوروبيون شتلات الزيتون إلى القارة الجديدة. وحاولوا زرعها أينما كان. ولكن وبمرور الوقت ازدهرت هذه الزراعة وتركزت في منطقتين: كاليفورنيا وجنوب تكساس. واليوم يسجل استهلاك الأمريكيين من الزيت والزيتون ارتفاعاً صاروخياً، وزراعته أيضاً، بسبب الأبحاث الطبية التي تكتشف كل يوم مزيداً من فوائده. أما أستراليا، فلا تزال بساتين الزيتون فيها فتية جداً، ولكن نظراً لتوافر المساحات والمناخ الملائم يتوقع الكثيرون أن تصبح هذه القارة لاعباً دولياً مهماً في مجال صناعة الزيت خلال عقدين أو ثلاثة من الزمن.

غير أن الترقب الأكبر هو لما ستؤول إليه زراعة الزيتون في الصين، التي قامت باستيراد بعض أنواع الزيتون الإيطالي وزرعته في المناطق الوسطى من جنوب البلاد حيث المناخ مشابه لما هو عليه في حوض المتوسط. وقد يكون من المبكر الحكم على آفاق هذه التجربة (كما هو الحال بالنسبة إلى أستراليا)، ولكن النتائج الجيدة التي أخذت بالظهور بدأت تثير قلق الأوروبيين.

حتى ورق الزيتون وزهره

عرف الطب الخصائص العلاجية لورق شجر الزيتون منذ القدم. والمؤكد أن الفراعنة استخدموا ورق الزيتون في تحنيط موتاهم. أما أول إشارة في الطب الحديث إلى أوراق الزيتون كدواء فتعود إلى 150 سنة خلت، في مقال نشر عام 1854م في مجلة صيدلانية أمريكية، وكتبه دانيال هانبوري الذي تحدث عن خصائص هذه الأوراق في معالجة الحمى والملاريا. ويقول الكاتب في المقال أنه كان يغلي حفنة من أوراق شجر الزيتون في لترين من الماء حتى يتبخر نصفه، ثم يسقي المريض من المحلول كأساً صغيرة كل ثلاث أو أربع ساعات حتى تزول الحمى، وذكر أن المادة شديدة المرارة في الأوراق هي الشافية، بإذن الله. وقد ثبت ذلك علمياً في وقت لاحق. إذ أعلن عالم إيطالي عام 1962م أن تلك المادة تُدعى Olevropein.

وفي تونس، ذكر باحثون أن إحدى المواد المستخلصة من أوراق شجر الزيتون تخفض من التوتر ومن السكر في الدم ومن مستوى حامض اليوريك بعد تجربتها على الفئران المخبرية، مما يبشر بإمكانية استعمالها عند البشر بعد استكمال التجارب المطلوبة. وحتى زهرة شجرة الزيتون فقد استعملت في بعض الوصفات العلاجية. وأكثر من كتب عن هذه الزهرة هو الدكتور ادوارد باخ الذي نشر عام 1938م نحو 38 وصفة طبية تعتمد في تركيبها على زهرة شجرة الزيتون لشفاء بعض الأمراض والحالات، منها الإرهاق وتوليد الطاقة في الجسم، واستعادة التوازن المفقود في فترات النقاهة. أما مضار الزيتون فتختصر بوجوب الامتناع عن تناوله عند المصابين بمشكلات صحية تستوجب تخفيض استهلاك الأملاح مثل ارتفاع ضغط الدم، وارتفاع ملح اليوريك، وذلك بسبب غنى الزيتون بالأملاح المعدنية، وأيضاً بسبب اعتماده على كثير من الملح لحفظه.

في صميم حضارة المتوسط

عندما استضافت اليونان الألعاب الأولمبية خلال العام الماضي، اختارت غصن الزيتون شعاراً لها، والأمر طبيعي طالما أن الزيتونة هي الشجرة الوطنية الأولى في البلاد. ولكن ولأول مرة في تاريخ الألعاب الأولمبية الحديثة، توِّج الأبطال الفائزون في مختلف الألعاب بأكاليل خضراء من أغصان الزيتون إحياءً لتقليد أولمبي قديم. فإكليل الزيتون لا يختلف كثيراً عن إكليل الغار في تمجيد حامله البطل.. الأول للبطل الرياضي، والثاني للعسكري،، أي واحد للسلم والآخر للحرب.

كان ذلك أحدث فصل من الفصول الطويلة التي يتألف منها تاريخ شجرة الزيتون في وجدان الحضارات المتوسطية. ولا أحد يعرف على وجه الدقة ما هو الفصل الأول.

فمما يُروى أن نوحاً، عليه السلام، عندما أراد أن يستكشف انتهاء الطوفان العظيم، أطلق من الفُلْك حمامة، حلّقت بعيداً، وعادت إلى الفُلْكِ حاملة غصن زيتون مبشرة بانحسار الطوفان. ومنذ ذلك الحين، وغصن الزيتون هو رمز السلام في الشعارات المصورة الصادرة عن المنظمات العالمية، ونقيض البندقية في خطابات السياسيين. إنه رمز كل ما هو خيِّر وإيجابي في وجه كل ما هو سيء وسلبي. وبهذه الصفة احتلت صورة الحمامة وغصن الزيتون الطوابع البريدية والميداليات التذكارية لمناسبات الدعوة إلى السلام. ومن أشهر الأعمال في هذا المجال ما رسمه الإسباني بابلو بيكاسو والفرنسي هنري ماتيس.

ولمناسبة الحديث عن الرسم، لا يمكن التغاضي عن أشجار الزيتون التي رسمها فان غوخ. فإن كان الكثيرون يرون أن هذه الشجرة تفتقر إلى الجمال بسبب كثرة العقد في جذعها الملتوي وأغصانها غير المتوازنة، فإن هذه السمات بالضبط هي التي شدت انتباه هذا الفنان الهولندي عندما اكتشف هذه الشجرة في فرنسا المتوسطية، فأوفاها حقها من التقدير في واحدة من لوحاته الرائعة. وبسبب عمرها الطويل وخيرها العميم، تصبح شجرة الزيتون معلماً حيثما وجدت، فتشغل مساحة وجدانية أكبر من حجمها المادي، وتعطي حتى اسمها لما يحيط بها.

في تونس أعطت الزيتونة اسمها لأكبر مسجد ومدرسة في العاصمة "جامع الزيتونة" الذي بناه الحسان بن نعمان في العام 80هـ. وأعطت اسمها لجبل الزيتون الشهير قرب مدينة القدس. كما أعطته إلى كل مكان تزرع فيه. ففي الكثير من قرى بلاد الشام تصبح كلمة "الزيتون" اسم ناحية من النواحي أو مكان محدد غالباً ما يكون مزروعاً بالزيتون. ولكن حتى بعد زوال الأشجار يبقى الاسم، كما هو حال "كرم الزيتون" في قلب بيروت.

وأعطت هذه الشجرة اسمها للناس: زيتون وزيتونة لعائلات عدة لا صلة قربى ما بينها، ولا شيء مشترك غير علاقة الأسلاف بشجرة الزيتون. وأيضاً لأفراد: أوليفيه بالفرنسية، وأوليفر بالإنجليزية.. وصولاً إلى المعادن والحجارة الثمينة "الأليفين" للحجر الكريم ذي اللون الأخضر الزيتوني المعروف أيضاً بـ "الزبرجد".

ففي تاريخ حوض المتوسط تلوّن حضاري وثقافي شبيه لكثافته وتنوعه على أية رقعة مماثلة على وجه الأرض. ومنذ نشوء الحضارات على سواحل هذا البحر قبل سبعة آلاف سنة أو أكثر، كانت هناك صدامات شبه مستمرة ما بين هذه الحضارات، وكان هناك تاريخ طويل من الحروب والعداوات. وكما أن الجامع الوحيد ما بين هذه السواحل المختلفة كان البحر، فإن المعلم الحضاري المشترك والأول كان ولا يزال شجرة الزيتون.



غصن الزيتون شعار الألعاب الاولمبية لعام 2004 في اليونان ومنه باقة النصر

اقرأ عن الزيتون

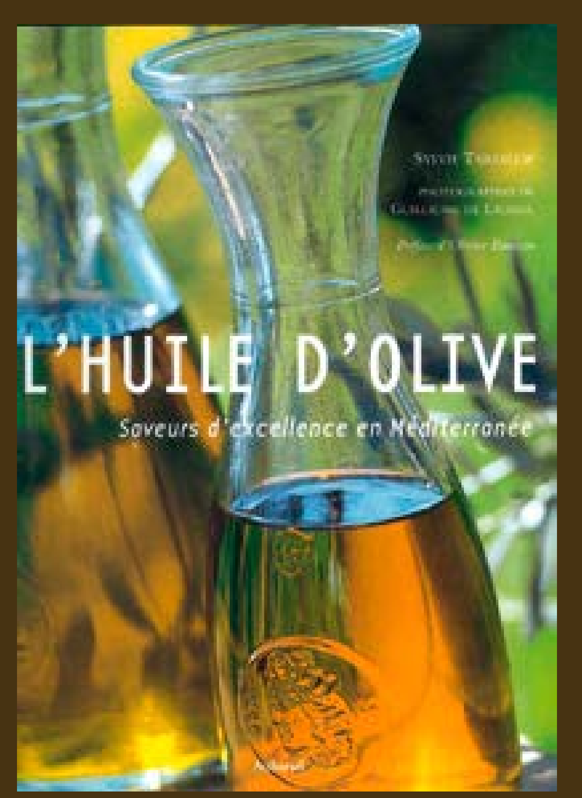
إضافة إلى الكتب التي تتحدث عن شجرة الزيتون من وجهة نظر زراعية، وتتجه إلى المزارعين بالدرجة الأولى، وهي متوافرة بكل لغات حوض المتوسط، برع الفرنسيون أكثر من غيرهم في الكتابة عن الزيتون وزيته من زاوية ثقافية وحضارية، إضافة إلى زاوية فن الطبخ.

وقد بدأت سلسلة الكتب عن الزيتون بالظهور منذ القرن الثامن عشر، تاريخ بدء الاهتمام العلمي الحديث بهذه الشجرة. ومن أقدم ما وصلنا مخطوط محفوظ في مكتبة فلورنسا مزين بعشرات الرسوم عن هذه الشجرة وأوراقها وثمارها وتعود إلى ما بين العامين 1770 و 1784م، وتحمل توقيعي الكونت لويجي فانتوني والدكتور جيونا بيرتوساني.

وفي المكتبات الفرنسية العديد من هذه الكتب، كان آخرها "زيت الزيتون، طعم الامتياز في المتوسط"، الذي صدر خلال العام الماضي.

يتناول هذا الكتاب في مئتي صفحة زراعة الزيتون في كل من اليونان وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، إضافة إلى فصل أخير حول الزيتون في باقي دول العالم.

وفي كل فصل تتوقف المؤلفة سليفي تارودو أمام أشهر البيوتات التي تتولى زراعة الزيتون في هذا البلد أو ذاك، وتاريخ عائلاتها، وتقاليدها في الزرع والقطاف والعصر، إضافة إلى عرض لأشهر الأطباق الخاصة بكل بلد، ونصيب زيت الزيتون في تركيبتها.



وما بين كل فصل مخصص لبلد وآخر، تفرد المؤلفة مساحة خاصة لشجرة الزيتون بشكل عام: التاريخ، أشكال القطاف، الأنواع، نكهات الزيت المختلفة، ودوره العلاجي.

وبإمكان القاريء أن يستكمل معلوماته حول هذا الموضوع من خلال مواقع عديدة على شبكة الإنترنت نذكر منها:

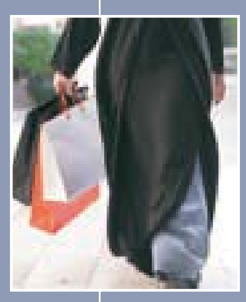
http://www.oilrout.gr/thene.html

http://www.olivierdeprovence%20anglais/history.html

http://www.oliveleafextract.com/history.html



تصوير يوسف الديبسي



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو - أغسطس 2005
المجلد 54 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com